الفصل الثاني

أخلاقيات الحرب

عند رسول الإسلام ﷺ

﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾ ﴾

محمّـدٌ سـيّدُ الكـونين والثقلَـيْن والفريقـين مِـن عُـربٍ ومِـن عَجَـمِ
فـاقَ النَّبيينَ في خَلْـقٍ وفي خُلُـقٍ ولـم يُـدَانُوهُ فـي عِلـمٍ ولا كَـرَمِ
مُنَـزَّهٌ عـن شـريكٍ فـي محاسِـنِهِ فجَـوهَرُ الحُسـن فيـه غيـرُ منقسِـمِ

البوصيري

الفصل الثاني

أخلاقيات الحرب عند رسول الإسلام ﷺ

الأخلاقي الأول محمد بن عبد الله ﷺ

يمكن القول أن الأزمات التي تتعرض لها البشرية من جراء الحروب لم تكن وليدة نقص فكري أو ثقافي أو اقتصادي؛ بقدر ما هي وليدة **"أزمة خُلُقية"**، لذا نرى أن جميع الرسل والديانات كان من أهم مبادئها ترسيخ قواعد الأخلاق السامية بين الشعوب؛ فهي تُحَرِم وتُجَرِم الحروب من أجل الاستغلال والاعتداء على الغير، ودمار كافة المقومات البشرية لإرضاء شهوات ما أنزل الله بها من سُلطان.

ماهية الأخلاق ؟

وللأخلاق[1] أهمية بالغة لما لها من تأثير كبير في سلوك الإنسان وما يصدر عنه، بل نستطيع أن نقول: إن سلوك الإنسان موافق لما هو مستقر في نفسه من معان وصفات.

(١) الأخلاق لغة، جمع خُلُق،، " والخَلق والخُلق: السجية، وهو الدين والطبع للمزيد، أنظر، لسان العرب (١٠ / ٨٦) وقال ابن فارس: «الخاء واللام والقاف أصلان: أحدهما تقدير الشيء، والآخر ملاسة الشيء، ومن ذلك: الخلق وهو السجية؛ لأن صاحبه قدر عليه (مقاييس اللغة ٢ / ٢١٤ مادة خ ل ق) .[وقال الراغب الأصفهاني: «الخلق والخلق في الأصل واحد ...لكن خصَّ الخَلْق بالهيئات والأشكال والصور المدركة بالبصر، وخُصَّ الخُلُق بالقوى والسجايا المدركة بالبصيرة انظر: الذريعة إلى مكارم الأخلاق، ص٣٩].

ولا تكون الأخلاق أخلاقاً ما لم تكن ملكة مطردة على قانون فطري تقتضيه[١] والحاسة الخُلُقية انبعاث داخلي فطري[٢] ولذلك قال الغزالي[٣] عن الأخلاق أنها: "عبارة عن هيئةٍ في النفس راسخة، عنها تصدر الأفعال بسهولة ويسر من غير حاجة إلى فكر ورويَّة"[٤]، والأخلاق كمبدأ لا يمكن وجودها بغير دين[٥] وبغير رسول.

الرسول مثل أعلى لمكارم الأخلاق

ولكل شخصية عظيمة ناحية تظهر فيها هذه العظمة، ومجال واحد لنشاطها، ولكن محمد ﷺ كان عظيماً في كل ناحية وكان مجال أثره العالم أجمع، فلو كان مقياس العظمة هو إصلاح شعب متدهور، فمن ذا يتطاول إلى مكان محمد ﷺ **؟!** إنه سما بأمة متدهورة وانتشلها من الجهل، ورفعها إلى السماء، ولو كان مقياس العظمة في توحيد البشرية المفككة الأوصال، فما أقدر بهذه العظمة من محمد، الذي جمع شمل العرب، اللذين كانوا قبائل متنافرة متشاحنة وجعلهم أمة عظيمة جديرة بالوقوف في وجه أعظم الإمبراطوريات يومئذ؟

ولو كان مقياس العظمة هو إقامة حكم السماء على الأرض، فمن ذا الذي ينافس محمداً، وقد محا الوثنية من الأرض محواً، ورفع اسم الواحد القهار **؟!** ولو كان مقياس العظمة هو السمو الخلقي فمن يقف بجوار محمد في السمو والرفعة والأخلاق بعد أن سماه أعداؤه، قبل أصحابه، الأمين " [٦] .

وقال رسول الله ﷺ مبيناً الغرض الأساسي من بعثته النبوية السامية:

---

(١) عبد الرحمن الكواكبي: طبائع الاستبداد، دار المدى، القاهرة ٢٠٠٢ م / ١٤٢٣ هـ، ص ٧٥.

(٢) عبد الرشيد عبد العزيز سالم: مبدأ الحوار في الإسلام، ضمن مقالات " صور حضارية من عطاء الإسلام، القسم الأول، المجلس الأعلى للشئون الاسلامية، سلسلة قضايا اسلامية، عدد ٩٧، ص ٥٣.

(٣) الغزالي (٤٥٠ – ٥٠٥ هـ) هو محمد بن محمد بن محمد أبو حامد الغزالي بتشديد الزاي. نسبته الي الغزال (باتشديد) علي طريقة اهل خوارزم وجرجان: ينسبون الي العطار عطاري، والي القصار قصاري، وكان أبوه غزالاً، أو هو بتخفيف الزاي نسبة الي (غزاله) قرية من قري طوس. فقيه شافعي أصولي، متكلم، متصوف. رحل الي بغداد، فالحجاز، فالشام، فمصر وعاد الي طوس. من مصنفاته: (البسيط)؛و(الوسيط)؛ و (الوجيز)؛و(الخلاصة) وكلها في الفقه؛ و(تهافت الفلاسفة)؛ و(إحياء علوم الدين). [طبقات الشافعية ٤/١٠ – ١٨٠؛ والاعلام للزركلي ٧/٢٤٧؛ والوافي بالوفيات ١/٢٧٧].

(٤) أنظر: إحياء علوم الدين للغزالي (٣ / ٥٣)، و التعريفات للجرجاني، ص١٠٤.

(٥) علي عزت بيجوفيتش: الإسلام بين الشرق والغرب، ترجمة محمد يوسف عدس، ط١، مؤسسة بافاريا للنشر، ١٩٩٤ م / ١٤١٥ هـ، ص ١٩٣.

(٦) مولاي محمد علي: محمد رسول الله، مرجع سابق، ص ٢٨٢.

{**إنما بُعثت لأتمم مكارم الأخلاق**} [1]، ومكارم الأخلاق هذه هي النظام الأساس في حفظ حقوق الآخرين و عدم الاعتداء، و سلامة المجتمع، وبالتالي التقليل من الخسائر بما يضمن للآخرين التعايش بالصورة الإنسانية الصحيحة.

ومن ثم كان من الواجبات الملقاة على عاتق الرسول ﷺ أن يبين للناس مكارم الأخلاق ويرغبهم فيها، ويدعوهم إلى اتباعها[2]؛ فقال ﷺ:" إن الله يحب مكارم الأخلاق. ويبغض سفاسفها ". وفي رواية أخرى: إن الله يحب معالي الأمور وأشرفها. ويكره سفاسفها "[3].

ويبين الرسول ﷺ هذه القاعدة العظيمة، حينما قال لأبي ذر[4] ﷺ قال:

" اتق الله حيثما كنت، واتبع السيئة الحسنة تحمها، وخالق الناس بخلق حسن }[5].

وعن أبي الدرداء[6] ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ { **أثقل ما يوضع في الميزان يوم القيامة تقوى الله وحسن الخلق** }[7]. وذكر في حديث آخر، إن أول ما يوضع في الميزان، حسن الخلق والسخاء.

وإنك لتجد في كل آية من القرآن دعوة، إلى أصل من أصول الخُلُق الحسن، وتجد كل مبدأ إسلامي يرشدك إلى نمط مكارم الأخلاق ولقد كان جواب العربي لمن يسأله عن دعوة محمد ﷺ هو أنه يدعو إلى الخير كله! وإنك لتجد القرآن

---

(١) رواه أحمد في مسنده: (٩١٨٧).

(٢) حامد عبد القادر: الاسلام ظهوره وانتشاره، دار نهضة مصر ط٣، ١٩٧٧ / ١٣٩٨ هـ، ص ٢٢٠.

(٣) رواه البخاري.

(٤) هو أبو ذر جُنْدب بن جنادة الغفاري. كان من السابقين إلى الإسلام. وهو أول من حيا النبي ﷺ بتحية الإسلام ووصفه ﷺ بصفتين التصقا به وأصبحا يوجهانه في المواقف المختلفة، وهما الصدق والوحدة والتفرد ولقد دفع الصدق أبا ذر لأن يكون من أكثر الصحابة مجاهرة بالحق مهما عرضه ذلك للأذى وكان من القلائل الذين أعلنوا إسلامهم في قريش، أما الوحدة والتفرد فقد قال عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم (رحم الله أبا ذر يمشي وحده ويموت وحده ويبعث يوم القيامة وحده). (أسد الغابة (٦ / ٩٩)، جمهرة أنساب العرب (١٨٦)، وأنساب الأشراف (١ / ٣٥٣).

(٥) الترمذي (١٩٧٨). وقال حديث حسن صحيح.

(٦) هو أَبُو الدَّرْدَاءِ، عويمر بن زيد بن قيس الأنصاري، الامام القدوة، قاضي دمشق، وصاحب رسول الله ﷺ وسيد القراء بدمشق وهو معدود فيمن تلا على النبي ﷺ وولى القضاء بدمشق عهد عثمان ﷺ وهو أول من ذكر لنا قضاتها ويروى له: مائَةٌ وَتِسْعَةٌ وَسَبْعُوْنَ حَدِيْثاً. وتوفي سنة(٣٢هـ) [الاستيعاب ١٢٢٧/٣، والإصابة ٤٥/٣،وأسد الغابة ١٥٩/٤، والأعلام ٢٨١/٥].

(٧) الترمذي (٢٠٠٤). وقال: حديث صحيح غريب.

رائعاً جد الروعة، عند ما يعلن أن مهمة محمد ﷺ، مهمة أخلاقية أولاً، و هي تزكية النفوس وتطهيرها من أدران الفساد وأوزار الوثنية [١].

وإنك لعلي خلق عظيم

وتفضل الله تعالى على خليله محمد ﷺ بتوفيقه للإتصاف بمكارم الأخلاق، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم؛ ثم أثنى عليه و نوه بذكر ما يتحلى به من جميل الصفات في آيات كثيرة من كتاب الله العزيز اقتصر على إيراد بعضها من ذلك قوله تعالى: ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ [٢]

فقد أخبر سبحانه في هذه الآية الكريمة عما كان عليه المصطفى من أخلاق فاضلة ووصف خُلقه ﷺ بأنه عظيم، وأكد ذلك بثلاثة أشياء؛ بالإقسام عليه بالقلم و ما يسطرون، وتصديره بأن وادخال اللم على الخبر وكلها من أدوات تأكيد الكلام[٣].

وقد روى الترمذي[٤] في جامعه وحسنه من حديث حذيفة أن النبي ﷺ قال:

والذي نفسي بيده لتأمرون بالمعروف ولتنهون عن المنكر،أو ليوشكن أن يبعث الله عليكم عقاباً منه ثم تدعونه فلا يستجاب لكم} [٥].

وروي عن النبي ﷺ أنه قال:

{أمرني ربي بتسع: الإخلاص في السر والعلانية والعدل في الرضا والغضب، والقصد في الغني والفقر وان أعفو عمن ظلمني، وأصل من قطعني وأعطي من حرمني وان يكون نطقي ذكرا وصمتي فكرا ونظري عبرة } [٦].

---

(١) محمود فياض: للإسلام منهج أخلاقي، مجلة رسالة الاسلام، عدد ١٠.

(٢) سورة القلم: آية ٤.

(٣) عبد المحسن بن حمد العباد: من أخلاق الرسول ﷺ مجموعة شركات الطوبجي، المدينة المنورة، بدون، ص ١٨.

(٤) الترمذي (٢٠٩ – ٢٧٩ هـ): هو محمد بن عيسى بن سورة الترمذي السلمي، و هو صاحب (الكتاب الجامع) في الحديث النبوي، الذي هو أحد الصحاح الستة والإمام الترمذي أحد مفاخر بنو سُليم الخالدة في الدين والعلم الإسلامي. والإمام الترمذي أحد حفاظ حديث الرسول ﷺ وكتابه (الجامع) من أهم كتب الحديث النبوي، ومن أحسنها تأليفاً وتنسيقاً وصحة. وكان مولده سنة بضع و مائتين للهجرة، و سمع كثيراً من كبار العلماء وأخذ علم الحديث عن الإمام البخاري، وروى عنه كثيرون. و من كتبه غير كتاب الجامع: شمائل رسول الله ﷺ، وكتاب العلل، ورسالة في الخلاف والجدل والتاريخ. وتوفي رحمه الله في الثالث عشر من رجب سنة ٢٧٩هـ بترمذ أو بقرية يوغ (الانساب للسمعاني ص ٩٥؛ والتهذيب ٣٨٧/٩؛ وتذكرة الحفاظ).

(٥) سنن الترمذي: (١٧٦٢).

(٦) القرطبي: الجامع لأحكام القران. ج٧، ص٣٤٧.

والمتتبع لأحكام السُنة[١] النبوية ووصاياه في الحروب وسيرته العطرة ﷺ يري أن الخلق العظيم هو جوهر رسالته ﷺ، ولقد عاش رسول الله ﷺ أخلاقياً منذ طفولته إلى أن لقي ربه، فقد كان قومه ينادونه بصفة نادرة في ذلك الزمان وقبل أن يبعث: فقد نادوه وعرف بينهم " بالصادق الأمين ".

وكانت حياته اليومية ﷺ صورة صادقة للتعاليم الإسلامية والمثل الحي لكل ما جاء به القرآن الكريم وكانت حياة النبي صورة باهرة لهذه المبادئ السامية[٢].

وعظمة الرسول ﷺ ليست فقط في أنه يمتاز بمجموعة من **الأخلاق الإنسانية** فإذا ذكر الصدق، وهو الوفي الكريم، الزاهد، الشجاع، المتواضع، الرحيم البار، الحكيم، الفصيح، البليغ العابد، كان الرسول ﷺ هذا كله وكان فوق هذا، فكانت أخلاقه فوق الصعاب، وفوق كل الظروف والتقلبات التي تأتي بها الأيام، لقد كان قادراً على أن يلتزم الموقف الأخلاقي المناسب، مهما تكن اللحظة التاريخية حرجة وحاسمة،إنه نبي يشرع بسلوكه وينطلق من منهج واضح وليس من ردّ فعل تُمليه أو تفرضه أية ضغوط أو ظروف [٣].

محمد المبعوث للناس رحمة يشيد ما أوهى الضلال ويُصلح[٤]

وكانت جميع أقواله ﷺ وأعماله على غاية الاستواء والاعتدال[٥] وقد بُعث الرسول ﷺ إلى الثقلين والمستوى الأخلاقي في الجزيرة العربية في الدرك الأسفل[٦]، وسائر المعمورة أحوج ما تكون إلى هديه ورسالته[٧] ولذا استطاع محمد ﷺ بأخلاقه السمحة أن يحول الهمجية إلى شجاعة، والطغيان إلى رحمة وعدل مستمداً أفكاره السامية من لدن عليم خبير؛ فصار الشر خيراً وتبدل الظلام إلى نور وهاج يضئ القلب والبصيرة.

وكان محمد ﷺ أشرف العرب بدوا وحضرا وكان في شبابه على أخلاق كريمة وسجايا حميدة، وصار محمد ﷺ الشاب الفتى رجلا حكيما ثم نبيا مرسلا وداعية للطهر والتوحيد والحق والعدالة والحرية وهاديا للبشر كافة يجمعهم على كلمة واحدة

---

(١) السنّة هي كل ما أثر عن النبي ﷺ من قول، أو فعل، أو تقرير، « قوله سنّة، وحركته في الحياة سنّة، ورضاه بما يرى ممّا يقرّ النّاس عليه سنّة، انظر: لسان العرب مادة سنن (٩٠/١٧)، المصباح المنير، مادة سنن.

(٢) مولاي محمد علي: محمد رسول الله،، مرجع سابق، ص ٢٦٣.

(٣) عبد الشافي محمد عبد اللطيف: أوائل المؤلفين، مرجع سابق، ص ٦.

(٤) من قصيدة للشيخ جمال الدين الصرصري، الذي قال عنه ابن كثير: الصرصري المادح، الماهر، ذو المحبة الصادقة لرسول الله ﷺ.

(٥) مرتضى الزبيدي: شرح الإحياء، ص ٤.

(٦) سيد قطب: معالم، مرجع سابق، ص ٢٦.

(٧) علي بن نفيع: أهمية الجهاد، مرجع سابق، ص ٢٦.

ويدعوهم إلى شريعة سماوية طاهرة فيها الأمن والخير والطمأنينة والحرية للناس جميعاً[١].

يقول رسول الله ﷺ: **(أكمل المؤمنين إيماناً أحسنهم خُلُقاً)**[٢].

فقد مُيِّزت شخصية الرسول ﷺ بالكثير من الجوانب المضيئة والهادية لكل إنسان يريد الميزة لنفسه والترقي لأخلاقه والتعمق لفكره والبساطة لمعيشته، والصدق لحديثه، وحسن الخُلُق لمعاملته مع الناس[٣].

الرسالة والرسول

وكانت مهمة محمد [ﷺ] هي القضاء على النظام القبلي القوي الذي كان مسئولا عن اندلاع نار الحرب، على نحو موصول تقريبًا، بين العرب، والاستعاضة عنه بولاء لله يسمو على جميع الروابط الأسرية والأحقاد الصغيرة. وكان عليه ﷺ أن يعطي الناس قانونًا كليًا يستطيع حتى العرب المتمردون قبوله والإذعان له، وكان عليه أن يفرض الانضباط على مجتمع عاش على العنف القبلي والثأر الدموي لضروب من المظالم بعضها واقعي وبعضها متوهم. كان عليه أن يحلّ الإنسانية محل الوحشية، والنظام محل الفوضى، والعدالة محلة القوة الخالصة[٤].

وكان ﷺ يسعى لإنشاء مجتمع يقوم على الأمن ويقوم على تسوية نزاعاته بالطرق السِّلمية[٥].

وكانت عملية التغيير في البناء الاجتماعي، والاقتصادي، والسياسي عملية صعبة، وإذا كان ذلك التغيير يمس كل ما يخالف الحق، والعدل من عاداتها، والعقل، والحكمة من عقائدها في سنين معدودة[٦]؛ فانه يكون أصعب وتضحياته أكبر.

---

(١) الخربوطلي: الإسلام دين عالمي، مرجع سابق، ص ٢٦.

(٢) الترمذي (١١٦٢). واللفظ له. وأحمد (٢/٢٥٠-٤٧٢).

(٣) محمد السيد المليجي: الجانب الإنساني في شخصية الرسول، مجلة الوعي الإسلامي، العدد رقم: ٤٩٣.

(٤) روم لاندو: الإسلام والعرب، ترجمة منير البعلبكي، ط٢، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٧٧ م / ١٣٩٨ هـ، ص ٣٢.

(٥) بركات محمد: محمد واليهود، ترجمة محمود علي مراد، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٧٧ م /١٣٩٨ هـ، ص ٨٢.

(٦) أنظر: محمد فريد وجدي: السيرة المحمدية تحت ضوء العلم والفلسفة، أدوار الدعوى الاسلامية وما لقى اهلها في سبيلها.مجلة الازهر المجلد العاشر / السنة العاشرة ١٣٥٨هـ، ١٩٣٩ م، ص٥٦١.

هذا الواقع واجهة الرسول محمد ﷺ فتعرض إلى شتى أنواع الأذى والاضطهاد والمكائد، ولم ينج المؤمنين بدعوته من أصناف العذاب والتشرد والموت؛ ومع ذلك كانت السنوات العشر الأولى للدعوى الإسلامية في مكة، قد كرست للدعوة السلمية.

احترام النفس الإنسانية

وتاريخ الرسول ﷺ في حروبه أوضح دليل على المعنى النبيل الذي خاض من أجله حروبه ومعاركه؛ فقد كانت حروبًا أخلاقية تقيدت بمبادئ الحق والعدالة والرحمة وما أعلن الرسول ﷺ الحرب إلا بعد أن اضطُهد هو وجماعته في عقيدتهم، وأُخرِجوا من ديارهم.

وقد رد العالم الأمريكي مايكل هارت[١] نجاح الذبي (ﷺ) في نشر دعوته، وسرعة انتشار الإسلام في الأرض، إلى سماحة هذا الدين وعظمة أخلاق الذبي ﷺ الذي اختاره على رأس مائة شخصية من الشخصيات التي تركت بصماتها بارزة في تاريخ البشرية، يقول:" إن محمدا هو الإنسان الوحيد في التاريخ الذي نجح نجاحاً مطلقا في المجالين الديني والدنيوي، وأصبح قائدا سياسيا وعسكريا"[٢].

لقد مكث رسول الله ﷺ بمكة ثلاث عشرة سنة يدعو أهلها إلى التوحيد الديني[٣] بالحكمة والموعظة الحسنة، حتى إذا لجت قريش[٤] في طغيانها، وصممت على وأد الدعوة الجديدة في مهدها بمحاولة قتل الرسول ﷺ وصحابته، فهاجروا إلى المدينة مستقر الدعوة والدين الجديد، وبدأ الصراع بين القوة الجديدة التي تمثل الحق والتسامح والفضيلة والكمال في أروع صوره، وبين القوة الوثنية الطاغية التي تمثل العتو والكبرياء والطغيان في أبشع صوره ومظاهره، والتي أحالت بطاح مكة ورمالها إلى ميادين لتذبيح المؤمنين وتعذيبهم ومطاردتهم في أرزاقهم وأموالهم.

وكان رسول الله ﷺ مثلا كاملاً للعظمة الخُلُقية، ولا عجب، فقد أدبه ربه فأحسن تأديبه وعلى يديه أصبح الإسلام بمأمن حصين من كل انزلاق نحو القرابين الدموية

---

(١) مايكل هارت: هو رجل عِلم أمريكي ، فهو – رغم اهتمامه بالتاريخ – حاصل على الدكتوراه في الفلك، وماجستير في العلوم، ويعمل في مركز أبحاث الفضاء بولاية ميريلاند الأمريكية، الكتاب صدر عام ١٩٧٨، وحُدثت قائمته عام ١٩٩٢، لم يطرأ تغيير على أول عشر شخصيات.

(٢) مايكل هارت: الخالدون مائة، أعظمهم محمد (ﷺ) ترجمة أنيس منصور، ط٧، الزهراء للاعلام العربي،١٩٨٦ م / ١٤٠٧ هـ، ص ١٣.

(٣) محمد عمارة: الإسلام، مرجع سابق، ص ٢٩.

(٤) قريش: تصغير القَرش، وهو الجمع من ها هنا و ها هنا، ثم يضم بعضه الى بعض، وسُميت قريش لأنهم كانوا أصحاب تجارة وتُنسب الى قريش بن الحارث بن يخلد بن النضر بن كنانة [ياقوت، معجم ٤ / ٣٣٦].

[1] فهو صاحب خلق قويم نافع مرجعه إلى القرآن الكريم وذلك مضمون ما يمكن تسميته **بأخلاق الإسلام**[2].

وكانت سيرته ﷺ تؤكد أن كل من هادنه لم يقاتله سواء أكان من مشركي العرب أم من غيرهم، وتطهرت النفوس والأخلاق، وزكت القلوب والأرواح وارتقت البشرية في نظامها وفي أخلاقها إلى القمة السامقة التي لم ترتفع إليها من قبل قط[3] وأرسيت قواعد العدالة الاجتماعية[4] وهذه كتب السيرة والحديث والتفسير والفقه والمغازي تنطق بهذا.

وكانت حياة رسول الله ﷺ واضحة كل الوضوح في جميع مراحلها، سعيدا كريماً في نفسه وأسرته وبيئته، وكان خلقه القرآن؛ فكان محمد مثالياً وهو طفل، مثاليا وهو غلام، مثالياً وهو شاب[5].

وكانت سيرته ﷺ شاملة لجميع النواحي الإنسانية، مما يجعله القدوة الصالحة لكل البشر، وكان بخصائصه النفسية والأخلاقية قد هُيئ لأن يكون أسوة الخلق جميعاً حتى يرث الله الأرض ومن عليها[6]، وقضت على ما كانوا يرزحون فيه من قيود الاستبداد والاستعباد.

ويتضح ذلك إذا قارنا الوضع السائد قبل ظهور النبي الكريم ﷺ، بالوضع الذي تركهم عليه، يتضح أن هذا الرجل العظيم ﷺ هو الذي رقى بالبشر نحو الأكمل والأفضل، لأن كمال البشر بكمال أخلاقه، ونجح الرسول ﷺ في تطهير المجتمع من الظلم الاجتماعي بجملته، وقام النظام الإسلامي يعدل بعدل الله، ويزن بميزان الله ويرفع راية العدالة الاجتماعية باسم الله وحده[7].

---

(١) اتش. جي، ويلز: موجز تاريخ العالم، ترجمة عبد العزيز توفيق جاويد، الهيئة المصرية العامة للكتاب، سلسلة الألف كتاب الثاني، عدد ٣١١، لسنة ١٩٩٩ م / ١٤٢٠ هـ، ص ٢٠٢.

(٢) عبد الغفار حامد هلال: الذبي الخاتم، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، سلسلة دراسات اسلامية، عدد ١٤١، القاهرة، ٢٠٠٧ م / ١٤٢٨ هـ، ص ٤٢.

(٣) سيد قطب: معالم، مرجع سابق، ص ٣٠.

(٤) محمد الأحمدي أبو النور: السنة في العقيدة والأخلاق والسلوك، ط١، مطبعة عيسى الحلبي ١٩٧٥ م / ١٣٩٥ هـ، ص ١٠.

(٥) محمد عطية الأبراشي: عظمة الرسول ، مكتبة الأسرة، القاهرة، ٢٠٠٢ م / ١٤٢٣ هـ، ص ٢٤٣.

(٦) محمد الراوي: الدعوة الإسلامية دعوة عالمية، المؤسسة المصرية للتأليف، ١٩٦٥ / ١٣٨٥ هـ، ص ١٢٩.

(٧) سيد قطب: معالم، مرجع سابق، ص ٢٩.

أما عن أخلاقياته أثناء الحروب فحدث ولا حرج وتسير على ذبراس قوله ﷺ "البر حسن الخلق " [١].

السلام خيار استراتيجي

لم يلجأ الرسول ﷺ إلى القتال إلا مضطراً وفي حدود الدفاع عن حرية دعوته وعن كيان المسلمين [٢].

ولم يرو عنه ﷺ أنه قاتل أو أمر بقتال مشركين مسالمين أو حياديين أو معتزلين، أو رفض في أي وقت طلب صُلح أو عهد أمان من أعداء محاربين، والذي يدرس وقائع الجهاد في حياة النبي ﷺ يجد أن النبي ﷺ لم يبعث سرية ولم يباشر غزوة ولم يشتبك بقتال مع جماعة إلا رداً على عدوان أو انتقاماً من عدوان أو دفعاً لأذى، أو تذكيلاً بغادر أو تأديباً لباغ، أو ثأراً لدم إسلامي أُهدر أو ضمانه لحرية الدعوة والاستجابة إليها، أو بناء على نكث عهد أو مظاهرة للعدو وتأمر معه ضد المسلمين. ولو كان قتال كل كافر أو كل مشرك مبدأ إسلاميا قرآنيا أو نبوياً لاقتضى أن يقاتل النبي كل كافر وكل مشرك مهما كانت حالته وسنه وموقفه، وهذا لم يحصل إطلاقا لا في زمن النبي ﷺ و لا في زمن خلفائه الراشدين رضي الله عنهم [٣].

وكان السلام هو الخيار الاستراتيجي الأول له ﷺ؛ أما السلاح فكان آخر الحيل، وتكون نهاية الظلم والاعتداء نهاية الاعتماد على السلاح.... ثم يأتي الصلح والتوفيق أو يأتي التفاهم بالرضا والاختيار[٤].

وبالمبادئ الإسلامية السمحة التي حملها سيدنا محمد ﷺ " استقر السلام بين تلك الشعوب ولم يكن له قرار، وانتظمت بينها العلاقات ولم يكن لها نظام، واطمأن الناس على أرواحهم وأرزاقهم وأعراضهم، وكانت جميعها مباحة لكل غاصب من ذوى الأمر والجاه[٥].

إن خيار السِّلم كان الأصل أما الحرب فكانت أمراً طارئاً لضرورة قاهرة. فمن المؤكد أن المسلمين كانوا يطلبون من النبي ﷺ أن يسمح لهم بالدفاع عن أنفسهم ولكن النبي ﷺ لم يسمح لهم بذلك طيلة بقاءه في مكة [٦].

---

(١) مسلم (٢٥٥٣).
(٢) محمد شديد: الجهاد، مرجع سابق، ص ١٢٨.
(٣) محمد عزة دروزة: التفسير الحديث، ج ٧، ص٣٠٠.
(٤) العقاد: عبقرية محمد (ﷺ)، مرجع سابق، ص ٢٨.
(٥) نفسه، ص ٣١.
(٦) مرتضى المطهري، الجهاد وحالاته المشروعة، منظمة الاعلام الاسلامي، طهران، ص ١٥.

والسيف كقوة قاهرة لم يكن - في أية معركة للرسول ﷺ - هدفاً، وأبرز شاهد على ذلك، أن رسول الله ﷺ حين ودع أسامة بن زيد[١] قائد الجيش إلى مؤتة، في السنة الثامنة للهجرة، وشيعهم إلى ثنية الوداع[٢]، كان أول ما أوصى به أمراء جيشه:

{**أوصيكم بتقوى الله وبمن معكم من المسلمين خيرًا، اغزوا باسم الله، في سبيل الله من كفر بالله، لا تغدروا ولا تقتلوا وليدًا، ولا امرأة ولا كبيرًا فانيًا، ولا منعزلاً بصومعة، ولا تقربوا نخلا، ولا تقطعوا شجرًا، ولا تهدموا بناء، وإذا لقيتم عدوكم من المشركين فادعوهم إلى إحدى ثلاث: فإما الإسلام، وإما الجزية، وإما الحرب...**} [٣].

فأينما أجلت طرفك في تاريخ الجماعات البشرية، وفي الأفذاذ الذين أنجبتهم في خلال تاريخها الطويل، وأجلته في حوادثها وانقلاباتها، وفي الرجالات الذين تولوا كبرها، فلا تصادف مَن جمع ما جمعه محمد ﷺ مِن صفات الكمال الخُلقُي والعقلي، ولا وفِق إلى مثل ما وفِق إليه من بناء أمة وتحليتها بكل ما هي في حاجة إليه من عوامل البقاء، ودواعي الارتقاء، وأعدها لأن تصير أعظم أمة استحقت أن تنال خلافة الله في الأرض[٤].

فكانت الرسالة التي يحملها ﷺ وان كانت تُنادي بالسلام، لا ترضى بالاستسلام[٥].

ومن هذا التوجه ندرك أن القتال خيار أخير لا بد منه عند استنفاذ جميع الوسائل السلمية؛ فالسِّلم كان أول خيارات الرسول ﷺ بدليل أن أول عمل سياسي قام به النبيﷺ بعد الهجرة، أن عاهد القبائل التي سكنت ما بين المدينة و ساحل البحر، مثل جهينة[٦]، وغفار[١] وهو عهد أمان واستقرار وسلام[٢].

---

(١) أسامة بن زيد بن حارثة (٧ق هـ - ٥٤ هـ) يكنى أبو محمد ويقال أبو زيد وأمه أم أيمن حاضنة رسول الله ﷺ. قال بن سعد ولد أسامة في الإسلام ومات النبي ﷺ وله عشرون سنة وقال بن أبي خيثمة ثماني عشرة.وكان قد سكن المزة من عمل دمشق ثم رجع فسكن وادي القرى ثم نزل إلى المدينة فمات بها بالجرف وصحح بن عبد البر أنه مات سنة أربع وخمسين. وقد روى عن أسامة من الصحابة أبو هريرة وابن عباس ومن كبار التابعين أبو عثمان النهدي وأبو وائل وآخرون وفضائله كثيرة وأحاديثه شهيرة [الاصابة ٣١/١، وأسد الغابة ٦٤/١، والأعلام ٢٨١/١].

(٢) ثنية الوداع: ثنية مشرفة على المدينة يطؤها من يريد مكة، وهي اسم واد بالمدينة، وسميت كذلك لأنها موضع وداع المسافرين (ياقوت، معجم ٢ / ٨٦).

(٣) أخرجه مسلم في الجهاد والسير (١٧٣١).

(٤) محمد فريد وجدي: الشخصية المحمدية، مجلة رسالة الاسلام، عدد ٢، ١٩٤٩ م / ١٣٦٩ هـ.

(٥) ابراهيم علي أبو الخشب: الاسلام ومنهجه في الاصلاح، المجلس الأعلى للشئون الاسلامية، القاهرة، ١٩٦١ م / ١٣٨١ هـ، ص ٢٨.

(٦) جُهَينة: قبيلة قحطانية عظيمة، من قضاعة. وهم بنو جهينة بن ليث بن سود بن أسلم بن الحافي بن قضاعة، وجهينة بطون كثيرة تقع منازلهم في الشريط الممتد من ينبع حتى يثرب، على ساحل بحر القُلزم (البحر الأحمر). ويذكر المؤرخون فخائذ من جهينة عبرو البحر الأحمر

قال ابن القيم[٣] رحمه الله: جمع النبي ﷺ بين تقوى الله وحسن الخُلُق؛ لأن تقوى الله تصلح ما بين العبد وبين ربه، وحسن الخُلُق يصلح ما بينه وبين خَلْقِه. فتقوى الله توجب محبة الله وحسن الخُلُق يدعوا الناس إلى محبته) [٤].

أبعد ما يكون عن الدماء

ما كان النبي ﷺ يحب القتال، ولكنه دُفع إليه دفعاً، لقد عاش أربعين عاماً، قبل نزول الوحي، في بلاد اعتادت امتشاق السلاح، في كل مكان، حيث القتال والأخذ بالثأر، وحيث ينقضون على الغرماء كوحوش كواسر والويل لمن لا يُحسن عن نفسه الدفاع. في خلال هذه السنين الطوال، لم يُسدد ضربة واحدة إلى إنسان؛ وكذلك كانت حاله، خلال الأربع عشرة سنة الأولى للرسالة، مما يؤكد أنه مُحب إلى السلام بطبعه[٥].

والحرب في نظره ﷺ شر لا يلجأ إليه إلا المضطر، فلإن ينتهي المسلمون بالمفاوضة إلى صلح مجحف بشئ من حقوقهم خير لهم من سفك الدماء، وهذا ما حدث في صلح الحديبية[٦] حتى أن بعض الصحابة تحاوروا مع النبي ﷺ فيما جاء من شروطها[٧]، ومن أشدهم في ذلك عمر بن الخطاب[٨] ﷺ، حتى قال رسول الله: «

واستولوا على بلاد النوبة ثم انتشروا ما بين صعيد من وبلاد الحبشة [ياقوت، معجم ٢ / ١٩٤، اللباب (١ / ٢٥٩] .

(١) غِفار: هم بنو غفار بن مليل بن ضمرة بن بكر بن عبد مناف بن كنانة بن خزيمة بن مدركة من العدنانية، تقع منازلهم بين مكة والمدينة. ومن مياههم (بدر) [أنساب الأشراف، ومعجم قبائل العرب].

(٢) أنظر وهبة الزحيلي: العلاقات الدولية في الاسلام، دار المكتبي للطباعة والنشر، ٢٠٠١ / ١٤٢٢ هـ، ص ١٥٨.

(٣) ابن القيم (٦٩١ – ٧٥١ هـ) هو محمد بن أبي بكر بن سعد الزرعي. شمس الدين من أهل دمشق. من أركان الإصلاح الإسلامي، واحد من كبار الفقهاء. تتلمذ على ابن تيمية وانتصر له ولم يخرج عن شيء من أقواله، وقد سجن معه بدمشق. كتب بخطة كثيرا والف كثيرا من تصانيفة: (الطرق الحكمية) و (مفتاح دار السعادة)، (الفروسية) و (مدراج السالكين) { الأعلام ٢٨١/٦، والدار الكامنة ٤٠٠/٣، و جلاء العينين ص٢٠ }.

(٤) الفوائد (٧٥).

(٥) مولاي محمد علي: محمد رسول الله، مرجع سابق، ص ٢٦١.

(٦) في يوم الاثنين الأول من ذي القعدة سنة ٦ هـ (٦٢٨ م)، والحديبية مكان غرب مكة المكرمة على تسعة أميال منها، [الحميري، الروض المعطار، ص ١٩٠، ياقوت، معجم ٢ / ٢٣٣].

(٧) أنظر، مصطفى السباعي: السيرة النبوية، دروس وعبر،، ط١، دار السلام، ١٩٩٨ / ١٤١٩ هـ، ص ٥٨.

(٨) عمر (٤٠ ق هـ - ٢٣ هـ) هو عمر بن الخطاب بن نفيل، أبو حفص الفاروق. صاحب رسول الله صلي الله علية وسلم، وأمير المؤمنين، ثاني الخلفاء الراشدين. كان النبي صلي الله عليه وسلم يدعو الله ان يعز الإسلام بأحد العمرين، فاسلم وهو. وكان إسلامه قبل الهجرة بخمس

إني عبد الله ولن يضيعني»[1]؛ ثم أمر الرسول ﷺ أصحابه بالتحلل من العمرة وبادر ﷺ بنفسه، فتحلل من العمرة، فتبعه المسلمون جميعا[2].

سنين، فأظهر المسلمون دينهم. ولازم النبي ﷺ، وكان أحد وزيريه، وشهد معه المشاهد. بايعه المسلمون خليفة بعد أبي بكر، ففتح الله في عهده اثنا عشر ألف مذبر. وضع التاريخ الهجري. ودون الدواوين. قتله أبو لؤلؤة المجوس وهو يصلي الصبح.[الأعلام للزركلي ٥/٢٠٤؛ وسيرة عمر بن الخطاب للشيخ علي الطنطاوي].

(١) رواه مسلم (١٧٨٥).

(٢) وقد ظهرت فيما بعد فوائد هذه الشروط التي صعبت على المسلمين ورضي بها الرسول ﷺ، لبعد نظره ورجحان عقله، وإمداد الوحي له بالسداد في الرأي والعمل.

وما أروع[١] قول الرسول ﷺ يوم الحديبية: " والله لا تدعوني قريش إلى خطة توصل بها الأرحام، وتعظم فيها الحُرُمات إلا أعطيتهم إياها "[٢].

فنجده ﷺ بهذا يحقن الدماء، لأنه يعتبره خير من انتصار باهر للحق تزهق فيه الأرواح[٣].

يقول {:ﷺ من ائتمَنه رجلٌ على دمِه فقتله فأنا منه بريء وإن كان المقتول كافرًا } [٤].

وقد نهى ﷺ عن قتل النفس، واعتبرها من الكبائر والموبقات فعن أبي هريرة[٥] ﷺ عن النبي ﷺ قال : {اجتنبوا السبع الموبقات قالوا: يا رسول الله وما هن؟ قال: "الشرك بالله، والسحر، وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق....} [٦]

ﷺ الذبي وعن أنس بن مالك [٧] قال: **أكبر الكبائر الإشراك بالله وقتل النفس** {[٨] وعن ابن عمر [١] رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: { **لن يزال المؤمن في فسحة من دينه ما لم يصب دما حراما**} [٢]

---

(١) أحمد عمر هاشم: منهج الاسلام، مرجع سابق، ص ٣٩.

((٢ أخرجه البخاري في الشروط باب الشرط في الجهاد (١٨٧/١: ١٩٢).

(٣) محمد عبد الله دراز: بحوث اسلامية، كتاب مجلة الأزهر، القاهرة، ٢٠٠٥ م / ١٤٢٦ هـ، ص ٦٩.

((٤أخرجه أحمد (٢٢٤/٥، ٤٣٧)، والبزار (٢٣٠٨)، وابن قانع في معجم الصحابة (٢٠٢/٢)، والطبراني في الأوسط (٤٢٥٢، ٦٦٥٥، ٧٧٨١)، وأبو نعيم في الحلية (٢٤/٩)، والقضاعي في مسنده (١٦٤)، قال العقيلي في الضعفاء (٢١٥/٢): "أسانيده صالحة"، وقال الهيثمي في المجمع (٢٨٥/٦): "رواه الطبراني بأسانيد كثيرة، وأحدها رجاله ثقات"، وهو في صحيح الجامع (٦١٠٣).

(٥) أبو هريرة (٢١ ق هـ ٥٩ هـ) هو عبد الرحمن بن صخر. من قبيلة دوس وقيل في اسمه غير ذلك. صحابي. رواية الأسلام. أكثر الصحابة رواية. أسلم ٧هـ وهاجر الى المدينة. ولزم النبي صلي الله علية وسلم. فروى عنه أكثر من خمسة آلاف حديث. ولاه أمير المؤمنين عمر البحرين، ث م عزله للين عريكته.وولي المدينة سنوات في خلافة بني أمية. [الأعلام للزركلي ٨٠/٤؛ و(أبو هريرة) لعبد المنعم صالح العلي].

(٦) أخرجه البخاري في الوصايا(٢٧٦٦)، ومسلم في الإيمان(٢٧٢)، وأبو داود في الوصايا(٢٨٧٦)، والترمذي في الوصايا(٣٦٨٦)، والبيهقي(١٣٠٤٢)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٧) أنس بن مالك بن النَّضر الخزرجي الأنصاري (١٠ق ه ـ ٩٣ هـ) صحابي جليل، ولد بالمدينة، وأسلم صغيراً وكناه الرسول محمد ﷺ بأبي حمزة. خدم الرسول ﷺ في بيته وهو ابن ١٠ سنين. دعا له ﷺ «اللهم أكثر ماله وولده وبارك له، وأدخله الجنة» فعاش طويلا، ورزق من البنين والحفدة الكثير. روى كثيرا من الأحاديث عن رسول الله ﷺ [الأعلام للزركلي؛ والإصابة؛ وطبقات ابن سعيد؛ وتهذيب ابن عساكر ١٩٩/٣؛ وصفة الصفوة ٢٩٨/١].

(٨) أخرجه البخاري في الديات (٦٨٧١) واللفظ له، ومسلم في الإيمان (٨٨)..

هل من مزيد؟!

عن عبد الله بن مسعود [٣]: قال: قال النبي ﷺ:

{**أوّل ما يقضى بين الناس في الدماء**} [٤].

إننا إزن أمام شخصية ذات خصائص إنسانية راقية سامية إنها شخصية محمد ابن عبد الله ﷺ.

الجنوح للسلم

لقد كان محمد ﷺ يكره الحرب ويجنح للسلم ويؤثر حل مشاكله بالوسائل السياسية إلى أبعد حد حقنا للدماء ومما جاء في أحاديثه ﷺ، إنه كان يقول:

{**أحب الأسماء إلى الله عبد الله وعبد الرحمن وأصدقها حارث وهمام وأقبحها حرب ومرة**} [٥]

فإلى هذا الحد نفر الإسلام ورسوله من الحرب حتى ما وافق اسمها أو كان منه مدانيا.

ومن الأحاديث النبوية التي تدعو إلى السِّلم فمنها قوله ﷺ:

{ **يا أيها الناس لا تتمنوا لقاء العدو و سلوا الله العافية....**} . [٦]

---

(١) ابن عمر (١٠ ق هـ - ٧٣ هـ) هو عبد الله بن عمر بن الخطاب، أبو عبد الرحمن. ترشي عدوي. صاحب رسول الله صلي الله علية وسلم. نشأ في الإسلام، و هاجر مع أبيه إلي الله ورسوله. شهد الخندق وما بعدها، ولم يشهد بدرا ولا أحداً لصغره. أفتي الناس ستين سنة. ولما قتل عثمان عرض علية ناس أن يبايعوه بالخلافة فأبي شهد فتح أفريقية. كف بصره في آخر حياته. كلن آخر من توفي بمكة من الصحابة. هو أحد المكثرين من الحديث عن الرسول ﷺ. { الأعلام للرزكلي ٢٤٦/٤، والإصابة، وطبقات ابن سعد، وسير النبلاء للذهبي، وأحبار عبد الله ابن عمر لعلي الطنطاوي }.

(٢) أخرجه البخاري في الديات (٦٨٦٢).

(٣) عبد الله مسعود (ـ ٣٢ هـ) هو عبد الله بن مسعود بن غافل بن حبيب الهذلي، أبو عبد الرحمن من أهل مكة. من أكابر الصحابة فضلاً وعقلا. ومن السابقين إلى الإسلام. و هاجر إلى أرض الحبشة الهجرتين. شهد بدراً وأحداً والخندق والمشاهد كلها مع رسول الله صلي الله علية وسلم وكان أقرب الناس إليه هدياً ودلاًّ وسمتاً. أخذ من فيه سبعين سورة لا يناز عه فيها أحد. بعثه عمر إلى أهل الكوفة ليعلمهم أمور دينهم. له في الصحيحين ٨٤٨ حديثاً. [الطبقات لابن سعد ١٠٦/٣؛ والإصابة ٣٦٨/٢؛ والأعلام ٤٨٠/٤].

(٤) أخرجه البخاري في الديات، باب قوله تعالى: (ومن يقتل مؤمنا متعمدا) (٦٣٥٧)، ومسلم في القسامة والمحاربين (٣١٧٨).

(٥) رواه أبو داود (٤٩٥٠)، وأحمد (٤ /٣٤٥) عن أبي و هب الجشمي، و صححه شَيْخ الإسلام، وروي مختصراً بلفظ: {أحب الأسماء عند الله عبد الله وعبد الرحمن} عند مسلم (٢١٣٢)، والترمذي (٢٨٣٣)، وأبو داود (٤٩٤٩) عن ابن عمر.

(٦) أخرجه البخاري (٢٨١٩)، ومسلم (١٧٤٢) من حديث عبد الله بن أبى أوفى..

وعند استقرأنا لسيرة الرسول ﷺ نجد إمكانية الاستدلال على أن السِّلم هو الخيار الأول في تعامله مع الآخرين فقد أقام الرسول مجتمع الإسلام في المدينة المنورة على أسس راسخة من المبادئ والقيم الأخلاقية من وحي الله العلي القدير.

وقد ظل الرسول ﷺ يطاول أعدائه سنوات طويلة واحتمل هو وأصحابه العذاب[١] وكان على اجتنابه العدوان يحسن من فنون الحرب ما لم يكن يحسنه المعتدون عليه، وإنه لم يجتنب الهجوم والمبادأة بالقتال لعجز أو خوف مما يجهله ولا يجيده... ولكنه اجتنبه لأنه نظر إلى الحرب نظرته إلى ضرورة بغيضة يلجأ إليها ولا حيلة له في اجتنابها حيثما تيسرت له الحيلة الناجحة[٢]، وكما يقال في الأقوال المأثورة " **الاستعداد للحرب يمنع الحرب**" وقال قائل:

قد علمت خيلك أني الصحصح إن الحديـــــد بالحديـــــد يفلـــــح[٣]

ولا تستطيع إلا أن تقابل عمل عدوك بمثله، أو على الأقل بما يزيل أثره[٤] فلا بد للحق أن يرد، وإذا كان الظلم يستحكم، فلا بد للعدل من أن يدفع ويحكم[١].

---

(١) قُتل العديد من أصحابه جراء التعذيب، منهم سمية أم عمار بن ياسر، وزوجها ياسر، عذَّبهما المغيرة على إسلامهما ليرجعا عنه وماتا تحت العذاب، وعُذبت زِنِّيرَةُ المملوكة الرومية حتى عميت وعُذب عثمان بن مظعون وخباب بن الأرت وكانت سيدته أم أذمار تضع الحديدة المحماة على ظهره ليكفر، كان أبو جهل إذا سمع برجل قد أسلم له شرف ومنعة أذبه وأخزاه، وأوعده بإبلاغ الخسارة الفادحة في المال، والجاه، وإن كان ضعيفًا ضربه وأغرى به. وكان عم عثمان بن عفان يلفه في حصير من ورق النخيل ثم يدخنه من تحته. ولما علمت أم مصعب بن عمير بإسلامه منعته الطعام والشراب، وأخرجته من بيته، وكان من أنعم الناس عيشًا، فتَخَشَّفَ جلده تخشف الحية. وكان صهيب بن سنان الرومي يُعذَّب حتى يفقد وعيه ولا يدرى ما يقول. وكان بلال مولى أمية بن خلف الجمحي، فكان أمية يضع في عنقه حبلًا، ثم يسلمه إلى الصبيان، يطوفون به في جبال مكة، ويجرونه حتى كان الحبل يؤثر في عنقه، و هو يقول: أَحَدٌ أَحَدٌ، وكان أمية يشده شدًا ثم يضربه بالعصا، و يلجئه إلى الجلوس في حر الشمس، كما كان يكرهه على الجوع. وأشد من ذلك كله أنه كان يخرجه إذا حميت الظهيرة، فيطرحه على ظهره في الرمضاء في بطحاء مكة، ثم يأمر بالصخرة العظيمة فتوضع على صدره، ثم يقول: لا والله لا تزال هكذا حتى تموت أو تكفر بمحمد، وتعبد اللات والعزى، فيقول و هو في ذلك: أحد،أحد، ويقول: لو أعلم كلمة هي أغيظ لكم منها لقلتها. ومر به أبو بكر يوما و هم يصنعون ذلك به فاشتراه بغلام أسود، وقيل: بسبع أواق أو بخمس من الفضة، وأعتقه .

(٢) عباس محمود العقاد: عبقرية محمد (ﷺ)، مرجع سابق، ص ٢٦.

(٣) أبو زيد شلبي، تاريخ الحضارة، مرجع سابق، ص ١٥١، والمقولة جاءت في رسالة للحجاج بن يوسف الثقفي الى أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان

(٤) محمد حسين هيكل: الحكومة الإسلامية، الهيئة المصرية للكتاب، ١٩٩٦ / ١٤١٧ هـ، ص ١١٣.

﴿ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِي ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴾ [٢].

وقد يتوهم البعض أن الحرب والتزام الفضيلة في الميدان نقيضان لا يجتمعان، فإما الفضيلة وإما الحرب، ولذلك كان لابد من هاد في هذا الأمر، لتكون الحرب والفضيلة معاً في الميدان، وذلك الهادي لابد أن يستمد هدايته من السماء، لا من الطبائع الأرضية المتناحرة، التي تختفي العدالة عند سيطرتها، ولا يظهر إلا البغي، ولسان حال كل محارب يقول: " ومن لا يظلم الناس يظلم "[٣].

وإذا دققنا النظر في التوجيهات التي كان النبي الكريم ﷺ يمليها على جنوده، والغايات التي كانت نصب عينيه، أيقنا بأن المثل العليا والرغبة في هداية الناس **والجنوح للسلم** كانت تمثل الروح المهيمنة على دعوته وجهاده فقد كان جهاده من أجل مبادئ لا من أجل استعلاء أو غلبة أو استعمار وهذه المبادئ هي الحق والخير بأشمل وأوسع معاني الحق والخير[٤].

ففي عمرة الحديبية تذكر المصادر الإسلامية أن رسول الله ﷺ" خرج في ذي القعدة سنة ست معتمراً لا يريد حرباً " وساق معه الهدي وأحرم بالعمرة " ليأمن الناس من حربه، وليأمن الناس أنه إنما خرج زائراً لهذا البيت ومعظماً له وكان الناس بين سبعمائة وألف وستمائة ". فلما كان بالحديبية أبت ناقته القصواء السير " فقالوا: خلأت. فقال: ما خلأت، وما هو بها الخلق، ولكن حبسها حابس الفيل عن مكة. والله لا تدعوني قريش اليوم إلى خطة يسألونني فيها حرمة الله إلا أعطيتهم إياها "[٥].

ولقد استشار رسول الله ﷺ أصحابه؛ فيما يفعل بعد أن منعته قريش من دخول مكة فأشاروا عليه بالحرب. فقال: ما خرجنا لقتال أحد إنما خرجنا عُماراً "[٦].

وفي غزوة تبوك[٧] عاد الجيش الإسلامي أدراجه بعد أن أيقن بانصراف الروم عن القتال في تلك السنة، وكان قد سرى إلى النبي ﷺ نبأ أنهم يبعثون جيوشهم على

---

(١) أبو زهرة: نظرية الحرب، مرجع سابق، ص٦ والبيت للشاعر زهير بن أبي سلمى.
(٢) سورة الأحزاب: آية ٦٢.
(٣) أبو زهرة: نظرية الحرب، مرجع سابق، ص٧.
(٤) عبد الحليم محمود: الجهاد في الاسلام، دار المعارف، ط٢، القاهرة، ١٩٨٨ / ١٤١٩ هـ، ص ١٧٦.
(٥) أخرجه البخاري في الشروط باب الشرط في الجهاد (١٨٧/١: ١٩٢).
(٦) أنظر، الواقدي: المغازي، ج٢، ص ٥٨٠ – ٥٨١، والبخاري: كتاب الشروط، باب الشروط في الجهاد والمصالحة مع أهل الحرب .
(٧) في رجب سنة تسع من الهجرة (٦٣١ م)، و(تبوك) موضع بين وادي القرى من أرض الحجاز وبين الشام وفي غزوة تبوك أنظر: (معجم البلدان: ج٢، ص ١٤، وفتح الباري شرح صحيح البخاري في كتاب المغازي ٨/ ١١٠، والبداية والنهاية أول الجزء الخامس) .

حدود البلاد العربية. فلما عدلوا عدل الجيش الإسلامي عن الغزوة على فرط ما تكلف من الجهد والنفقة في تجهيزه وسفره[١].

وهكذا نجد الرسول ﷺ يقوم بوضع أساس سلم عالمي، فهو لم يضع الأسس التي يعيش الأفراد بمقتضاها، في سلام جنباً إلى جنب فحسب، بل علمهم كيف تعيش القبائل والشعوب في سلام، وعلمهم، ما لم يجرؤ أحد قبله على إتيانه، علمهم كيف تعيش العقائد والأديان جنباً إلى جنب في سلام ووئام. إنه أعظم من ظهر على وجه الأرض، ومع ذلك كان عظيم التواضع[٢].

سياسة الإقناع

وبدراسة الخطوات التي اتبعها الرسول ﷺ في الدعوة إلى الإسلام يتضح لنا كيف اتبع سياسة الإقناع ولم يبطش بأعدائه بل يقف منهم موقفاً متسامحاً[٣] نبيلاً.

" وكان النبي نفسه يقوم على رأس طبقات متعاقبة من الدعاة المسلمين، الذين وفقوا إلى إيجاد سبيل إلى قلوب الكفار"[٤].

---

(١) عباس محمود العقاد: عبقرية محمد (ﷺ)، مرجع سابق، ص ٢٧.

(٢) مولاي محمد علي: محمد رسول الله، مرجع سابق، ص ٢٨٥.

(٣) قاسم عبده قاسم: أهل الذمة في مصر، دار عين للدراسات والبحوث، القاهرة ٢٠٠٣ م/ ١٤٢٤ هـ، ص ٢٣.

(٤) توماس أرنولد: الدعوة، مرجع سابق، ص ٢٨.

حب الرسول ﷺ للسلام

ويقدم موقف الرسول ﷺ في صلح الحديبية، دليل بليغ على حب النبي للسلام ومقته للشحناء والقتال. كان المسلمون منتصرين على طول الخط تقريباً، فلم يهزموا مرة واحدة على الرغم من تحالف قوى القبائل جميعها ضدهم فشعروا أن هذه الشروط القاسية، تنال منهم ومن كرامة دينهم، فألحوا في رفضها، وبايعوا النبي ﷺ على منازلة العدو حتى الموت، ولكن النبي ﷺ كان يميل للسلام، فإذا ما رأى من العدو أقل ميل إلى المهادنة، فانه كان يستمع إلى شروط أشبه بتلك التي تملى على المهزوم، وعلى الرغم من ذلك قبلها النبي ﷺ، فيعد ذلك دليل منطقي على حب النبي ﷺ للسلام[١].

وهكذا كان النبي ﷺ يلقن أبطاله أسمى دروس الدبلوماسية والاستراتيجية الحربية، جاعلاً من المسلمين بهذا التوجه أعظم الفاتحين نزاهة، في الوقت الذي يعدونه من أكمل المستنيرين في التاريخ[٢].

عدم المبادرة بالقتال

قال السرخسي[٣] في باب معاملة الجيش مع الكفار:(وإذا غزا الجيش أرضا لم تبلغهم الدعوة لا يحل لهم أن يقاتلوهم حتى يدعوهم إلى الإسلام ليعرفوا أنهم على ماذا يقاتلون وهو معنى حديث ابن عباس ﷺ ما غزا رسول الله ﷺ قوما حتى دعاهم إلى الإسلام ولو قاتلوهم بغير دعوة كانوا آثمين في ذلك ولكنهم لا يضمنون شيئا مما اتلفوا من الدماء والأموال عندنا. وقال الشافعي رحمة الله تعالى (في القديم يضمنون

---

(١) مولاي محمد علي: محمد رسول الله، مرجع سابق، ص ١٧٠.

(٢) مالك بن نبي: الظاهرة القرآنية، ترجمة عبد الصبور شاهين، مكتبة النافذة، ط٢، القاهرة، ٢٠٠٦ / ١٤٢٧ هـ، ص ١٤٥.

(٣) السرخسي (- ٤٨٣ هـ) هو محمد بن احمد بن ابي سهل؛ ابو بكر؛ السرخسي من اهل (سرخسي) بلدة في خراسان. ويلقب بشمس الائمة. كان اماما في فقه الحنفية، وعلامة حجة متكلما ناظرا اصوليا مجتهدا في المسائل. أخذ عن الحلواني وغيرة سجن في حب بسبب نصحه لبعض الامراء، وأملي كثيرا من كتبة علي أصحابة وهو في السجن، أملاها من حفظه من تصانيفة: (المسبوط) في شرح كتب ظاهر الرواية؛ في الفقه؛ والاصول) في أصول الفقه،(شرح السير الكبير) للامام محمد بن الحسن.[الفوائد البهية ص ١٥٨؛ والجواهر المضية ٢٨/٢؛ والزركلي ٢٠٨/٦].

ذلك لبقاء صفة الحقن والعصمة إلا أن يوجد الآباء منهم ولا يتحقق ذلك إلا أن تبلغهم الدعوة)[1].

وكان النبي ﷺ لا يبدأ أحداً بالعدوان، وإنما كان يُعتدى عليه، فيرد العدوان[2]، وكان إذا علم بعزم الأعداء على قتاله لم يمهلهم حتى يهاجموه جهد ما تواتيه الأحوال، والدعوة إلى القتال لم توجه مطلقاً ضد المسالمين وإنما كانت توجه ضد المعتدين.

وقد روي عن ابن عباس[3] ﷺ أنه قال: "ما قاتل رسول الله ﷺ قوما إلا دعاهم "[4] وعن علي بن أبي طالب[5] ﷺ أن النبي ﷺ بعثه وجهاً ثم قال لرجل الحقه ولا تدعه من خلفه فقل إن النبي ﷺ يأمرك أن تنتظره وقل له لا تقاتل قوما حتى تدعوهم[6].

---

(١) السرخسي: المبسوط، ج١٠، ص٣٠.

(٢) عبد الغفار هلال: النبي الخاتم، مرجع سابق، ص ١١٦.

(٣) ابن عباس (٣ ق هـ - ٦٨ هـ) هو عبد الله بن عباس بن عبد المطلب. قرشي هاشمي. حبر الأمة وترجمان القرآن. أسلم صغيراً ولازم النبي صلي الله علية وسلم بعد الفتح وروي عنه. كان الخلفاء يجلونه. شهد مع علي الجمل وصفين. وكف بصرة في أخر عمره. كان يجلس للعلم. فيجعل يوما للفقه ويوماً للتأويل، و ويوماً للمغازي، ويوماً للشعر، ويوماً لوقائع العرب توفي بالطائف { الأعلام للزركلي، والإصابة، ونسب قريش ص ٢٦ }.

(٤) ابن تيمية: المنتقى من أحاديث الأحكام ص٦٨١، الهندي. كنز العمال. م٤ ص٣٠٧، اليهقي: السنن الكبرى ج٩ ص١٠٧.

(٥) علي (٢٣ ق هـ - ٤٠ هـ) هو علي بن أبي طالب ﷺ، واسم أبي طالب : عبد مناف بن عبد المطلب. من بني هاشم، من قريش أمير المؤمنين. ورابع الخلاء الراشدين، وأحد العشرة المبشرين بالجنة. زوجة النبي صلي الله علية وسلم بنته فاطمة. ولي الخلافة بعد مقتل أمير المؤمنين عثمان، فلم يستقم له الأمر حتى قتل بالكوفة. كفرة الخوارج، و غلا فيه الشيعة حتى قدموه على الخلفاء الثلاثة، وبعضهم غلا حتى فيه حتى رفعه إلى مقام الألوهية. ينسب إليه (نهج البلاغة) وهو مجموعة خطب وحكم، أظهر الشيعة في القرن الخامس الهجري ويشك في صحة نسبته إليه. [الأعلام للزركلي ١٠٨/٥؛ ومناهج السنة ٢/٣ وما بعدها؛ والرياض النضرة ١٥٣/٢ وما بعدها].

(٦) الهندي: الكنز العمال. م٤ ص٣٠٤.

ولم يبادر الرسول ﷺ بالقتال ومن الشواهد على ذلك:

مـا يؤكد مبادرة رؤساء مكة في إعلان الحرب على الدولة الإسلامية في المدينة[١] ما جاء في سنن أبي داود: "عن عبد الرحمن بن كعب بن مالك، عن رجل من أصحاب النبي ﷺ أن كفار قريش كتبوا إلى (ابن أُبي) ومن كان يعبد معه الأوثان من الأوس والخزرج[٢]، ورسول الله ﷺ يومئذ بالمدينة،قبل وقعة بدر: إنكم آويتم صاحبنا، وإنا نقسم بالله لتقاتلنه ولتخرجنه، أو لنسيرن إليكم بأجمعنا، حتى نقتل مقاتلتكم، ونستبيح نساءكم، فلما بلغ عبد الله بن أُبيّ[٣]، ومن كان معه من عبدة الأوثان، اجتمعوا لقتال النبي ﷺ فلما بلغ ذلك النبي ﷺ لقيهم فقال: "لقد بلغ وعيد قريش منكم المبالغ، ما كانت تكيدكم بأكثر مما تريدون أن تكيدوا به أنفسكم، تريدون أن تقاتلوا أبناءكم وإخوانكم" فلما سمعوا ذلك من النبي ﷺ تفرقوا[٤] فعند ذلك غزاهم في ديارهم، لأن الفضيلة لابد أن تكون لها شوكة تمنع طغيان الرذيلة[٥].

<u>فغزوة بدر</u> كانت بعد أن جمع المشركون أمرهم على القضاء على الدعوة الإسلامية في المدينة المنورة، وان كانت قد بدأت بإرادة المسلمين اعتراض قافلة تجارية للمشركين، فإن ذلك كان طلباً لاسترداد بعض أموال المسلمين التي استولى عليها المشركون في مكة، وطردهم من ديارهم[٦] ولم يكن يُراد منها الحرب **<u>بدليل</u>**:

أولاً: أن النبي ﷺ لم يخرج بمن معه من أصحابه لقتال، لما علم أن قريشاً أقبلت لقتاله شاور المسلمين، ولو كان خروجه من المدينة للقتال ما شاورهم بطبيعة الحال.

ثانياً: أن عدداً من زعماء قريش كانوا يرون عدم القتال لعدم وجود ما يبرره، وقد عاد من الطريق الأخنس بن شريق[٧] في مائة من بني زهرة[١].

---

(١) علي محمد الصلابي: السيرة النبوية، عرض وقائع وتحليل أحداث، ج١، دار الفجر للتراث، ط١ ٢٠٠٣ / ١٤٢٤ هـ، ص ٥٩٩.

(٢) الأوس والخزرج: كان يتألف منهما أهل يثرب (المدينة المنورة) حين قيام الدعوة فعرفوا بالأنصار [شوقي أبو خليل، أطلس الحديث النبوي، ص ٥٤].

(٣) عبد الله بن سلول: كبير المنافقين في المدينة كان يرى أن الرسول ﷺ قد انتزع منه ملكه فقد كادت الخزرج أن توليه عليها سيداً. له مواقف كثيرة معادية للإسلام منها إنسحابه من غزوة أحد هو ومجموعةمن اصحابه وقوله عندما رجع الرسول من خيبر والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل يقصد الرسول ﷺ.

(٤) سنن أبي داود (٢١٣/٣) رقم ٣٠٠٤.

(٥) أبو زهرة: نظرية الحرب، مرجع سابق، ص ٦.

(٦) عبد الغفار هلال: النبي الخاتم، مرجع سابق، ص ١١٦.

(٧) هوالأخنس بن شريق بن عمرو بن وهب بن علاج بن أبي سلمة بن عبد العزى بن غيرة بن عوف بن ثقيف الثقفي أبو ثعلبة حليف بني زهرة اسمه أبي وإنما لقب الاخنس لأنه رجع ببني

وفي غزوة بني سُلَيم بالكُدْر[٢] نقلت استخبارات المدينة إلى النبي ﷺ بعد بدر أن بني سُلَيم[٣] وبني غَطَفَان[٤] تحشد قواتها لغزو المدينة، فباغتهم النبي ﷺ في مائتي راكب في عقر دراهم[٥] بعدما تيقن من نية القتال لديهما.

وقد حدثت المبادرة منهم أيضاً في **غزوة السويق**[٦] حيث نذر[٧] أبو سفيان بن حرب[٨] حين رجع[٩] إلى مكة بعد غزوة بدر، نذر ألا يمس رأسه ماء من جنابة حتى يغزو المدينة، فلما خرج في مائتي راكب قاصدًا المدينة قام سيد بني النضير[١٠] سلام

زهرة من بدر لما جاءهم الخبر أن أبا سفيان نجا بالعير فقيل خنس الأخنس ببني زهرة فسمي بذلك ثم أسلم الأخنس فكان من المؤلفة وشهد حنينا ومات في أول خلافة عمر رضي الله عنه.

(١) بطن من قريش، ينتسب الى زُهرة بن كلاب (شوقي أبو خليل، أطلس الحديث النبوي، ص ٢٠٦)

(٢) الكدر: قال ياقوت "وقال الواقدي: بناحية المعدن قريب من الأرحضية بينها وبين المدينة ثمانية برد [ياقوت: معجم (٤ / ٤٤١].

(٣) بنو سُلَيم: قبيلة عظيمة من قيس بن عيلان، من العدنانية، تنسب الى سُلَيم بن بن منصور بن عكرمة بن قيس بن عيلان بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان [الجمهرة، ص ٢٦١، صفة جزيرة اتلعرب، ص ١٣١، تاج العروس، ج٧، ص ١٥٩، الاشتقاق، ص ١٨٧، البيان والاعراب، ص ٦٤، معجم قبائل العرب ٢ / ٥٤٣].

(٤) بنو غَطَفَان: بطن كبير متسع، كثير الشعوب والأفخاذ، وهم بنو غطفان بن قيس عيلان، بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان [صفة جزيرة العرب: ١٢٩، الأغاني: ج ١٠، ص ١٥، الجمهرة: ص ٢٥٠، الاشتقاق: ص ١٦٤].

(٥) صفي الرحمن المباركفوري: الرحيق المختوم ، ط ١٧، دار الحديث، القاهرة، ٢٠٠٥، ص٢١٣.

(٦) في ذو الحجة ٢هـ، والسويق: طعام من مدموق القمح والشعير ويلت بماء أو سمن أو عسل، وفيها أنظر: مغازي الواقدي (١ / ١٨٢)، و تاريخ الطبري (٢ / ٤٨٣) وأنساب الأشراف للبلاذري (١ / ١٤٧)، والسيرة الحلبية (٢ / ٢٧٧).

(٧) الصلابي: السيرة، مرجع سابق، ص ٢٢١.

(٨) هو: صخر بن حرب بن أمية بن عبد شمس. رأس قريش وقائدهم يوم أحد ويوم الخندق دخل الإسلام يوم الفتح وصلح إسلامه. وكان من دهاة العرب ومن أهل الرأي والشرف فيهم، فشهد حنيناً، وأعطاه صهره رسول الله ﷺ من الغنائم مائة من الإبل، وأربعين أوقية من الدراهم يتألفه بذلك ففرغ عن عبادة هبل ومال إلى الإسلام. وشهد قتال الطائف، فقلعت عينه حينئذ، ثم قلعت الأخرى يوم اليرموك. وكان يومئذ قد حسن إيمانه، فإنه كان يومئذ يحرض على الجهاد. وكان تحت راية ولده يزيد، فكان يصيح: يا نصر الله اقترب، وكان حمو النبي ﷺ، وما مات حتى رأى ولديه: يزيد ثم معاوية أميرين على دمشق، وكان يحب الرياسة والذكر، وكان له منزلة كبيرة في خلافة ابن عمه عثمان. توفي بالمدينة سنة إحدى وثلاثين، وله نحو التسعين.(نهاية الأرب (٨٣)، نسب قريش (١٢١)، الجوهرة (٢ / ٤٥).

(٩) الصلابي: السيرة، مرجع سابق، ص ٢٢١.

(١٠) النضير: اسم قبيلة من اليهود الذين كانوا بالمدينة المنورة، في وادي بُطحان والبُويرة (ياقوت، معجم ٥ / ٢٩٠).

بن مشكم بالوقوف معه وضيافته وأبطن له خبر الناس، ولم تكن مخابرات المدينة غافلة عن ذلك[1]، فندب رسول الله ﷺ أصحابه فخرج في مائتي رجل من المهاجرين والأنصار.

وغزوة ذي أمر[2] كان سببها[3] أن استخبارات المدينة نقلت إلى رسول الله ﷺ أن جمعاً كبيراً من بني ثعلبة[4] ومحارب تجمعوا، يريدون الإغارة على أطراف المدينة، فندب رسول الله ﷺ المسلمين، وخرج في أربعمائة وخمسين مقاتلاً ما بين راكب وراجل، واستخلف على المدينة عثمان بن عفان[5].

وكانت غزوة بني قينقاع[6] بسبب الفعلة الفحشاء التي فعلوها مع المرأة الآمنة التي جاءت بجلب[7] لها فباعته بسوق بني قينقاع، وجلست الى صائغ هناك منهم فجعلوا يريدونها على كشف وجهها فأبت فعمد الصائغ الى طرف ثوبها فعقده الى ظهرها فلما قامت انكشفت سوأتها فضحكوا بها، فصاحت، فوثب رجل من المسلمين

---

(١) الطبري: تاريخ الطبري (٢ / ٢٨٤).
(٢) كانت في السنة الثالثة للهجرة، قال السمهودي واد بطريق فيد الى المدينة (وفاء الوفا ٢ / ٢٤٩)، وقال ياقوت: قال الواقدي هو من ناحية النخيل، وهو بنجد من ديار غَطَفَان (معجم البلدان: أمر) وفيها أنظر: سيرة ابن هشام (٢ / ٤٢٥)، وطبقات ابن سعد (٢ / ٣٤)، وتاريخ الطبري (٢ / ٤٨٧)، ومغازي الواقدي (١ / ١٩٣)، والسيرة الحلبية (٢ / ٢٧٩).
(٣) صفي الرحمن المباركفوري: الرحيق، مرجع سابق، ص٢١٩.
(٤) نسبة الى ثعلبة بن سعد بن ذبيان، من غطفان، سكن نسله الكوفة بعد إسلامهم (القاموس الإسلامي ١ / ٥٣٧) .
(٥) عثمان بن عفان (٤٧ ق هـ ـ ٣٥ هـ) هو عثمان بن عفان بن أبي العاص. قرشي أموي. أمير المؤلفين،وثالث الخلفاء الراشدين، وأحد العشرة المبشرين بالجنة من السابقين إلى الإسلام. كان غنياً شريفاً في الجاهلية، وبذل من ماله نصرة الإسلام. زوجه النبي صلي اله علية وسلم بنته رقية، فلما ماتت زوجة بنته الأخرى أم كلثوم ، فسمى ذا النورين بويع بالخلافة بعد أمير المؤمنين عمر. واتسعت رقعة الفتوح في أيامه. أتم جمع القرآن. وأحرق ماعدا نسخ مصحف الإمام. نقم علية بعض الناس تقديم بعض أقاربه في الولايات. قتله بعض الخارجين علية بداره يوم الأضحى وهو يقرأ القرآن. [الأعلام للزركلي ٤/٣٧١؛ و(عثمان بن عفان) لصادق إبراهيم عرجون؛ والبدء والتاريخ ٥/٧٩].
(٦) بنو قَيْنُقَاع: قبيلة يهودية نزلت المدينة مع بني النضير وبني قريظة وهم أول يهود نقضوا العهد وكانوا حلفاء الخزرج، وكانت ديارهم داخل المدينة،، وفيها أنظر: سيرة ابن هشام (٢ / ٤٢٦)، وطبقات ابن سعد (٢ / ٢٨)، و تاريخ الطبري (٢ / ٤٧٩)، ومغازي الواقدي (١ / ١٧٦)، وعيون الأثر لابن عبد البر (٢ / ٣٥٢)، والسيرة الحلبية (٢: ٢٧٢)، والسيرة الشامية (٤ / ٢٦٥).
(٧) هو ما يُجلب الى السوق للبيع.

على الصائغ فقتله، وكان يهودياً فشدت اليهود على المسلم فقتلوه، فاستصرخ أهل المسلم المسلمين على اليهود فأغضب المسلمون فوقع الشر بينهم وبين بني قينقاع [١] وخرج إليهم ﷺ وحاصرهم حتى نزلوا على حكمه[٢].

وغزوة أحد[٣] كانت كذلك للدفاع بعد أن هاجم الكُفار المسلمين في عُقر دارهم بالمدينة للأخذ بثأر معركة بدر، واجتماع كلمتهم على ذلك، وانضم اليهم غيرهم ممن يُسمون بالأحابيش، واستعانوا بعدد كبير من النسوة كي يمنعن الرجال من الفرار إذا أحدق بهم المسلمون، وخرجوا من مكة وقد بلغوا ثلاثة آلاف مقاتل[٤]. وتقول هند بنت عتبة في التحريض على قتال المسلمين:

إن تُقبلُـــــوا نعـــــانق ونفـــــرش النمـــــارق[٥]

أو تُـــــدبروا نُفـــــارق فـــــراق غيـــــر وامـــــق[٦]

وكان إجلاء يهود بني النضير[٧] بسبب نَقْضهم عهودهم بعد سماعهم هزيمة المسلمين في أُحد التي تحتم عليهم ألا يؤووا عدوًا للمسلمين، ولم يكتفوا بهذا النقض، بل أرشدوا

---

(١) سيرة ابن هشام، مع الروض الأنف (٣ / ١٣٧).

(٢) ابن عبد البر: الدرر في اختصار المغازي والسير، تحقيق: شوقي ضيف، ط٣، دار المعارف، ١٩٩١ م / ١٤١٢ هـ، ص ١٦٩ .

(٣) منتصف شوال من السنة الثالثة للهجرة، مكانها سفح جبل أُحد الذي يقع في الشمال من المدينة وسمي أحد لتوحده وانقطاعه عن جبال أخرى هناك ، (ياقوت، معجم ١ / ١٠٩) ، وفيها أنظر: طبقات ابن سعد (٢ / ١٩٧)، وسيرة ابن هشام (٣: ٣)، وصحيح البخاري (٥ / ٩٣)، ومسلم بشرح النووي (١٢ / ١٤٧)، وأنساب الأشراف للبلاذري (١ / ١٤٨)، والسيرة الحلبية (٢ / ٢٨٤)، والسيرة الشامية (٤ / ٢٧١).

(٤) رمضان البوطي: فقه السيرة النبوية. دار السلام، القاهرة، ٢٠٠٧ م / ١٤٢٨ هـ، ص ١٧٣ .

(٥) النمارق: أي الوسائد الصغيرة وكل ما يجلس عليه.

(٦) وامق: أي المحب.

(٧) غزوة بني النضير كانت في ربيع الأول من السنة الرابعة من الهجرة، (٦٢٥ م) وفيها انظر: سيرة ابن هشام (٣ / ١٤٢) في موضوع إجلاء بني النضير، وفتح الباري شرح صحيح البخاري في كتاب المغازي (٣٣١/٧)، وزاد المعاد٢٤٨/٣، وأنساب الأشراف (١ / ١٦٣)، والسيرة الحلبية (٢ / ٣٤٤) وبنو النَّضِير: كانوا حلفاء الخزرج، وكانت ديارهم بضواحي المدينة .

الأعداء إلى مواطن الضعف في المدينة وقام كعب بن الأشرف[1] بتحريض قريش على قتال رسول الله؛ كما حاولوا اغتياله[2]؛ فكان ما كان عقاباً لهم على ما عملوا من سوء.

أما غزوة ذات الرقاع [3] فكان سببها ما ظهر من الغدر لدى كثير من قبائل نجد بالمسلمين [4] حيث بلغ النبي ﷺ من عيونه المنتشرة في جزيرة العرب أن بني محارب وبني ثعلبة قد جمعوا الجموع من غَطَفَان لمحاربته ﷺ؛ فخرج اليهم رسول الله، ولكن الله تعالى قذف في قلوبهم الرعب،فتفرقوا بعيداً عن المسلمين ولم يقع أي قتال.

أما غزوة الأحزاب (الخندق) [5] فقد كان يهود بني النضير بعد أن خرجوا من المدينة إلى خيبر[6] خرجوا وهم يحملون معهم أحقادهم على المسلمين، فما أن استقروا بخيبر حتى أخذوا يرسمون الخطط للانتقام من المسلمين، فاتفقت كلمتهم على التوجه إلى القبائل العربية المختلفة لتحريضها على حرب المسلمين فحرضوا قريشا ثم غَطَفَان، وانضم إليهم بنو قريظة [7].

﴿ ٱلَّذِينَ عَٰهَدتَّ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِى كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ ﴾ [8]

فخرجت قريش يقودهم أبو سفيان بن حرب وخرجت غطفان وقائدهم عيينة بن حصن.... فلما سمع رسول الله ﷺ باجتماعهم وخروجهم إليه شاور أصحابه وكان ما كان من أمر الغزوة [1].

---

(١) وكان كعب يهجو رسول الله ويشبب بنساء المسلمين وفي قتله أنظر: مغازي الواقدي (١ / ١٨٤)، وطبقات ابن سعد (٢ / ٣١)، وتاريخ الطبري (٢ / ٤٨٧)، سيرة ابن هشام (٢ / ٤٣٠).

(٢) أنظر: الطبري، تاريخ الأمم والملوك، (٣ / ٣٧)، ابن عبد البر: الدرر، ص ١٦٤، فجلا بعضهم الى خيبر وبعضهم الى الشام (أنظر، الزمخشري، الكشاف (٤ / ٧٨).

(٣) يرجح ابن سعد أنها كانت في المحرم سنة خمس للهجرة وسميت كذلك لأنهم كانوا يربطون على أرجلهم من الخرق والرقاع اتقاء الحر، أما الواقدي فينكر أنها نسبة لجبل فيه بقع حمر وسواد وبياض، ويُقال لشجرة هناك وفيها أنظر: طبقات ابن سعد (٢ / ٦١)، وسيرة ابن هشام (٣ / ١٥٧)، وأنساب الأشراف للبلاذري (١: ١٦٣)، ومغازي الواقدي (١ / ٣٩٥)، وتاريخ الطبري (٢ / ٥٥٥)، والسيرة الحلبية (٢ / ٣٥٣).

(٤) أنظر، علي محمد الصلابي: السيرة، مرجع سابق، ص ٢٤٤.

(٥) وكانت في شهر شوال من السنة الخامسة للهجرة، وفيها أنظر، الواقدي، المغازي (٤ / ٣٦٢)، وسيرة ابن هشام (٣ / ١٠٦)، وتاريخ الطبري (٢ / ٩٠)، وابن كثير، البداية والنهاية (٣ / ٩٢).

(٦) خيبر: مدينة كبيرة ذات حصون ومزارع على بعد تسعين ميلا تقريباً من المدينة في جهة الشمال (الحميري، الروض ٢٢٨، ياقوت، معجم ٢ / ٤٠٩).

(٧) بنو قُرَيْظة: قبيلة يهودية كانوا حلفاء الأوس، وكانت ديارهم بضواحى المدينة (سيرة ابن هشام ٣ / ١٤١، تاريخ الطبري ٢ / ٥٨١).

(٨) سورة الأنفال: آية ٥٦.

أما غزوة دومة الجندل[٢] فقد بلغ رسول الله ﷺ أن بدومة الجندل[٣] جمعاً كثيراً وأنهم يظلمون من مر بهم من الضافطة وأنهم يريدون أن يدنوا من المدينة، فندب رسول الله ﷺ الناس واستخلف على المدينة سباع بن عُرْفُطة الغفاري وخرج لخمس ليال بقين من شهر ربيع الأول في ألف من المسلمين[٤].

وكذلك غزوة بني المصطلق[٥] (المُرَيسيع) [٦] فقد بلغ الرسول ﷺ أن بني المصطلق يجمعون له، وكان قائدهم الحارث بن أبي ضرار ينظم جموعهم، فلما سمع بهم خرج إليهم حتى لقيهم بعد أن أرسل بريدة بن الحصيب الأسلمي[٧] للتأكد من نيتهم[٨].

وفي غزوة ذات السلاسل[٩] بلغ رسول الله ﷺ أن جمعاً من قُضاعة[١] قد تجمعوا يريدون أن يدنوا الى أطراف رسول الله ﷺ فدعا رسول الله ﷺ عمرو بن

---

(١) ابن عبد البر: الدرر، مرجع سابق، ص ١٦٩.

(٢) وكانت في شهر ربيع الأول من سنة خمس للهجرة، وسميت بذلك لأن خصبها مبني بالجندل (ياقوت: معجم (٢ / ٤٨٧).

(٣) دومة الجندل: مدينة في شمال نجد قريبة من دمشق، وسُميت بذلك لأن خصبها مبني بالجندل وعليها سور ولها حصن مشهور (ياقوت: المعجم ج٢، ص ٤٨٧، كرد علي: خطط الشام: ج١، ص ٧١، وفيها أنظر: طبقات ابن سعد (٢ / ٦٢)، وسيرة ابن هشام (٣ / ١٦٨)، و أنساب الأشراف (١ / ١٦٤)، وتاريخ الطبري (٢ / ٥٦٤)، ومغازي الواقدي (١ / ٤٠٢)، البداية والنهاية لابن كثير (٤ / ٩٢)، والسيرة الحلبية (٢ / ٣٦٢)، والسيرة الشامية (٤ / ٤٨٤).

(٤) أنظر: ابن كثير: البداية والنهاية (٤ / ٩٢)، والواقدي: المغازي (ص ٥)، وسيرة ابن هشام (٣ / ١٥٨)، وتاريخ الطبري (٢ / ٤٠٤).

(٥) يرجح ابن اسحاق أنها كانت في شعبان سنة ست للهجرة وقول آخر سنة خمس للهجرة وهم بطن من خزاعة القحطانية، وكان سيدهم الحارث بن ضرار، وفيها أنظر: ابن كثير: البداية والنهاية (٤ / ١٥٦).

(٦) المُرَيسيع: تصغير المرسوع، وهو الذي انسلقت عينه من السهر، وهو اسم ماء في ناحية قُديد الساحل (الحميري، الروض ٥٣٢، ياقوت، معجم ٥ / ١١٨).

(٧) هو بريدة بن الحصيب بن عبد الله بن الحارث بن الأعرج بن سعد الأسلمي. اسمه عامر، وبريدة لقب له.كنيته: أبو عبد الله، وقيل: أبو سهل، وأبو ساسان، وأبو الحصيب .صحابي جليل، أخباره كثيرة، ومناقبه مشهورة. أسلم عام الهجرة حين اجتاز به النبي ﷺ مهاجراً إلى المدينة، فتلقاه بريدة في سبعين من أهل بيته من بني سهم، فقال له ﷺ: من أنت؟ قال :بريدة. فالتفت إلى أبي بكر فقال: يا أبا بكر برد أمرنا وصلح. ثم قال: ممن؟ قال: من أسلم. قال لأبي بكر: سلمنا. قال ثم ممن؟ قال: من بني سهم، قال: خرج سهمك [الإصابة ١٤٦/١؛ وأسد الغابة ١٧٥/١؛ وتهذيب التهذيب ٤٣٢/١].

(٨) لمزيد من التفاصيل أنظر، ابن سعد: الطبقات (١ / ٦٣).

(٩) وكانت في جمادى الآخرة سنة ثمان من الهجرة، وهي وراء وادي القرى وبينها وبين المدينة عشرة أيام ، ابن سعد: الطبقات (١ / ٦٣).

العاص فعقد له لواء أبيض وبعثه في ثلاثمائة من سراة المهاجرين والأنصار ومعهم ثلاثون فارساً

وعندما هادن ﷺ قريشا عشر سنين (بمقتضى صُلح الحُديبية) لم يبدأهم بقتال حتى بدأوا هم بقتاله ونقضوا عهده عندما ارتكبت قريش خطأ فادحًا عندما أعانت حلفاءها بني بكر[٢] على خزاعة [٣] حليفة المسلمين بالخيل والسلاح والرجال، ففتكت بأكثر من خمسة وعشرين من خزاعة، قتلتهم داخل حدود الحرم في ظل الصلح ً.

وجاء فتح مكة [٤] بعد أن ارتكبت قريش خطأ فادحًا عندما أعانت حلفاء ها بني بكر على خزاعة حليفة المسلمين بالخيل والسلاح والرجال، ففتكت بأكثر من خمسة وعشرين من خزاعة، قتلتهم داخل حدود الحرم في ظل الصلح وقبل أن تمضي على توقيعه ثلاثون شهراً[٥]؛ فقد ألغت قريش بنفسها أشد بنود صلح الحديبية قسوة كما ظنها بعض المسلمون.

شواهد أخرى

عندما فر أبو بصير عبيد بن أسيد[٦]، و هاجر إلى المدينة بعد صلح الحديبية أرسلت قريش وراءه رجلين وقالوا: العهد الذي جعل لنا فدفعه إلى الرجلين فخرجا به حتى بلغا ذا الحليفة فنزلوا يأكلون من تمر لهم فقال أبو بصير لأحد الرجلين والله إني

---

(١) نسبة الى قضاعة بن مالك بن حمير بن سبأ، فهم يمانية وجدهم قحطان، وقيل إن قضاعة امرأة من جُرهم، تزوجها مالك بن حمير، وقضاعة اسم كلب الماء أو كلبته (لسان العرب، مادة قضع).

(٢) نسبة الى بكر بن وائل بن قاسط، من بني ربيعة، من نسل سيدنا اسماعيل سكنوا تهامة واليمامة (شوقي أبو خليل، أطلس الحديث النبوي، ص ٧٨).

(٣) تعتبر خزاعة قبيلة عريقة و هي من أمهات القبائل في الجزيرة العربية و هي قبيلة أزدية قحطانية. يعود نسب خزاعه إلى: عمر بن عامر بن حارثة بن امرؤ القيس بن ثعلبة بن مازن بن الأزد بن الغوث بن النبت بن مالك بن زيد بن كهلان بن سبأ وقد اجمع النسابون بأن سبأ هو: سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان بن هود النبي عليه السلام بن يرد بن مهلائيل بن قينان بن أنوش بن شيث بن آدم عليه السلام (شوقي أبو خليل، أطلس الحديث النبوي، ص ١٦١).

(٤) وكانت في رمضان للسنة الثامنة من الهجرة وفيها أنظر: فتح الباري شرح صحيح البخاري في كتاب المغازي ٣/٨، والبداية والنهاية (٢٧٧/٤)، والواقدي: المغازي (٤٠٦)، سيرة ابن هشام (٣ / ٣)، وتاريخ الطبري (٢ / ٢٣٢)، ابن الأثير: الكامل (٢ / ٢٣٩).

(٥) محمد أحمد باشميل: فتح مكة، دار الفكر، ط٢، ١٩٧٤ م / ١٣٩٤ هـ، ص ١٨.

(٦) أبو بصير: اختلف في اسمه ونسبه، فقيل: عبيد بن جارية، وذكر خليفة عن أبي معشر، قال اسمه: عتبة بن أسيد بن جارية بن أسيد بن عبد الله بن سلمة بن عبد الله بن غيرة بن عوف بن قيس وهو ثقيف بن منبه بن بكر بن هوازن حليف لبني زهرة، وقال ابن إسحاق: أبو بصير عتبة بن أسيد بن جارية. قال ابن شهاب هو رجل من قريش، وقال ابن هشام هو ثقفي.

لأرى سيفك هذا يا فلان جيداً فاستله الآخر فقال أجل والله لقد جربت به ثم جربت فقال أبو بصير: أرني أنظر إليه فأمكنه منه فضربه به حتى برد وفر الآخر حتى أتى المدينة فدخل المسجد يعدو فقال ﷺ حين رآه: لقد رأى هذا ذعراً فلما انتهى إلى النبي ﷺ قال: قتل والله صاحبي وإني لمقتول فجاء أبو بصير فقال: يا نبي الله قد وفى الله ذمتك، قد رددتني إليهم ثم أنجاني الله منهم فقال ﷺ: ويل أمه مسعر حرب لو كان له أحد. فلما سمع ذلك عرف أنه سيرده إليهم فخرج حتى أتى سيف البحر. قال: وتلفت منهم أبو جندل بن سهيل[1] فلحق بأبي بصير فجعل لا يخرج من قريش رجل قد أسلم إلا لحق بأبي بصير حتى اجتمعت عنده عصابة، فوالله ما يسمعون بعير[2] لقريش خرجت إلى الشام إلا وتعرضوا لها فقتلوهم وأخذوا أموالهم، فأرسلت قريش إلى النبي ﷺ تناشده الله تعالى والرحم ما أرسل إليهم فمن أتاه منهم فهو آمن فأرسل إليهم".

وعن سهيل بن سعد[3] قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول يوم خيبر لأعطين الراية رجلا يفتح الله على يديه. فبات الناس يدوكون أيهم يعطاها، فلما أصبح الناس غدوا على رسول الله ﷺ كلهم يرجو أن يعطاها فقال رسول الله ﷺ: أين علي بن أبي طالب؟، قالوا يا رسول الله هو يشتكي عينيه فأرسل إليه فبصق في عينه، ودعا له فبرا مكانه حتى لكأنه لم يكن به شيء فأعطاه الراية فقال (يا رسول الله أقاتلهم (أنقاتلهم) حتى يكونوا مثلنا. قال: على رسلك أنفذ حتى تنزل بساحتهم ثم ادعهم إلى الإسلام واخبرهم بما يجب عليهم فيه من الحق فوالله لأن يهدي الله بك الرجل الواحد خير لك من حمر النعم)[4].

---

(١) أبو جندل بن سهيل: ابن سهيل بن عمرو العامريّ القرشيّ. وقيل: اسمه العاص.كان من خيار الصحابة، وقد أسلم قديماً. حبسه أبوه وقيّده، فلما كان يوم صُلح الحديبية هرب يحجلُ في قيوده، وأبوه حاضر بين يدي النبي ﷺ، لكتاب الصلح. فقال: هذا أول من أقاضيك عليه يا محمد. فقال: هبه لي. فأبى. فردّه وهو يصيح ويقول: يا مسلمون ! أُردُّ إلى الكفر ؟ ثم إنه هرب.

(٢) العير: ما يجلب عليه الأشياء من قوافل الإبل والبغال والحمير.

(٣) سهيل بن سعد (؟ - ٩١ هـ) هو سهل بن سعد بن مالك بن خالد، أبو العباس، الخزرجي الساعدي، الأنصاري، صحابي، من مشاهيرهم. روى عن النبي ﷺ وعن أبي عاصم بن عدي وعمرو بن عنبسة، وعنه ابنه العباس وأبو حازم والزهري وغيرهم. وقيل: هو آخر من بقى بالمدينة من أصحاب رسول الله ﷺ، حكى ابن عيينة، عن أبي حازم، قال سمعت سهل بن سعد يقول: لو مت لم تسمعوا أحداً يقول: سمعت رسول الله ﷺ. وله في كتب الحديث ١٨٨ حديثاً. [الاصابة ٨٨/٢، وتهذيب التهذيب ٢٥٢/٤، والاستيعاب ٦٦٤/٢، والأعلام ٢١٠/٣].

(٤) ابن تيمية: المنتقى من احاديث الاحكام، ص٦٨٢-٦٨٣، والبيهقي: السنن الكبرى ج٩، كتاب السير ص١٠٧.

كل تلك المواقف تدل على نبالة راقية وأخلاق سامية ناهيك عن شخص كريم ثاقب الفكر بعيد النظر يدرك تمتم الإدراك أن الحرب تساعد على انطلاق عوامل الشر الكامنة في النفوس المريضة وتقطع الفرصة لتنشيط عوامل الخير التي جلب عليها الإنسان وأي إنسان **؟!**.

مبدأ إعلان الحرب قبل القتال

لم يكن الذبي ﷺ رجلا مقاتلا يطلب الحرب للحرب أو يطلبها وله مندوحة عنها[١]، ولذلك وضع الرسول الكريم ﷺ مبدأ إعلان الحرب قبل القتال، وهو المبدأ الذي لم يعرفه القانون الدولي العام الوضعي إلا في عام (١٩٠٧م) في مؤتمر لاهاي الثاني؛ ولم يبح الرسول ﷺ حروب المباغتة[٢].

فعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: ما قتل رسول الله قوما إلا دعاهم[٣].

وفي حديث للرسول ﷺ يقول لمعاذ بن جبل[٤] وصحبه، حينما أرسله لفتح اليمن:

{لا تقاتلوهم حتى يقتلوا منكم قتيلاً، ثم أروهم ذلك، وقولوا لهم: هل إلى خير من هذا من سبيل؛ فلإن يهدي الله على يديك رجلاً واحداً خير لك مما من حمر النعم} [٥].

---

(١) عباس محمود العقاد: عبقرية محمد (ﷺ)، مرجع سابق، ص ٣١.

(٢) السيد مصطفي أبوالخير، نظرية الحرب، مرجع سابق.

(٣) رواه أحمد والطبراني ورجاله رجال الصحيح، وحديث سليمان بن بريدة -نيل الأوطار ٢٣٠/٧

(٤) معاذ بن جبل (٢٢٠ق هـ – ١٨ هـ) هو معاذ بن جبل بن عمرو بن أوس الانصاري الخزرجي، ابو عبد الرحمن. صحابي جليل. إمام الفقهاء واعلم الامة بالحلال والحرام. أسلم وعمره ثماني عشرة سنة. شهد بيعة العقبة، ثم شهد بدرا وأحد اً والمشاهد كلها مع رسول الله صلي الله علية وسلم. جمع القرآن علي عهد الرسول ﷺ، وكان من الذين يفتون في ذلك العهد. بعثه الذبي صلي الله عليه وسلم بعد غزوة تبوك قاضياً ومرشداً لاهل اليمن، وفي طبقات ابن سعد أنه أرسل معه كتابا اليهم يقول فية (اني بعثت اليكم خير أهلي) قدم من اليمن الي المدينة في خلافة ابي بكر ثم كان مع ابي عبيدة في طاعون عمواس استخلف معاذا. وأقره عمر، فمات في ذلك العام. [الاصابة فيتميز الصحابة ٤٢٦/٣؛ وأسد الغابة ٣٧٦/٤؛ وحلية الاولياء ٢٢٨/١؛ والاعلام ١٦٦/٨].

(٥) أنظر، سنن البيهقي، ج٩، ص ١٠٦..

وقال له :

" يسر ولا تعسر، وبشر ولا تنفر، وإنك ستقدم على قوم من أهل الكتاب، يسألونك ما مفتاح الجنة ؟ فقل : شهادة أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، فخرج معاذ، حتى إذا قدم اليمن قام بما أمره به رسول الله ﷺ "[١].

ويوم خيبر حينما أعطى الراية لعلى (كرم الله وجه) قال له علي: نقاتلهم حتى يكونوا مثلنا ؟ فقال:

" على رَسْلك حتى تنزل بساحتهم، ثم أدعهم إلى الإسلام، وأخبرهم بما يجب عليهم، فوالله لأن يهدى بك الله رجلاً واحداً خير لك من حمر النعم } [٢]

ووصيته ﷺ لخالد بن الوليد[٣] عندما بعثه إلى أكيدر بن عبد الملك[٤] بدومة الجندل في اليمن فقال: " من مررت به من العرب فسمعت الأذان فلا تعرض له ومن لم تسمع فيهم الأذان فأدعهم إلى الإسلام فان لم يجيبوا فجاهدهم" [٥].

وكانت السياسة المتبعة لدى الرسول الكريم ﷺ قبل خوض المعركة " الإسلام – الجزية – الحرب "[٦].

وكأن لسان حاله يقول:

إذا لـــم يكـــن إلا الأســـنة مركبـــا فـــلا يســـع المضـــطر إلا ركوبهـــا

---

(١) سيرة ابن هشام (٤ / ١٤٩).

(٢) البخاري (٢٧٨٣)، مسلم (٢٤٠٦) عن سهل بن سعد.

(٣) خالد بن الوليد بن المغيرة المخزومي القرشي، أبو سليمان، أحد أشراف قريش في الجاهلية وأمه هي لبابة بنت الحارث الهلالية، وكان إليه القبّة وأعنّة الخيل، أمّا القبة فكانوا يضربونها يجمعون فيها ما يجهزون به الجيش وأما الأعنة فإنه كان يكون المقدّم على خيول قريش في الحرب... كان إسلامه في شهر صفر سنة ثمان من الهجرة، وتوفي خالد في حمص وكان قد ولي عليها بعد فتح الشام. قال على فراش الموت: " ما في جسدي موضع شبر إلا وفيه ضربة بسيف، أو رمية بسهم، أو طعنة برمح، وها أنا ذا أموت على فراشي حتف أنفي، كما يموت البعير، فلا نامت أعين الجبناء" (الإصابة ٤١٣/١، والاستيعاب ٤٢٧/٢، والإعلام ٣٤١/٢).

(٤) هو أكيدر بن عبد الملك بن عبد الجن بن أعيا بن الحارث بن معاوية بن جلاوة بن أيامة، من ولد أشرس بن كندة، من قبائل عريب بن كهلان القحطانية (البلاذري: أنساب الأشراف: ج١، ص ٣٨٢، ابن حزم: جمهرة أنساب العرب: ص ٤٢٩.

(٥) البيهقي: السنن الكبرى ج٩ ص١٠٨، الكليني الرازي: الفروع من الكافي ج٥ ص٢٨. الهندي: كتر العمال ك٤ ص٧ ،٣،م١٠ ص٣٨٤.

(٦) لمزيد من التفاصيل أنظر، بسام العسيلي: فن الحرب الإسلامي، ج١، دار الفكر، بيروت، ١٩٨٨ / ١٤٠٩ هـ، ص ١٩.

فحين تكون الحرب لردع المعتدي وكف الظالم ونصرة الحق والانتصاف للمظلوم تكون فضيلة من الفضائل وتنتج الخير والبركة والسمو للناس[١].ولم يدع الإسلام إلى استخدام السيف إلا ليكون فيصلاً بين الخير والشر.

فالقتال من هذا الوجه كالطب تماماً؛ فكما أن الطب وظيفته وقاية الشعوب والمجتمعات من الأمراض المادية الفتاكة، واستئصالها أينما وجدت. كذلك القتال فإن وظيفته استئصال الأمراض المعنوية ـ أينما وجدت ـ والتي تكون أشد فتكاً وتدميراً للشعوب والمجتمعات من الأمراض المادية العضوية.

وكان الرسول ﷺ لا يتعجل أمر الحرب بل يرسل عيونه لاستطلاع الأمر ولم يكن يعتمد على جهة إستخبارية واحدة، بل يستمد معلوماته من جهات متعددة وذلك حتى يقف على الخبر اليقين الذي يمكنه من اتخاذ الإجراءات المناسبة لمواجهة الحدث[٢].

هذا التقدير للأمور يجري على مبادئ، ويقوم على أصول لم تملها الأهواء الشخصية، ولكن أملتها مصلحة العالم الإنساني كله، يشهد بهذا سلوكه القويم صلوات ربي وسلامه عليه.

ومن وصايا النبي ﷺ لأمراء السرايا والجيوش: {عن سليمان بن بريدة عن أبيه رضي الله عنهما قال: كان رسول الله ﷺ إذا أمّر أميرا على جيش أو سرية أوصاه في خاصته بتقوى الله عز وجل وبمن معه من المسلمين خيرا ثم قال[٣]: {اغزوا باسم الله في سبيل الله قاتلوا من كفر بالله اغزوا ولا تغلوا[٤] ولا تغدروا[٥] ولا تمثلوا[٦] ولا تقتلوا واحدا؛ فإذا لقيت عدوك من المشركين فادعهم إلى ثلاث خصال: فأيتهن ما أجابوك فاقبل منهم: ادعهم إلى الإسلام فان أجابوك فاقبل منهم وكف عنهم وادعهم إلى التحول من دارهم إلى دار المهاجرين واخبرهم أنهم إن فعلوا ذلك فلهم ما للمهاجرين وعليهم ما على المهاجرين. فإن أبوا أن يتحولوا منها فأخبرهم أنهم يكونون كأعراب المسلمين يجري عليهم حكم الله الذي يجري على المؤمنين، ولا يكون لهم في الغنيمة أو الفيء شيء إلا أن يجاهدوا مع المسلمين فإن

---

(١) أنظر، الامام الشهيد حسن البنا، السلام، مرجع سابق، ص ٣١.

(٢) حسن محمد النابودة، ومحمد عبد القادر خريسات: صاحب الخبر في الدولة الإسلامية، ط١، مركز زايد للتراث والتاريخ، الامارات العربية، ٢٠٠٣ م / ١٤٢٤ هـ، ص ٦٤.

(٣) أخرجه مسلم في الجهاد والسير (١٧٣١)..

(٤) لا تغلوا": أي؛ لا تخونوا في الغنيمة.

(٥) ولا تغدروا": لا تنقضوا عهداً.

(٦) ولا تمثلوا": أي؛ لا تشوهوا القتلى،بقطع الأنوف والآذان.

هم أبوا فسلهم الجزية، فإن هم أجابوك فاقبل منهم وكف عنهم فإن هم أبوا فاستعن بالله عز وجل وقاتلهم".

وإذا حاصرت أهل حصن فأرادوك على أن تجعل لهم ذمة الله وذمة نبيه فلا تجعل لهم ذمة الله ولا ذمة نبيه ولكن اجعل لهم ذمتك وذمة أصحابك. فإنكم إن تخفروا ذمتكم وذمة أصحابكم أهون من أن تخفروا ذمة الله عز وجل وذمة رسوله. وإذا حاصرت أهل حصن فأرادوك أن تنزلهم على حكم الله فلا تنزلهم على حكم الله ولكن أنزلهم على حكمك فإنك لا تدري أتصيب حكم الله فيهم أو لا} [(١)].

وبعث رسول الله ﷺ خالداً بن الوليد في أربعمائة من المسلمين في ربيع الأول سنة عشر إلى بنى الحارث بنجران[(٢)]، وأمره أن يدعوهم إلى الإسلام قبل أن يقاتلهم ثلاثاً ففعل "[(٣)].

إذن فالعامل الديني – وهو التبليغ الدعوة – كان هو المقصد الأساسي والأسباب المادية ليست أسباباً في حد ذاتها، وإنما هي من إفرازات الغزوات[(٤)].

الردع والترهيب لمنع المواجهة المسلحة حقناً للدماء

كان ﷺ يعمد إلى القوة العسكرية حيث أصابها، فيقضى على عزائم أعدائه بالقضاء عليها، ولا يضيع الوقت في انتظار ما يختاره أولئك الأعداء، وإضعاف أنصاره بتركه زمام الحركة في أيدي الهاجمين، إلا أن يكون الهجوم وبالا على المقدمين عليه [(٥)].

والرسول ﷺ قد استهدف في كل غزواته تحطيم معنويات أعدائه أكثر مما يستهدف تحطيم قواهم المادية، لأنه كان يطمح - دائماً - في عودة أعداءه إلى طريق الحق السَّوي، فكان يحرص على حياتهم من أجل هدايتهم وكثيراً ما كان يردد عندما يشتد أذى قريش له «اللّهم اهدِ قومي فإنهم لا يعلمون» [(٦)].

---

(١) رواه مسلم ١٧٣١/٢ وأحمد ٣٥٨/٥.

(٢) تقع نجران على الحدود بين الحجاز و اليمن، وكان أهلها يعتنقون المسيحية وفتحت نجران سنة عشر صلحاً (الحميري، الروض ٥٧٣، ياقوت، معجم ٥ / ٢٦٦).

(٣) أنظر: ابن كثير: البداية والنهاية(٥ / ٩٨)

(٤) عبدالله الأمين: الاستشراق في السيرة النبوية، ط١، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، سلسلة الرسائل الجامعية، ٢١، ١٩٩٧ / ١٤١٨ هـ، ص ٢٢٨.

(٥) العقاد: عبقرية محمد (ﷺ)، مرجع سابق، ص ٣٣.

(٦) البخاري، الفتح كتاب الأنبياء، باب حديث الغار (٥٩٣/٦) رقم (٣٤٧٧) والجامع الصحيح (٣٤٧٧).

وهكذا نجد أن الرّسول ﷺ يلوح باستعمال القوة من أجل ردع أعدائه حتى يُعيدوا حساباتهم، و يسعى قدر الإمكان إلى تجنب الحرب وويلاتها. وكُتب السيرة تروي لنا بأن المسلمين عندما وصلوا إلى تبوك، و علموا أن الرّوم قد انسحبوا منها إلى داخل بلادهم. حينئذ آثر الرسول ﷺ الانسحاب وكان بإمكانه تعقيب و مطاردة قوات الرّوم المنسحبة، و إيقاع الخسائر الفادحة في صفوفها، و ما أيسر القتال مع عدو منسحب(١).

وكان المغزى من وراء السرايا النبوية إنذار قريش عاقبة طيشها، فقد حاربت الإسلام ولا تزال تحاربه، ونكلت بالمسلمين في مكة، ثم ظلت ماضية في غيها، لا تسمح لأحد من أهل مكة أن يدخل في دين الله، ولا تسمح لهذا الدين أن يجد له قراراً في أي بقعة أخرى من الأرض، فأحب رسول الله ﷺ أن يُشعر قادة مكة بأن هذه الخطة الجائرة ستلحق بهم الأضرار الفادحة(٢).

ولعل محمداً ﷺ رمى من وراء بعض السرايا المسلحة إلى إر هاب اليهود المقيمين في المدينة وعلى مقربة منها؛ فقد رأيت أن هؤلاء اليهود لم يلبثوا، حين رأوا أمر محمد ﷺ يستقر ولواء الإسلام يسمو ويرتفع. أن بدءوا يقلبون للنبيّ ظهر المجن ويعملون للوقيعة به. وقد لجأوا إلى كل وسيلة للدس بين المسلمين ولإثارة البغضاء بين المهاجرين والأنصار (٣).

هذه هي استراتيجية الردع الإسلامية، وقد طبقها الرسول القائد في معارك عصر النبوة كما يتبين من تحليل الغزوات التي قادها ﷺ بنفسه وبلغ عددها نحو سبعاً وعشرين غزوة، فإننا نجد تسع عشرة غزوة منها حققت أهدافها بدون قتال بسبب فرار الأعداء أمام قوة المسلمين، ولم ينشب القتال إلا في تسع(٤) غزوات فقط(١).

---

(١) أنظر، عباس الذهبي: العلاقات الدولية للحكومة الاسلامية من وجهتي النظر الفقهية و السياسية.

(٢) أنظر: أحمد أبو زيد: السيرة النبوية، سلسلة تصحيح ما ينشر عن الإسلام والمسلمين من معلومات خاطئة، المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة.

(٣) هيكل: حياة محمد، ج١، مرجع سابق، ص ٢٠٦ .

(٤) والغزوات التسع هي (بدر – أحد – الخندق – بني قريظة – بني المصطلق – خيبر – فتح مكة – حنين – الطائف) وفي شأن هذه الغزوات أنزل الله أياتٍ وسور: فسورة (الأنفال) سورة بدر، و في أحد آخر سورة (آل عمران)، و في قصة الخندق وقريظة وخيبر صدر (سورة الأحزاب)، (وسورة الحشر) في بني النضير، وفي قصة الحديبية وخيبر سورة (الفتح) وأشير فيها إلى الفتح، وذكر الفتح صريحًا في سورة (النصر)، وجرح منها ﷺ في غزوةٍ واحدةٍ و هي

و**«مبدأ الردع»** هو أحد مبادئ السياسة الخارجية في الإسلام. علماً بأن هذا المبدأ ذاع صيته واشتهر في العلاقات الدولية في أعقاب ما يطلق عليه بالحرب الباردة[٢].

فهدف الردع هو منع العدو من اتخاذ قرار باستخدام القوة ولكي يتحقق ذلك يجب أن توضع التدابير والاستعدادات الكافية حين يكون التهديد قوياً، مما يجعل العدو يمتنع فعلاً عن اتخاذ قرار استخدام القوة[٣] بعد تيئيسهم جميعاً من نصر محقق[٤].

وذلك لأن التأثير السيكولوجي (النفسي) يمكن أن يتدخل في الإرادة والعزم والتصميم فيجعل الشخص واهن القوى قليل الجهد ضعيف التصميم[٥].

يقول هنري كيسنجر[١]، أبرز الساسة الأمريكان في أعقاب الحرب الباردة «تستند سياسة الرّدع على مقاييس سيكولوجية إذ تستهدف منع العدوان من خلال إقناع المعتدي بالمخاطر التي يحتمل أن تصيبه»[٢].

أحد، وقاتلت معه الملائكة في بدر وحنين، ونزلت الملائكة يوم الخندق، فزلزلت المشركين وهزمتهم، وكان الفتح في غزوتين: بدر وحنين، وقاتل بالمنجنيق في غزوة واحدة وهي الطائف، وتحصن في الخندق في واحدة، وهي الأحزاب أشار به عليه سلمان الفارسي رضي الله عنه.

(١) جمال الدين محفوظ: العسكرية، مرجع سابق، ص ١٨.

(٢) الحرب الباردة اصطلاح يطلق على العلاقات الجديدة التي نشات بين المنتصرين في الحرب العالمية الثانية خلال الفترة بين نهاية هذه الحرب وانهيار الاتحاد السوفيتي ١٩٩٠ بتفكك الاتحاد السوفيتي (راجع الموسوعة السياسية، ترجمة، تحقيق: الكيالي-زهيري، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، والموسوعة الثقافية، مؤسسة دار الشعب، ١٩٧٢ م.

(٣) عبد المنعم عميرة: الاستراتيجية الحربية في ادارة المعارك في الإسلام، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠٦ م / ١٤٢٧ هـ، ص ٣٥.

(٤) ياسين سويد: الفن العسكري الإسلامي أصوله ومصادره، ط٢، شركة المطبوعات للتوزيع ١٩٩٠ م / ١٤١١ هـ، ص ١٩٠.

(٥) لمزيد من التفاصيل أنظر، أحمد عزت راجح، أصول علم النفس، وعبدالرحمن عدس، ومحي الدين توق، علم النفس العام، مكتبة الأقصى، عمان، ١٩٨١م، و مصطفى حجازي، الصحة النفسية،،المركز الثقافي العربي،المغرب، و محمود السيد ابو النيل (١٩٨٥) علم النفس الاجتماعي دار النهضة، القاهرة، و سعد جلال، علم النفس الاجتماعي دار المعارف الاسكندرية، و احمد عبد اللطيف وحيد (٢٠٠١) علم النفس الاجتماعي دار المسيرة، عمان، و D. (1997) Applied Social Psychology. ، S.W. and M'Creary،Sadva .Prentice Hall. N.J

وهكذا نجد أن الرسول ﷺ أعطى للإدارة العسكرية مفهومها، وجعل منها علماً مبتكراً، وفي هذا العلم استخدم الحرب النفسية، واعتبرها من أهم أساليب الحرب وتحقيق النصر مما أتاح له أن ينتصر في معاركه الحاسمة بتوفيق الله عز وجل.

حروب الرسول ﷺ كانت دفاعية

وحروب النبي ﷺ كانت **حروب دفاع**. ولم تكن منها حرب هجوم إلا على سبيل المبادرة بالدفاع بعد الإيقان من نكث العهود والإصرار على القتال... وتستوي في ذلك حروبه مع قريش وحروبه مع اليهود أو مع الروم [٣].

فأمام ذلك التربص والتحفز ضد الإسلام وأمام هذا العداء السافر، كان لا بد للمسلمين من أن يستعدوا ويجهزوا أنفسهم لمواجهة لا مفر منها مع أعدائهم فيكون بذلك الجهاد الذي شرعه الإسلام، وخاض الرسول ﷺ معاركه وأصحابه وهو أشرف أنواع الجهاد، فالجهاد بهذه الصورة ليس عدوانا وإنما هو رد للعدوان[٤] وناهيك بمعارك قامت من أجل حماية الحق ودفع المظالم وقمع العدوان ودحر الجبابرة.

وكانت طبيعة الأحوال والصراع تؤذن بأن القتال واقع لا محالة، فما كانت قريش لتدع الإسلام الذي حاربته سنوات طوالاً، ينتشر في أرجاء الجزيرة العربية بسهولة ويسر؛ فكان أول اصطدام للمسلمين بقريش حيث تعرضت **سرية**[٥] **عبد الله بن جحش**[٦] لقوافل قريش القادمة من الشام بقيادة أبي سفيان رداً على اعتداء المشركين حيث إنهم اعتدوا على رسول الله ﷺ وأصحابه وصودرت أموالهم بعدما صودرت حرياتهم[٧]، فقتلوا بعضاً منهم، وشردوا بعضاً إلى الحبشة، وبعضاً إلى المدينة، وعذبوا جملة منهم، وهتكوا أعراضهم كما في قصة سمية أم عمار،

---

(١) كيسنجر: أحد ألمع السياسيين الأمريكيين، ومهندس السياسة الخارجية الأمريكية في عهد إدارتي كل من الرئيسين ريتشارد نيكسون وجيرالد فورد (راجع الموسوعة السياسية، ترجمة، تحقيق: الكيالي-زهيري، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، والموسوعة الثقافية، مؤسسة دار الشعب، ١٩٧٢ م).

(٢) انظر: هنري كيسنجر: مفهوم السياسة الخارجية الامريكية ، ص ٢٣.

(٣) عباس محمود العقاد: عبقرية محمد (ﷺ)، مرجع سابق، ص ٢٧.

(٤) عبد الرحمن زكي: الحرب، مرجع سابق، ص ٩.

(٥) الفرق بين الغزوة والسرية، أن الغزوة يقودها النبي ﷺ، والسرية يقودها أحد قادته، وكان تعداد السرايا نحو سبعاً وأربعين سرية، والسرية قطعة من الجيش، وسميت سرية لأنها تسرى ليلاً خفية لئلا ينذر برجالها العدو فيحذروا (أحمد عطية الله: القاموس الاسلامي، ج٣، ص ٣٢٣).

(٦) في رجب ٢ هـ وفيها أنظر: طبقات ابن سعد (٢ / ١٠) وتاريخ الطبري (٢ / ٤١٠) ومغازي الواقدي (١ / ١٣ – ١٩)، وسيرة بن هشام (٢ / ٢٣٨ – ٢٣٩)، والبداية والنهاية لابن كثير (٣ / ٢٤٨).

(٧) محمد الغزالي: كيف نفهم الإسلام. دار الدعوة، الاسكندرية، ط١، ١٤١٢/١٩٩١ هـ، ص ١٧.

وصادروا دورهم وأموالهم في مكة المكرمة، ثم لم يكتفوا بذلك حتى أتوا إلى القبائل العربية المحيطة بالمدينة المنورة وأرشوهم ليمنعوا قوافل رسول الله ﷺ من المرور في أراضيهم، أي أنهم ضربوا حصاراً اقتصادياً حول المدينة المنورة مما هدد المسلمين بالموت جوعاً ومن الواضح أن الحصار الاقتصادي الدفاعي من الوسائل المشروعة المستخدمة في الحروب، فالمسلمون أرادوا بهذه السرية وبما تلاها (كغزوة بدر وما أشبه)، ضرب الحصار الاقتصادي حول أهل مكة المحاربين للرسول ﷺ من باب المعاملة بالمثل.

وكذلك كانت بعض غزوات الرسول ﷺ وسراياه بسبب **نقض العهد** من قبل الطرف الآخر، كما فعله يهود **بني قينقاع** في المدينة عندما أظهروا الحسد[١] والعداوة للمسلمين بعد انتصارهم على كفار مكة في بدر[٢] وقد تناقلت مصادر السيرة النبوية الصحيحة أن بعض سفهائهم اعتدوا على امرأة مسلمة[٣]، واحتالوا على كشف عورتها حينما كانت تقضي بعض حاجاتها في السوق، فاستغاثت بالمسلمين، فوثب رجل منهم على يهودي فقتله، واجتمعت اليهود على المسلم فقتلوه، ولهذا لم يجد النبي ﷺ بُداً من غزوهم[٤] بعد أن نقضوا العهد بهذا الاعتداء الشنيع على امرأة مؤمنة. فحاصرهم المسلمون خمسة عشر يوماً حتى نزلوا على حكم الله ورسوله، وهو الجلاء[٥].

---

(١) الحسد: أحد ثمار الحقد ومعناه في اللّغة: تمنّي الحاسد أن تزول إليه نعمة المحسود، أو أن يُسْلَبَها. وهذا معناه في الاصطلاح ، ويقول ابن جزيّ: معناه تألّم القلب بنعمة الله تعالى على عباده وتمنّي زوالها عن المنعم عليه. فإن تمنّى مثلها لنفسه ولم يتمنّ زوالها عن غيره فذلك غبطة جائزة.

(٢) بدر: مكان بين مكة والمدينة وبه ماء مشهور باسم بئر بدر والمكان خلده انتصار المسلمين فيه على قريش، ويقال بدر اسم بئر لرجل اسمه بدر (ياقوت، معجم البلدان (١ / ٣٥٧).

(٣) للمزيد أنظر، سيرة ابن هشام (٢ / ٤٧)، وتاريخ الطبري (٢ / ٤٨٠)، وطبقات ابن سعد (٣ / ٦٧) والواقدي ١٧٧، والنويري (١٧ / ٦٧)، والسيرة الحلبية (٢ / ٢٧٢)، ابن عبد البر، الدرر (١٤١).

(٤) في شوال ٢هـ وفي غزوة بني قينقاع أنظر: فتح الباري شرح صحيح البخاري في كتاب المغازي ٣٣٢/٧.

(٥) أنظر: أحمد أبو زيد: السيرة النبوية، سلسلة تصحيح ما ينشر عن الإسلام والمسلمين من معلومات خاطئة، المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة.

الغضب لله رب العالمين

كانت غضبة رسول الله لله عز وجل فالغضب لله ليس في حقيقته إلا نتيجة شفقة على العاصي أو الكافر المستحق لذلك إذ أن المؤمن من شأنه أن يحب لجميع الناس ما يحبه لنفسه، وليس شيء أحب إلى نفس المؤمن من أن يخلصها من عذاب يوم القيامة ويضمن لها السعادة الأبدية ' فهو إذ يغضب على العصاة و الكافرين إنما يحمله على ذلك الغيرة عليهم والتأثر لما عرضوا أنفسهم له من الشقاء الأبدي وعقاب الله تعالى في الآخرة ' وأنت خبير أن هذا ليس من الحقد في شيء إلا إذا صح أن يكون غضب الأب على ابنه أو الأخ على أخيه من أجل مصلحته وسعادته حقداً.

ولا ينافى هذا مشروعية القسوة في معاملة الكافرين في كثير من الأحيان فكثيراً ما تكون القسوة هي الوسيلة الوحيدة للإصلاح و هي النتيجة التي لابد منها للشفقة و الرحمة كما قال الشاعر:

فقسا ليزدجروا ومن يك راحما فليقس أحياناً على من يرحم [1]

وأمِنَ الرسول ﷺ **بسقوط خيبر**[2] بأس اليهود وغدرهم وحتى يتم الأمن والسلام، ويسود الهدوء في المنطقة[3] فقد كان أهل خيبر هم الذين حزبوا الأحزاب ضد المسلمين، وأثاروا بني قريظة على الغدر والخيانة، ثم أخذوا في الاتصالات بالمنافقين ـ الطابور الخامس في المجتمع الإسلامي ـ وبغَطَفَان وأعراب البادية ـ الجناح الثالث من الأحزاب ـ وكانوا هم أنفسهم يتهيأون للقتال، فألقوا المسلمين بإجراءاتهم هذه في محن متوصلة، حتى وضعوا خطة لاغتيال النبي ﷺ، وإزاء ذلك اضطر المسلمون إلى بعوث متواصلة، وإلى الفتك برأس هؤلاء المتآمرين[4].

---

(١) البوطي: فقه السيرة النبوية. دار السلام، القاهرة، ٢٠٠٧ م / ١٤٢٨ هـ.

(٢) في المحرم من السنة السابعة للهجرة، وفيها أنظر: فتح الباري شرح صحيح البخاري ٤٦٣/٧ وما بعدها، وصحيح مسلم في الجهاد والسير باب غزوة خيبر، الواقدي: المغازي (٦ / ٣٨٩)، وتاريخ الطبري (٢ / ٢٩٨)، وابن الأثير: الكامل (٢ / ٢١٦).

(٣) صفي الرحمن المباركفوري: الرحيق، مرجع سابق، ص٣١٦ .

(٤) نفسه، ص٣١٦.

نشر الإسلام بسياسة السلام

(مكاتبات الملوك نموذجاً) [1]

من أهم ما يميز السياسة الخارجية الإسلامية، التي رسمها الرسول ﷺ، أنها تضع المعايير الأخلاقية على رأس اهتماماتها.

ومكاتبات الرسول ﷺ إلى الرؤساء والملوك كانت غرضها الدعوة إلى الإسلام، فلم يكن في أسلوب هذه الرسائل ما يدل على الحرب ولم تكن تميل إلى استخدام القوة[2].

كما توضح رؤية الرسول الكريم ﷺ في ضرورة نشر الإسلام بالحسنى وعدم إجبار الناس على الدخول فيه[3]، وكان خلقه ﷺ " يسروا ولا تعسروا وبشروا ولا تنفروا"[4].

وقصد النبي ﷺ بالدعوة عظماء الأمم وملوكها، وأمراءها لأنهم أصحاب السلطة التي تأبى العقائد الجديدة، وقد تبين بالتجربة بعد التجربة أن السلطة هي التي كانت تحول دون الدعوة المحمدية وليست أفكار مفكرين ولا مذاهب حكماء، لأن امتناع المقاومة من هؤلاء العظماء والملوك كانت تمنع العوائق التي تصد الدعوة الإسلامية فيمتنع القتال[5].

والملاحظ أن أغلب هذه الرسائل تبدأ بعبارة: **{أدعوك بدعاية الإسلام}**[6]،فكان شعار يوحي بأن صاحبه يميل إلى السلام كخيار أول بل وأفضل.

ولكونه ﷺ لم يكن بصدد الدعوة إلى الحرب، لم يرتب على فرض عدم الاستجابة إلاّ ثبوت الإثم.

وكان يدعوهم إلى الإسلام قبل القتال، ويخيرهم بين الإسلام أو الجزية أو القتال"[1].

---

(١) لمزيد من التفاصيل، انظر،ابن هشام: السيرة (٢ / ٦٠٧) وأحمد فؤاد سيد: تاريخ الدعوة الإسلامية، مكتبة الدعوة، القاهرة، ط٣، ١٩٩٩، حميد الله، مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة، القاهرة، ١٩٤١ / ١٣٦٠ هـ.

(٢) توماس أرنولد: الدعوة، مرجع سابق، ص ٥٤.

(٣) نريمان عبد الكريم: معاملة غير المسلمين في الدولة الإسلامية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، سلسلة تاريخ المصريين ، ١٩٩٦ م، ١٤١٧ هـ، ص ٢٣.

(٤) البخاري (٦٩، ٥٧٧٤)، مسلم (١٧٣٤) عن أنس بن مالك..

(٥) عباس محمود العقاد: عبقرية محمد (ﷺ)، مرجع سابق، ص ٢٧.

(٦) أنظر، نضرة النعيم (٣٤٤/١)، ومسلم شرح النووي، كتاب الجهاد، كتب النبي (١٠٧/١٢).

نجد ذلك واضحاً في رسالته إلى المقوقس[٢] (قيرس) ورسالته لهرقل[٣] قيصر الرّوم[٤]: «فإن توليت[٥] فعليك إثم الأريسيين[٦]».

وأيضاً نجد ذات العبارة في رسالته لكسرى: «فإن أبيت فعليك إثم المجوس».

أمّا بخصوص عبارة **«أَسْلِمْ تَسْلَمْ»** التي ضمنها الرسول ﷺ بعض مكاتبيه، فليس فيها ما يدعو إلى الحرب.

---

(١) وهي وصيته لمعاذ بن جبل حين بعثه الى اليمن وأوردها ابن هشام في سيرته، ج٤، ص ١٧٥.

(٢) هذه الرسالة كتبها أحد كُتَّابه- ﷺ- سنة ٦ هـ، واختار لحملها حاطبَ بن أبي بلتعة، وقد أخذ المقوقس الكتابَ بعد حوارٍ دار بينه وبين سيدنا حاطب، وحفظه في صندوق من العاج، وختم عليه، وأعطاه إلى جاريةٍ له، ثم دعا كاتبًا له يكتب بالعربية، فكتب إلى رسول الله كتابًا، وبعث إليه بجاريتين لهما مكانةٌ عند القبط وبكسوةٍ من النسيج القبطي وبغلة.ويُروَى أن فرنسيًّا يُدعى بأرشيمليه عثر على هذه الرسالة في كنيسة مدينة أخميم في صعيد مصر سنة ١٨٥٠م، وكانت ملصقةً على غلاف إنجيل قبطي قديم، ولما تبيَّن له أن هذه الرسالة تخص النبي محمد ﷺ قدَّمها إلى السلطان عبد المجيد العثماني الذي أمر بحفظها داخل إطار ذهبي وُضع بداخل صندوق من الذهب الخالص المزخرف بأروع الزخارف.

(٣) هرقل (٥٧٥ - ٦٤١) إمبراطور بيزنطي حكم من ٦١٠ م وحتى ٦٤١م، وهو من من عائلة أرمينية الأصل. ونشأ في أفريقيا الرومانية، وقد خسرت الإمبراطورية البيزنطية في عهده بلاد الشام ومصر وشمال أفريقيا بفتحها على أيدي العرب المسلمين [سعيد عاشور: أوروبا العصور الوسطى، مكتبة الأنجلو المصرية، ومحمود سعيد عمران: تاريخ أوروبا في العصور الوسطى، دار النهضة العربية].

(٤) روى الإمام البخاري نصَّ هذا الكتاب ضمن حديث طويل، وقد اختار النبي- ﷺ- لحمل هذا الكتاب الصحابي دحيةَ بنَ خليفةَ الكلبيَّ، وأمره أن يدفعَه إلى عظيم بصرى ليدفعَه إلى قيصر، ويُذكَر أن الشيخ زايد بن سلطان رحمه الله اشترى هذه الرسالةَ بمبلغ وصل إلى مليون جنيه إسترليني، وذلك سنة ١٩٧٥م بعد أن ثبت له صحة هذه الرسالة، وقد تمَّ اكتشافُها في حوزة أميرة عربية تُقيم في لندن.واشترك في عملية التحقيق من صحتها عددٌ كبيرٌ من العلماء والمسلمين والأوروبيين، كما استُعِين بالإمكانات المتاحة لدى المتحف البريطاني بلندن ومختبرات جامعة ليدز البريطانية، وقد استغرقت عمليةُ التحقيق من صحة الرسالة حوالي عامًا كاملاً.

(٥) متفق عليه البخاري (٧)، ومسلم (١٧٧٣).

(٦) نسبة الى أريوس وأتباعه وتسمى الاريوسية وقد حدثت في المسيحية خلافات مذهبية عميقة كان لها آثارها الخطيرة إن على مستوى تاريخ المسيحية.. واهمها خلاف حاد بين اثنين من رجال الكنيسة في الإسكندرية وهما (اريوس) و(اثناسيوس).. حول طبيعة السيد المسيح [للمزيد أنظر، رأفت عبد الحميد، الفكر المصري في العصر المسيحي، اسحق عبيد، تاريخ الدولة البيزنطية].

وقد وضحت هذه الأصول للدعوة[١] أيضا عندما كتب الرسول ﷺ إلى أساقفة نجران قال فيه: " أنى أدعوكم إلى عبادة الله من عبادة العباد وأدعوكم إلى ولاية الله من ولاية العباد فان أبيتم فالجزية فإن أبيتم آذنتكم بحرب والسلام كما أوضحت الوصايا السابقة للرسول ﷺ سياسة التسامح مع الضعفاء والذهى عن قتل النساء والشيوخ والذرية[٢].

ومن يتمعن في رسالة النبي ﷺ إلى حاكم آيلة[٣] النصراني يوحنا(يحنة بن رؤبة)، يلاحظ حرصه ﷺ على استتاب الأمن الدولي وأهمية حماية الملاحة البحرية. ففي هذه الرسالة أعطى النبي ﷺ العهد من جانب الله و رسوله إلى يوحنا ابن روبه» و أهالي آيلة أذهم و سفنهم و قوافلهم البحرية والبريّة في أمان الله و رسوله والذين يمرون من تلك المنطقة قادمين من الشام [٤].

فالرسالة النبوية تقدم السِّلم كخيار أولي أمّا القتال فيحتل المرتبة المتأخرة والأحاديث والأفعال النبوية الشريفة تعكس سماحة الإسلام وتنفي عنه صفة العنف والدموية وتبرهن على احترامه لحق الإنسان في الحياة الكريمة.

لقد أراد النبي ﷺ بمكاتبيه إلى الملوك والأباطرة أن لا يقفوا حجر عثرة في سبيل الدعوة وان لا يقوموا بأي عدوان مستقبلي على الدولة الإسلامية الفتية التي شكلها في المدينة.

مع الفرس والروم

وقد أحيط الإسلام بأعداء من الفرس والروم يريدون بالإسلام كل سوء وأخذ هؤلاء ينتهزون الفرص المواتية للانقضاض عليه واجتثاث جذوره وقتل الرسول ﷺ في عقر داره وإبادة المسلمين، وقد شرعوا في ذلك بالفعل.

وقد كان تحرش الروم بالمسلمين وارداً منذ أن بدأ النبي ﷺ في الاتصال بالقبائل العربية النصرانية فقام الروم باتصالات مريبة تهدف إلى تأليب الناس على الإسلام فاحتضنوا رجلاً حاقداً على الإسلام والمسلمين و هو " أبو عامر الراهب "

---

(١) ناريمان عبد الكريم: معاملة غير المسلمين، مرجع سابق، ص ٢٥.

(٢) أنظر، ابن الأثير، الكامل، ج٢، ص ١١٢، أبو يوسف، الخراج ص ٧١، البلاذري، ص ٧٠ أبو عبيد، الأموال ص ٢٧.

(٣) آيلة: مدينة على ساحل بحر القلزم (البحر الأحمر) وسُميت بآيلة بنت مدين بن ابراهيم عليه السلام (معجم البلدان: ج١، ص ٢٩٢) وهي المدينة المعروفة الآن باسم العقبة في شرقي الأردن (حاشية رقم ١، كتاب الأماكن، للحازمي، ج١، تحقيق: حمد الجاسر، ص ٣٣.

(٤) أنظر، عباس الذهبي: العلاقات الدولية للحكومة الاسلامية من وجهتي النظر الفقهية و السياسية.

الذي كتب إلى المنافقين والحاقدين على الدعوة بإيحاء من الإمبراطور أن يتخذوا لهم مكاناً توافيهم فيه كتب ورسل هذا الذي يُدعى بالراهب، ويحمل هذا المكان الطابع الإسلامي في ظاهره، فبنوا مسجداً بجوار قباء وما هدفهم إلا البغي، وسألوا الرسول الكريم وهو يتجهز لتبوك أن يُصلي في مسجدهم هذا نفاقاً ومكراً ولكن الله كشف سترهم لنبيه المختار وندد بما فعلوا[١].

وكان الروم قد ابتدأوا فاعتدوا على المؤمنين الذين دخلوا في الإسلام من أهل الشام، فكان ذلك فتنة في الدين، وإكراهاً عليه. وما كان محمد ﷺ ليسكت على ذلك، وقد جاء لدعوة دينية، وإنه إن كان لا يحمل الناس على اعتناق الإسلام كرهاً، لا يمكن أن يسكت عمن يحاولون أن يخرجوا أتباعه من دينهم كرهاً، إنه لا يريد أن يَعتْدى، ولا أن يُعتدى عليه، ولذلك اعتبر هذا العمل من جانب الرومان اعتداء على دينه وعليه، لأنه صاحب الدعوة فلا بد أن يزيل هذه الفتنة.

نقاتل معشراً ظلموا وعقوا ... وكانوا بالعداوة مرصدينا[٢]

غزوة مؤتة[٣]

وكان السبب المباشر للحرب معهم: أن رسول الله ﷺ بعث الحارث بن عمير بكتاب إلى عظيم بُصرى[٤] فعرض له شرحبيل بن عمرو الغساني؛ فقتله – ولم يُقتل لرسول الله ﷺ رسول غيره – وهذا يعتبر عملاً عدائياً في جميع الشرائع، ويدل على عدم حسن الجوار، وعلى تثبيت الشر من هؤلاء عمال الروم وصنائعهم وقد تعارفت الدول في وقتها أن الرسل بين الملوك لا يقتلون، كما دخل الإسلام بعض النصارى والعرب فعمد النصارى بقتل بعض من قد أسلم؛ فاشتد ذلك عليه وأعطى للرسول ﷺ الحق الشرعي والعرفي والقانوني في الدفاع فكانت غزوة مؤته الشهيرة، والتي استعمل عليهم زيد بن حارثة[٥]، وقال " إن أصيب زيد: فجعفر بن أبي طالب[١] على الناس، وإن أصيب جعفر: فعبدالله بن رواحة[٢] " فتجهزوا، وهم ثلاثة آلاف[٣].

---

(١) حسن حبشي: تاريخ العالم الإسلامي، ج١، مرجع سابق، ص ٤٩.

(٢) أنظر: ديوان كعب بن مالك الأنصاري: تحقيق: سامي العاني، مطبعة النهضة، بغداد.

(٣) ٨ هـ (٦٢٩ م) ومؤتة: قرية من قرى البلقاء، على مشارف الشام تسمى الآن بالكرك، وكانت تطبع بها السيوف وفيها أنظر: ياقوت: المعجم: ج٥، ص ٢١٩، فتح الباري شرح صحيح البخاري في كتاب المغازي ٧/ ٥١٠، وسيرة ابن هشام في موضوع غزوة مؤتة، والبداية والنهاية ٤/ ٢٤١.

(٤) بصرى: مدينة من أعمال دمشق، وهي قصبة كورة حوران (ياقوت: معجم البلدان: ج١، ص ٤٤١، لسترنج: بلدان الخلافة الشرقية: ص٧٢).

(٥) زيد بن حارثة (؟-٨ هـ) هو زيد بن حارثة بن شراحيل،أبو أسامة، الكلبي، مولى رسول الله ﷺ. صحابي، شهد المشاهد كلها وكان من الرماة المذكورين وآخي رسول الله ﷺ بينه وبين

وكان أخو هرقل [٤] قد قاد الجيش وعسكر في "مآب"[٥]، مما يؤكد ما توقعه الرسول منهم في تصميمهم على مناجزة الدولة الجديدة والقضاء عليها توجُّساً من قيام دولة عربية مستقلة داخل الجزيرة العربية تكون نذيراً بانتهاء استعمارهم لبلادهم واستعبادهم لعربها القاطنين على حدودها مما يلي الحجاز[٦]، وهكذا بدأت المعارك بين المسلمين والروم [٧]، وهي أول مواجهة بين المسلمين والنصارى بمؤتة من أرض الشام، واجتمع على أصحابه خلق كثير من الصحابة واستشهد الأمراء الثلاثة رضي الله عنهم وأخذ الراية خالد بن الوليد وعاد بالجنود إلى المدينة لما وجد جنود الروم أضعافاً مضاعفة لجنود المسلمين.

حمزة بين عبد المطلب.قال سالم بن عبد الله كنا ندعوه زيد بن محمد حتى نزلت آية: "ادعوهم لآبائهم"وهو من أقدم الصحابة إسلاما. وكان النبي ﷺ لا يبعثه في سرية إلا أمره عليها، وكان يحبه وقدمه، وجعل له الإمارة في غزوة مؤتة، فاستشهد فيها. روى عن النبي ﷺ.وعنه ابنه اسامة والبراء بن عاذب وابن عباس وغيرهم.ولهشام الكلبي كتاب " زيد بن حارثة" في أخباره. [الإصابة ٥٦٣/١،وتهذيب التهذيب ٤٠١/٣،والأعلام ٥٧/٣، جمهرة أنساب العرب، ص١٥].

(١) جعفر بن أبي طالب (؟-٨هـ) هو جعفر بن أبي طالب (عبد مناف) بن عبد المطلب بن هاشم، أبو عبد الله، صحابي هاشمي.من شجعانهم،يقال له: جعفر الطيار، وهو من السابقين الى الإسلام، أسلم قبل أن يدخل رسول الله ﷺ دار الأرقم ويدعو فيها، وهاجر الى الحبشة في الهجرة الثانية، وكان خطيب القوم أمام ملك الحبشة،فلم يزل هناك الى أن هاجر النبي ﷺ الى المدينة، ثم جعله النبي ﷺ أمير الجيش إلى مؤتة بعد زيد بن حارثة فاستشهد هناك ﷺ، روى عن النبي ﷺ.وعنه ابنه عبد الله، وعمرو بن العاص، وابن مسعود، وغيرهم.[الإصابة ٢٣٩/١، وأسد الغابة ٣٤١/١،والاستيعاب ٢٤٢/١، وطبقات ابن سعد ٣٤/٤، وتهذيب التهذيب ٩٨/٢،والأعلام ١١٨/٢].

(٢) عبد الله بن رواحة (؟ - ٨ هـ) هو عبد الله بن رواحة بن ثعلبة أبو محمد، الأنصاري الخزرجي، صحابي. أحد النقباء شهد العقبة، وبدراً، واحداً، والخندق، والحديبية، وعمرة القضاء، والمشاهد كلها إلا الفتح وما بعده، لأنه قتل يوم مؤتة شهيداً. واستخلفه النبي ﷺ على المدينة في إحدى غزواته. روي عنه من الصحابة ابن عباس، وأبو هريرة رضي الله عنهم. [الإصابة ٣٠٦/٢، والاستيعاب ٣/ ٨٩٨، والأعلام ٢١٧/٤].

(٣) محمد بن عبد الوهاب: مختصر سيرة الرسول، ط١، مكتبة السنة المحمدية، ١٩٥٦/ ١٣٧٦ هـ ص ١٤٣.

(٤) يُدعى (تذارق) .

(٥) قرب عمّان اليوم.

(٦) الحجاز: حجز بين نجد وتهامة، فيها مكة المكرمة، والمدينة المنورة، وجدة، والطائف، وخيبر، وفدك، وتبوك (ياقوت، معجم ٢ / ٢١٩).

(٧) مصطفى السباعي: السيرة النبوية، دروس وعبر، مرجع سابق، ص ٧٧.

ولابد أن سرية مؤتة قد أزعجت بيزنطة[١] (الروم) من تطورات الموقف على الجبهة الشامية وخطورته، فعملوا على درء الخطر الإسلامي ووأده قبل أن يستفحل أمره[٢].

والحرب مع الفرس سببها أن كسرى أبرويز[٣] مزق رسالة النبي ﷺ،التي يدعوه فيها إلى الإسلام، ثم أمر أميره على اليمن أن يرسل جنوداً للقبض على النبي ﷺ وترحيله إلى المدائن لقتله،، لكن الرسل الذين أتوا إلى المدينة المنورة عادوا بخفي حنين حيث رأوا التفاف المسلمين العظيم حول الرسول (ﷺ).

وأنى لكسرى وأمثاله من الطغاة أن يمكنهم الله – سبحانه وتعالى – من ذلك، والنبي ﷺ – وقد علم بالأمر – ما كان ليسكت حتى يرتكب كسرى هذا الإثم، بل إنه القوى العادل الحصيف، ولذلك كان لا بد أن يصرعه وجيشه قبل أن يصرعه هو[٤].

وبذلك تكون عمليات الهجوم جاءت في إطار " **استراتيجية دفاعية** " في حقيقة الأمر ولم تكن بدافع العدوان.

ففي حنين [٥] جاءت الأخبار بأن هوازن[٦] وثقيف[٧] قد جمعوا الجموع ليتوجهوا إلى مكة لنجدتها، وقد نزلوا حنيناً، فأرسل الرسول عبد الله بن حدود الأسلمي ليستعلم خبر القوم[١].

---

(١) بيزنطة (Byzantium): ويراد بها الامبراطورية الرومانية الشرقية وبيزنطة مدينة إغريقية قديمة كانت تقع علي مضيق البوسفور. وفي عام ٣٣٥م جعلها الإمبراطور قسطنطين عاصمة للإمبراطورية الرومانية الشرقية (الإمبراطورية البيزنطية) وأصبح يطلق عليها القسطنطينية نسبة الواحد و العشرون بعد المئة للإمبراطور قسطنطين مؤسس الإمبراطورية. و كان محمد الفاتح العثماني قد أسقطهاعام ١٤٥٣م وأطلق عليها (إسلام بول). ثم أطلق عليها العثمانيون الآستانة. وحاليا يطلق عليها إستانبول (الموسوعة الثقافية، مؤسسة دار الشعب، ١٩٧٢ م) .

(٢) عبد الله محمد الأمين: الاستشراق، مرجع سابق، ص ٢٣٥.

(٣) كسرى الثاني: أو خُسرو الثاني (٥٩٠ - ٦٢٨)، المعروف أيضاً بلقب ابرويز ومعناه (المظفر)، ملك الدولة الساسانية في بلاد فارس. كان ابن هرمز الرابع، وحفيد كسرى الأول (أنظر: موسوعة سليم حسن، مصر القديمة، و أحمد فخرى، دراسات فى تاريخ الشرق القديم، وعبد العزيز صالح، الشرق الأدنى القديم (مصر والعراق).

(٤) أبو زهرة: نظرية الحرب، مرجع سابق، ص ١٥.

(٥) في شوال ٨ هـ، وحنين وادي شرق الطائف، (ياقوت، معجم ٢ / ٣١٣) وفيها أنظر: فتح الباري شرح صحيح البخاري في كتاب المغازي ٢٧/٨، وصحيح مسلم في الجهاد والسير باب غزوة حنين ١٣/١٢، وسيرة ابن هشام في موضوع غزوة حنين، والبداية والنهاية ٤/ ٣٢١.

(٦) هوازن: بطن مُتسع من قيس عيلان من العدنانية، وهم بنو هوازن بن منصور بن عكرمة بن خفصة بن قيس عيلان بن مضر بن نزار بن عدنان (الجمهرة: ٢٦٥، الأغاني: ج١٠، ص ١٤٢).

(٧) ثقيف: هم بنو قسي منبه بن بكر بن هوازن بن منصور بن عكرمة بن خصفة بن قيس عيلان من العرب العدنانية، وغلب عليهم لقب أبيهم قسي، و هو ثقيف بمعنى: الحاذق فعرفوا به.

وتم الإعداد لغزوة تبوك بعد أن جند هرقل مائتي ألف مقاتل وأجلبت معهم لخم وجذام وغيرهم من مستنصرة العرب، وجاءت في مقدمتهم إلى البلقاء[٢] وتجمعوا لغزو المدينة المنورة، فأراد النبي ﷺ أن يغزوهم قبل أن يغزوه[٣]. فلما وصل النبي ﷺ وجنوده أرض الروم وجد أنهم قد انسحبوا وكان معهم مائة ألف من العرب المقيمين في بلاد الروم فصالح النبي العرب فقبل الصلح أهل بيلا وأذرع وتيما ومعان ودومة الجندل، ثم أسلم أمير معان[٤] فأعد هرقل جيشاً لتأديب معان فقتلوا أميرها وصلبوه أياماً لإرهاب من يفكر في الإسلام، فاستغاث هؤلاء العرب بالنبي ﷺ وطلبوا النصرة بالعهد المبرم معهم فأعد جيشاً لذلك بقيادة أسامة بن زيد، وبعد أن غادر الجيش المدينة مات النبي ﷺ، فأكمل الخليفة الأول هذه المهمة [٥].

وهكذا نجد أن ما ترويه السيرة، يثبت لنا مدى إخلاص وإيثار النبي للسلام، والجدير بالذكر أن الفتح الإسلامي للأراضي الفارسية والرومانية، تحريراً لشعوبها مما كانوا يُعانون منه من مظالم واستبداد وإرهاب، ونهضة بأحوالها السياسية، والاجتماعية، والاقتصادية[٦].

مما جعل تلك الشعوب تتلمس احترام المسلمين لحقوقهم وحرياتهم فدخلوا في دين الإسلام أفواجا وأصبحوا مادة الإسلام وجيشه لينشر الإسلام جناحيه على رقيعة واسعة من الأرض.

في ساحة المعركة

المعلم وآداب الحرب

كان ﷺ يقوم بشئون التعبئة وتدبير موارد الجيش، وتموينه، وبث الروح المعنوية في صفوف جنده، واختيار الأوقات المناسبة، والمواقع الملائمة، كما كان يعلم المقاتلين آداب الحرب، وأنها قتال المقاتلين دون المدنيين، ودون إسراف أو

(الأغاني: ج١٢، ص ٤، وصفة جزيرة العرب: ص ١٢٠: الجمهرة: ص ٢٦٦، معجم البلدان: ج٣، ص ٦٦٥، معجم ما استعجم: ج١، ص ٧٧).

(١) أنظر، الواقدي: المغازي (٣ / ٨٩٣)، ابن هشام، السيرة (٢ / ٤٤٠).

(٢) البلقاء: بين الشام ووادي القرى (ياقوت، معجم ١ / ٤٨٩).

(٣) انظر: الطبقات الكبرى لابن سعد (١٦٥/٢).

(٤) معان: مدينة بطرف بادية الشام، تلقاء الحجاز من نواحي البلقاء (ياقوت: المعجم: ج٥، ص ١٥٣.

(٥) سالم البهنساوي: الخلافة والخلفاء الراشدين،، دار المنار الإسلامية،الكويت، ١٩٩٩م / ١٤٢٠ هـ، ص ١٢٩-١٣٠.

(٦) علي حسني الخربوطلي: الحضارة، مرجع سابق، ص ٢١.

تمثيل؛ فلا يقتل شيخ ولا طفل ولا امرأة، ويُعلمهم آداب الانتصار فكان يطلب إليهم أن لا ينتهكوا الأعراض ولا ينتهبوا الأموال ولا يستبيحوا حرمات المعابد والمقدسات، وأهم ما علمهم كقائد أن الهزيمة في المعركة لا تعنى الهزيمة المطلقة فالحرب سجال وما أروع ما قال الله تعالى في ذلك: ﴿إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ﴾ (١)

وصايا الرحمة في زمن القتال

بالرحمة وحدها تُسيطر النفس على غرائزها الأولى، فلا مكان لمغنم، ولا موضع لفخر وكان رسول الله ﷺ خير مثال للرحمة المهداة.

في فتح مكة قال ﷺ: { **ألا لا يُجهَزنّ على جريح، ولا يُتبعنّ مدبر، ولا يُقتلنّ أسير، ومن أغلق عليه بابه فهو آمن**} (٢).

وكانت تصرفات الرسول [ﷺ] في [أعقاب فتح] مكة تدل على أنه نبي مرسل لا على أنه قائد مظفر. فقد أبدى رحمة وشفقة على مواطنيه برغم أنه أصبح في مركز قوي. ولكنه توّج نجاحه وانتصاره بالرحمة والعفو" (٣).

وفي وصية الرسول ﷺ لقادة الجيش في كافة الغزوات قال:

{ **انطلقوا باسم الله وعلى بركة رسوله لا تقتلوا شيخًا ولا طفلاً ولا صغيرًا ولا امرأة ولا تغلوا "أي لا تخونوا"، وأصلحوا وأحسنوا إن الله يحب المحسنين**}، **كما** نهى ﷺ عن المثله (٤) فقال: {**إياكم والمثله ولو بالكلب العقور**}، وقال أيضًا: {**لا تقتلوا ذرية ولا عسيفًا** (٥)**، ولا تقتلوا أصحاب الصوامع**} (٦).

وقد رأى الرسول ﷺ في إحدى الغزوات (غزوة حنين) امرأة مقتولة فغضب وقال: {**ما كان لهذه أن تُقاتِل**} (٧).

وعن ابن عمر رضي الله عنهما؛ قال: { وُجدت امرأة مقتولة في بعض مغازي

---

(١) سورة آل عمران: آية ١٤٠.
(٢) رواه ابن أبي شيبة والبيهقي.
(٣) واشنجتون إيرفنج: حياة محمد، ص ٧٢.
(٤) أي التمثيل بالجثث.
(٥) ويعني بالعسيف الأجير من العمال، كعمال الطرق والفلاحين والعمال المدنيين والعاملين في المستشفيات والمرافق العامة ما داموا بعيدين عن ميادين القتال.
(٦) مسند أحمد (١ / ٣٠٠).
(٧) رواه أحمد (٥٩٥٩).

رسول الله ﷺ، فنهى رسول الله ﷺ عن قتل النساء والصبيان} [1].

فأشار إلى علة القتل، وهي المقاتلَة.ولو كان الجهاد لأجل إرغام المشركين على الدخول في الإسلام لَمَا نهى خلفاؤه الراشدون عن قتل الرهبان إذا اعتزلوا الناس، ولم يعينوا على القتال بتدبير أو رأي.ويدل لذلك دلالة ظاهرة حديث بريدة بن حصيب: { إذا لقيت عدوك من المشركين فادعهم إلى ثلاث خصال، فأيتهنّ ما أجابوك فاقبل منهم، وكُفّ عنهم: ادعهم إلى الإسلام، فإن أجابوك فاقبل منهم وكف عنهم...فإن هم أبوا فسلهم الجزيةَ، فإن هم أجابوك فاقبل منهم وكف عنهم، فإن هم أبوا فاستعن بالله وقاتلهم.... [2]}

هذه الوصايا في **" آداب الحرب "** أسمى وأكمل وأبر وأرحم من كل ما يحتوي عليه تشريع البشر ولا يدانيها ما وصلت إليه قواعد القانون الدولي الحديث عامة والقانون الدولي الإنساني خاصة[3].

ثنائية التأليف والتأني

كان النبي ﷺ يسير على سياسية التأليف بين الناس ما أمكن التأليف، وكان ذلك حتى في القتال، فقد أمر جنوده وهو في القتال أن يحرصوا على التأليف والتأني بدل التقتيل والفتك، ويروى في ذلك أنه قال لجنده:

" تألفوا الناس، وتأنوا بهم، ولا تغيروا عليهم حتى تدعوهم فما على الأرض من أهل مدر ووبر إلا أن تأتوني بهم مسلمين أحب إلى من أن تأتوني بأبنائهم ونسائهم وتقتلوا رجالهم "[4].

هي إذن حرب رفيقة تتسم بالتأليف، وتتسم بالمحافظة حتى على الأعداء، وأحب إلى محمد ﷺ أن يأتوه بهم سالمين قد عمر الإيمان بالحق قلوبهم من أن يأتوا إليه بالنساء والذرية سبايا، فهي ليست حرباً وحشية، بل هي حرب نبوية[5].

عدم الإحراق بالنار

وقد أوصى الرسول ﷺ بعدم الإحراق بالنار فقال: {لا ينبغي أن يضرب بالنار إلا رب النار} [1]. وهي وصية لا يلتزم بها إلا أصحاب الخلق الرفيع.

---

(١) أخرجه البخاري في الجهاد والسير باب قتل النساء في الحرب ٢٦٢/٢ ٣٠١٥، انظر: جامع الأصول (٥٩٧/٢).

(٢) رواه مسلم (١٧٣١).

(٣) أنظر: السيد مصطفي أحمد أبوالخير، نظرية الحرب بين الشريعة الإسلامية والقانون الدولي المعاصر، بحث مقدم للهيئة العالمية للإعجاز العلمي في الكتاب والسنة، ٢٠٠٦م / ١٤٢٧ هـ.

(٤) أنظر، المتقي الهندي: كنز العمال، ٤٣٧/٤.

(٥) أبو زهرة: نظرية الحرب، مرجع سابق، ص ٣٤.

ومن وصايا رسول الله ﷺ للجيش الإسلامي في "غزوة مؤتة"[٢] تلمس طابع الرحمة الإنسانية في القتال، فهو لا يقتل من لا يُقاتل،، وقد التزم أصحابه من بعده والمسلمون في مختلف العصور بعد ذلك هذه الوصايا، فكانت حروبهم أرحم حروب عرفها التاريخ، وكانوا هم محاربون أدمث أخلاقاً، وأشد رحمة من غيرهم وهم مسالمون، والتاريخ قد سجل للمسلمين صفحات بيضاء في هذا الشأن، كما سجل لغيرهم صفحات سوداء، ولا يزال يسجلها حتى اليوم[٣].

وفي غزوة بدر قد تعجب إذ تعلم أن محمداً ﷺ على ما كان من تحريضه أصحابه، وما كان يرجو من استئصال عدو الله وعدوه؛ قد طلب إلى المسلمين منذ اللحظة الأولى من المعركة { **ألا يقتلوا نفرا من بنى هاشم**[٤] **وألا يقتلوا بعض رجال من سادات قريش**}، مع أنهم اشتركوا في قتال المسلمين، ومع أنهم كانوا سيقتلون من المسلمين من يستطيعون قتله، ولا تحسب أنه في ذلك أراد أن يحابى أهله أو أحداً ممن يمتون إليه بآصرة القربى، فنفس محمد ﷺ أسمى من أن تتأثر بمثل هذا، وإنما ذكر لبنى هاشم منعهم إياه مدى ثلاثة عشر عاماً من يوم بعثه إلى يوم هجرته، حتى كان عمه العباس[٥] معه ليلة بيعة العقبة، وذكر لغير بنى هاشم من قريش جميل من قاموا وهم على الكفر يطالبون بنقض الصحيفة، التي اضطرته بها قريش أن يلزم هو وأصحابه الشعب، بعد أن قطعت قريش بهم كل صلة وكل علاقة؛ فهذا المعروف الذي تقدم به هؤلاء وأولئك قد اعتبره محمد حسنةً يُجْزَى من قدمها بمثلها، بل يُجزى بعشر أمثالها، لذلك كان شفيعاً لهؤلاء عند المسلمين ساعة القتال، وإن أبى بعض

---

(١) أخرجه البخاري في الأدب المفرد (٣٨٢)، وأبو داود في الجهاد (٢٦٧٥)، وصححه الحاكم (٢٣٩/٤)، ووافقه الذهبي، وصححه الألباني في صحيح الترغيب (٢٢٦٨). وأخرجه أحمد (٤٠٤/١) من طريق عبد الرحمن بن عبد الله بن مسعود.

(٢) قرية من قرى البلقاء في حدود الشام، وقيل من مشارف الشام، وبها كانت تطبع السيوف واليها تنسب المشرفية من السيوف (ياقوت: معجم البلدان ٥ / ٢٢٠).

(٣) مصطفى السباعي: السيرة النبوية، دروس وعبر، مرجع سابق، ص ٧٥.

(٤) بنو هاشم بطن من قريش، من العدنانية، وهم بنو هاشم بن عبد مناف، وهو أبو عبد المطلب، وسمي هاشم لهشمه الثريد لقومه في شدة المحل (الجدب) وذلك أنه كان اليه الرفادة والسقاية بمكة [أنساب الأشراف (١ / ٥٩)، نهاية الأرب (٤٣٥)].

(٥) العباس بن عبد المطلب (٥١ ق هـ / ٣٢ هـ) هو العباس بن عبد المطلب بن هاشم. عم رسول الله ﷺ، وجد الخلفاء العباسين. كان في قريش سيداً مشهوراً بالرأي. وكانت إليه سقاية الحاج، من مأثر قريش، وأقرت له في الإسلام. قيل إنه أسلم قبل الهجرة. هاجر متأخراً. وشهد الفتح وحنيناً. وكان الخلفاء يجلونه. [الأعلام للزركلي ٣٥/٤؛ والإصابة؛ وأسد الغابة] .

هؤلاء القريشيين أن يستظلوا بهذا العفو على نحو ما فعل أبو البخترى أحد الذين قاموا في نقض الصحيفة فقد أبى وقُتل[١].

وهكذا تدلنا السيرة النبوية الشريفة على أن حرب الإسلام حين تجب لم تترك لهوى القادة والجنود يسيرون فيها كما يشاءون، بل ضبطها رسول الله ﷺ وأصحابه من بعده ـ بضوابط أخلاقية إنسانية رفيعة، تَقْصِرُ القتل على المقاتلة وحدهم، وتُجنب ويلاتَها الأبرياء، وتقلل الخسائر جهد الطاقة والإمكان[٢].

لا تمثلوا[٣]

إن عبقرية محمد ﷺ في قيادته لعبقرية ترضاها فنون الحرب، وترضاها المروءة وترضاها شريعة الله والناس، وترضاها الحضارة في أحدث عصورها ويرضاها المنصفون من الأصدقاء والأعداء[٤].

فقد نهي الرسول ﷺ عن التمثيل برجال العدو الذين قتلوا أو الذين استنفذت كافة قوتهم، فهم بين الحياة والموت فإيذاءهم وهم بهذه الحالة يعتبر انتقاماً تأباه الأخلاق الإسلامية. و في معركة بدر طلب ﷺ إلى المسلمين منذ اللحظة الأولى من المعركة ألا يقتلوا بني هاشم وألا يقتلوا بعض رجال من سادات قريش، ولا تحسب أنه في ذلك أراد أن يحابي أهله فنفس محمد ﷺ أسمى من أن تتأثر بمثل هذا، وإنما ذكر لبني هاشم منعهم إياه مدى ثلاثة عشر عاما من يوم بعثه إلى يوم هجرته فهذا المعروف قد اعتبره محمد حسنة يجزى من قدمها بمثلها[٥] حتى تعداه إلى مداواة جرحى العدو والسماح إلى أفرادهم بحمل جثث قتلاهم وجرحاهم.

وأخرج أبو داود[٦] عن ابن مسعود ﷺ قال:

---

(١) محمد حسين هيكل: حياة محمد، ج١، مرجع سابق ١٩٩٤، ص ٢٢١ .

(٢) محمد صالح محي الدين: معاملة الأسرى من واقع السيرة النبوية، ورقة عمل مقدمة ضمن ندوة السيرة النبوية: قراءة في جانب العلاقات الدَّولية، مركز بحوث القرآن الكريم والسُّنَّة النبوية، ط١، ٢٠٠٦ م، ١٤٢٧ هـ .

(٣) المثلة تعذيب المقتول بقطع أعضائه، وتشويه خلقه قبل أن يقتل أم بعده، وذلك مثل ان يجدع انفه او أذنه، أو يفقأ عينه، أو ما أشبه ذلك من أعضائه، أنظر: البيهقي: السنن الكبرى ج٩ ص٨٦.

(٤) عباس محمود العقاد: عبقرية محمد (ﷺ)، مرجع سابق، ص ٥٤.

(٥) محمد حسين هيكل: حياة محمد، ج١،، مرجع سابق، ص٢٢١.

(٦) ابو داود (٢٠٢ – ٢٧٥ هـ) هو سليمان بن الاشعث بن بشير أزدي من سجستان. كان من أئمة الحديث. رحل في طلبة. و اختار في كتابه (٤٨٠٠) حديث من نصف مليون حديث يرويها. معدود من كبار اصحاب الامام احمد. وروي عنه (المسائل). انتقل الي البصرة بعد تخريب الزنج لها، زلكي ينشر بها الحديث؛ وبها توفي.

{ **قال رسول الله ﷺ أعف الناس قتلة أهل الإيمان** } [1].

فحياة الإنسان مصونة لا يجوز التعرض لها بالترويع أو الضرب أو السجن أو الجلد[2] أو المثلة والتشويه.فعلى أساس احترام النفس الإنسانية كان الرسول ﷺ يربي أصحابه[3].

من مصنفاته أيضاً (المراسيل)؛ و(البعث). [طبقات الحنابلة لأبي يعلى ص١١٨؛ وطبقات ابن أبي يعلى ١٦٢/١؛ والأعلام للزركلي ١٨٢/٣].

(١) رواه أبو داود عن ابن مسعود في الجهاد، باب الذهي عن المثلة، برقم ٢٦٦٦ وابن ماجه في الديات، رقم ٢٦٨١ وقال الشيخ شاكر: إسناده صحيح.

(٢) عبد العزيز الخياط: حقوق الانسان والتمييز العنصري، دار السلام، ط١، ١٩٨٩ / ١٤١٠ هـ ص ٢٢.

(٣) محمد شديد: الجهاد، مرجع سابق، ص ١٢٢.

روى ابن إسحاق[١] بسنده عن سمرة بن جُنْدب[٢] قال: {ما قام رسول الله ﷺ في مقام قط ففارقه، حتى يأمرنا بالصدقة وينهانا عن المثلة} [٣].

وقال ﷺ: { **إياكم والمثلة ولو بالكلب العقور**} [٤].

وكان في الأسرى (أسرى بدر) سهيل بن عمرو، وكان خطيباً مصقَعاً، فقال عمر: يا رسول الله، دعني انزع ثنيتى سهيل بن عمرو ليَدْلَعْ لسَانُه، فلا يقوم خطيباً عليك في موطن أبداً، بيد أن رسول الله ﷺ رفض هذا الطلب، احترازاً عن المُثْلَةِ، وعن بطش الله يوم القيامة[٥].

---

(١) ابن إسحاق هو محمد بن إسحاق توفي سنة ٧٦٨ يعتبر أول مؤرخ عربي كتب سيرة رسول الإسلام محمد بن عبد الله وأطلق تسمية "سيرة رسول الله" على كتابه. قضى ابن إسحاق معظم حياته في المدينة وبدأ بجمع الروايات المختلفة من مختلف المصادر الشفهية التي كانت متوفرة آنذاك ولم يكن اهتمامه الرئيسي منصبا على تدقيق صحة الروايات وإنما كان غرضه جمع كل ما يمكن جمعه من معلومات عن الرسول. في عام ٧٣٣ بدأ بالتنقل من المدينة إلى الإسكندرية ثم إلى الكوفة و الحيرة ليستقر في بغداد حيث وفر له الخليفة العباسي أبو جعفر المنصور كل الدعم الممكن لأن يكتب عن تاريخ الرسول محمد ﷺ.

(٢) سمرة بن جُنْدب (؟ -٦٠ هـ) هو سمرة بن جُنْدب بن هلال بن جريح الفزاري. صحابي، من الشجعان القادة. نشأ في المدينة ونزل البصرة. فكان زياد يستخلفه عليها إذا سار إلى الكوفة. روى عن النبي ﷺ وعن أبي عبيدة. وعنه ابناه سليمان وسعد، وعبد الله بن بريدة وغيرهم. [الإصابة ٢/٧٨، وتهذيب التهذيب ٤/٢٣٦، والأعلام ٣//٢٠٣].

(٣) انظر: ابن هشام: السيرة النبوية (٣/١٠٧).

(٤) المعجم الكبير ج١/ ١٠٠حدبث رقم ١٦٨.

(٥) صفي الرحمن المباركفوري: الرحيق، مرجع سابق، ص٢١١.

وأخرج الشيخان عن أبي هريرة ﷺ قال:
قال رسول الله: { إذا قاتل أحدكم فليجتنب الوجه } [1]؛ فالوجه معروف أنه أشرف ما في الإنسان وصيانة لكرامته.
وكان ﷺ ينهى في مغازيه عن النهبة، ويقول {من انتهب نهبة، [2]، فليس منا } [3]، وقال: { إنّ النهبة لا تحلّ }[4].

لا تغدروا

وهنالك أساس أخلاقي آخر أشار إليه الرسول ﷺ في حديثه وهو عدم الغدر، وهو نظام يهدف إلى عدم الانقضاض على العدو قبل دعوته إلى الحرب، وإنذاره بادئ الأمر، وقد التزم ﷺ بذلك أثناء حروبه وبكافة تعهداته مع العدو فتراه في صلح الحديبية يلتزم بالمقررات المتفق عليها حتى بان خلاف ذلك من العدو لكافة تعهداته.
والرسول ﷺ يراعي العهود والمواثيق الموقَّعة مع الأعداء، وينهى عن نقضها أو الغدر بمن تم توقيعها معهم، إلاَّ إن ظهرت بوادر الخيانة فعندئذٍ تُطرح لهم عهودهم على الفور وبوضوح.
فيقول { :ﷺ إن الغادر يُنصب له لواءٌ يوم القيامة فيُقال: هذه غدرة فلان بن فلان } [5].
وقال { ﷺ لكل غادرٍ لواء يوم القيامة يُعرف به } [6].
وقل { :ﷺ من أمّن رجلاً على دمه فقتله فأنا بريء من القاتل، وإن كان المقتول كافراً } [7].
وفي رواية: { مَن أمَّن رجلاً على دمه فقتله فإنه يحمل لواء غدر يوم القيامة } [8].
وقال رسول الله ﷺ: {من أمَّن رَجلاً على نفسه فقتله أُعطيَ لواءَ الغدر يوم القيامة} [9].

---

(١) مسلم (٢٦١٢)، وأحمد (٢ / ٢٤٤)، وابن حبان (٥٦٠٥)، و الآجري في الشريعة (٧٢١)، و البيهقي في الأسماء والصفات (٦٣٨)، وفي السنن (٨ / ٣٢٧)، وجامع الأصول (٦١٧/٢).
(٢) يُقال انتهب نهبة إذا اخذ مال قهرا، والنهب والنهبى والنهيبى: اخذ المال قهرا والجمع النهاب والنهوب، والنهب أيضا ضرب من الغارة والسلب، وانهب عرضه وماله أباحه لمن شاء.
(٣) مسند أحمد (٥ / ٦٢ و ٦٣).
(٤) ابن ماجه: السنن: كتاب الفتن ص ١٢٩٨ برقم ٣٩٣٧ و ٣٩٣٨ .
(٥) البخاري (٧٢/٤) ومسلم (١٣٦٠/٣).
(٦) أنظر: سنن البيهقي: (٢٣١/٩)
(٧) رواه النسائي وابن ماجة، وأحمد، السلسلة الصحيحة: ص ٤٤٠.
(٨) نفسه
(٩) أخرجه أحمد (٢٢٣/٥، ٢٢٤، ٤٣٦)، والنسائي في الكبرى (٢٢٥/٥)، وابن ماجه في الديات (٢٦٨٨)، وابن أبي عاصم في الآحاد والمثاني (٢٣٤٥)، والبزار (٢٣٠٦)، والطحاوي في شرح

وعن أبي هريرة ﷺ، عن النبي ﷺ قال: {قال الله: ثلاثة أنا خصمهم يوم القيامة، رجل أعطى بي ثم غدر} [١].

فكان بذلك أوفى الناس بالعهود وأوصلهم لرحمه وأعظمهم شفقة ورحمة بالناس، وأحسن الناس عشرة وأوفاهم مودة، ولم يكن فاحشاً ولا متفحشاً.

إنها حرب الرحمة، التي غايتها الإصلاح، ودفع الخطر، وبتر الأعضاء الفاسدة، ولو كان من هم الإسلام ورسوله الحرب للغلبة والتسلط والقهر، لما كان معها إلا التدمير لكل شئ والقتل لكل نفس.

منع قتل العسفاء[٢]

تكرر نهى النبي ﷺ عن قتل العسفاء، وذلك لأن هؤلاء لا يقاتلون، والحرب محصورة في دائرة من يقاتل، لا تخرج عنه، ولأن القتال ليس قتالاً للشعوب، إنما هو دفع لقوى الشر والفساد[٣]، وهي في الذين يحملون السيوف ويقاتلون، أو يدبرون ويرسمون الخطط،ولأن العمال الذين عكفوا على الزرع، أو العمل اليدوي هم بناة العمران، ودعائمه، والحرب الإسلامية ليست لإزالة العمران، إنما هي لدفع الفساد في الأرض، ولأن هؤلاء العمال هم الذين كانوا مستضعفين تحت سلطان الملوك الغاشمين، فهم فريسة الظلم، فلا يصح أن يكونوا وقود الحرب، يكتوون بنارها، وليسوا من جناتها[٤].

النهى عن قتل النساء والأطفال والشيوخ

وعند رسول الله ﷺ لا يكون القتال إلا مع من يقاتل بالفعل أو بالرأي، أي أنه لا ينبغي ألا يتجاوز الميدان، وأن الأعداء غير المحاربين الذين لا يشتركون في قتال ولا يقدرون على ذلك يستثنون من الأعمال الحربية. فيقول:

{لا تقتلوا شيخاً فانياً ولا طفلاً صغيراً ولا إمرأة } [٥].

المشكل (٧٧/١) وقال البوصيري في الزوائد (١٣٦/٣): "إسناده صحيح، رجاله ثقات"، وهو مخرج في السلسلة الصحيحة (٤٤٠).

(١) أخرجه البخاري في البيوع، باب: إثم من باع حر (٢٢٢٧)..

(٢) العسفاء: هم العمال الذين لا يحاربون وليس لهم في الحروب يد ولا عمل.

(٣) الفساد: خروج الشيء عن الاعتدال، قليلا كان الخروج عنه أو كثيرا، ويضاده الصلاح، ويستعمل ذلك في النفس، والبدن، والأشياء الخارجة عن الاستقامة.

(٤) أبو زهرة: نظرية الحرب، مرجع سابق، ص ٣٨.

(٥) أنظر: نيل الأوطار، ج ٧، ص ٢٨٠ نقلاً عن أبي داود، مطبعة مصطفى البابي الحلبي.

هذه الملامح تتضح من خلال أحاديث الرسول ﷺ؛ فأعلن محمد ﷺ بلسان الفعال، لا بلسان المقال فقط أن القتل في الحروب لا يتجاوز الميدان [١].

فلا تُقتل النساء إلا أن يقاتلن لنهي النبي ﷺ،عن قتلهن ـ فإن قاتلن قتلن يقول ابن دقيق العيد[٢] : " ولعل السر في هذا الحكم أن الأصل عدم إتلاف النفوس وإنما أبيح منه ما يقتضيه رفع المفسدة، ومن لا يقاتل ولا يتأهل للقتال في العادة ليس في إحداث الضرر كالمقاتلين فرجع إلى الأصل فيهم وهو المنع [٣] ".

وقد ذكر[٤] ابن قيم الجوزية[٥] أنه: لم يشرع رسول الله ﷺ قتل النساء والذرية في شيء من مغازيه البتة.والنبي نهى عن قتل النساء والذرية في مغازيه قبل إرسال معاذ إلى اليمن كما في الصحيحين من حديث ابن عمر رضي الله عنهما قال وجدت امرأة مقتولة في بعض مغازي رسول الله فأنكر رسول الله قتل النساء والصبيان. ورأى الناس في بعض غزواته مجتمعين على شيء فبعث رجلا فقال انظر علام اجتمع هؤلاء فجاء فقال امرأة قتيل فقال ما كانت هذه لتقاتل وكان على المقدمة خالد

---

(١) أبو زهرة: نظرية الحرب، مرجع سابق، ص ٩.

(٢) يسمى ابن دقيق العيد بمحمد بن عبد الله بن وهب، إلا أن اللقب الذي غلب عليه هو ابن دقيق العيد، وهو لقب جده الأعلى الذي كان ذا صيت بعيد، ومكانة مرموقة بين أهل الصعيد، وقد لقب كذلك لأن هذا الجد كان يضع على رأسه يوم العيد طيلساناً أبيضاً شديد البياض، فشبهه العامة من أبناء الصعيد لبياضه الشديد هذا بدقيق العيد.نشأ ابن دقيق العيد في مدينة قوص تحت رعاية والده مجد الدين القشيري الذي تخرج على يديه الآلاف من أبناء الصعيد،قال الأدفوي في طالعه السعيد: كان له قدرة على المطالعة،من مؤلفاته كتاب الإلمام في الأحكام في عشرين مجلداً.وشرح لكتاب التبريزي في الفقه. وفقه التبريزي في أصوله. توفي بالقاهرة ٧٠٢ هـ.

(٣) عارف خليل أبو عيد: العلاقات الخارجية في دولة الخلافة، دار الأرقم للنشر والتوزيع، ص ٩٣.

(٤) ابن قيم الجوزية: أحكام أهل الذمة، ج١، تحقيق صبحي الصالح، دار العلم للملايين، ط٣، ١٩٨٣ م / ١٤٠٤ هـ، ص ٤٣ - ٤٤.

(٥) ابن قيم الجوزية (٦٩١ – ٧٥١ هـ)هو محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد الزُّرَعي، شمس الدين، أبو عبد الله، الدمشقي، الحنبلي، المعروف بابن قيم الجوزية. كان أبوه قيماً على المدرسة الجوزية بدمشق التي بناها ولد الشيخ ابن الجوزي، فعرف بذلك. فقيه، أصولي، مجتهد، مفسر، محدث، متكلم، نحوي، مشارك في غير ذلك، مكثر من التصنيف . تتلمذ لشيخ الإسلام ابن تيمية، حتى كان لا يخرج عن شيء من أقواله، وهو الذي هذب كتبه، ونشر علمه، وسجن معه في قلعة دمشق. من تصانيفه: " إعلام الموقعين عن رب العالمين "، و " زاد المعاد في هدي خير العباد "، و " الطرق الحكمية في السياسة الشرعية "، و " شفاء العليل في مسائل القضاء القدر والحكمة والتعليل ". و " مفتاح السعادة "، و " التبيان في أقسام القرآن ".[شذرات الذهب ١٦٨/٦، والدرر الكامنة ٤٠٠/٣، وبدر الطالع ١٤٣/٢، والأعلام ٢٨٠/٦، ومعجم المؤلفين ١٠٦/٩].

بن الوليد فبعث رجلا فقال قل لخالد لا يقتلن امرأة ولا عسيفا. وفي لفظ لا تقتلوا ذرية ولا عسيفا"[١].

وفي سنن أبي داود عن أنس بن مالك ﷺ أن رسول الله قال:

{ انطلقوا باسم الله وبالله وعلى ملة رسول الله ولا تقتلوا شيخا فانيا ولا طفلا ولا صغيرا ولا امرأة ولا تغلوا وضموا غنائمكم وأصلحوا وأحسنوا إن الله يحب المحسنين}[٢].

بل النهي عن قتل النساء وقع يوم الخندق ويوم خيبر كما في المسند من حديث ابن كعب بن مالك[٣] عن عمه أن النبي حين بعث إلى ابن أبي الحقيق بخيبر نهى عن قتل النساء والصبيان.وفي المعجم للطبراني من حديث ابن عباس رضي الله عنهما أن النبي مر بامرأة يوم الخندق مقتولة فقال من قتل هذه فقال رجل أنا يا رسول الله قال ولم قال نازعتني سيفي فسكت.

وفي المعجم للطبراني[٤] من حديث ابن عباس رضي الله عنهما أن الذبي مر بامرأة يوم الخندق مقتولة فقال من قتل هذه فقال رجل أنا يا رسول الله قال ولم قال نازعتني سيفي فسكت.

وهذا كله كان قبل إرسال معاذ إلى اليمن. فالصواب أن ذكر الحالمة في الحديث غير محفوظ والله أعلم[١].

---

(١) المستدرك، ١٣٣/٢، برقم (٣٥٦٥)، والمعجم الكبير، ٧٢/٥، برقم (٤٦١٧).

(٢) أنظر: نيل الأوطار، ج ٧، ص ٢٨٠ نقلاً عن أبي داود، مطبعة مصطفى البابي الحلبي.

(٣) كعب بن مالك (توفي بالشام في خلافة معاوية وقيل أيام قتل علي بن ابي طالب) هو كعب بن مالك بن أبي كعب ابو عبد الله (أو: أبو عبد الرحمن) الانصاري الخزجي السلمي (بفتحتين) بايع الذبي صلي الله عليه وسلم ليلة العقبة. غزا مع الذبي صلي الله علية وسلم الغزوات، وتخلف عن غزوة تبوك لشدة الحر، فهو أحد الثلاثة الذين تيب عليهم حيث نزل فيهم (لقد تاب الله علي الذبي الي قوله: وعلي الثلاثة الذين خلفوا) روى عنه أولاده وابن عباس وجابر وغيرهم [الاصابة في تمييز الصحابة ٣٠٢/٣؛ وأسد الغابة ٢٤٧/٤]

(٤) الطبراني (٢٦٠ ـ ٣٦٠ هـ) هو الإمام، الحافظ، الثقة، الرحال الجوال، محدث الإسلام، أبو القاسم، سليمان بن أحمد بن أيوب بن مطير اللخمي الشامي الطبراني، صاحب المعاجم الثلاثة.مولده بمدينة عكا في سنة ستين ومائتين ومن تصانيفه " المعجم الصغير " و" المعجم الكبير " وهو معجم أسماء الصحابة وتراجمهم وما رووه، لكن ليس فيه مسند أبي هريرة، ولا استوعب حديث الصحابة المكثرين، " والمعجم الأوسط " على مشايخه المكثرين، وغرائب ما عنده عن كل واحد، وقد عاش الطبراني مائة عام وعشرة أشهر. قال أبو نعيم الحافظ: توفي الطبراني لليلتين بقيتا من ذي القعدة سنة ستين وثلاث مائة بأصبهان. [الأعلام للزركلي، والنجوم الزاهرة ٥٩/٤، وتهذيب ابن عساكر ٢٤٠/٦].

حماية الضعفاء

لم يحرص الإسلام على حماية الضعفاء من الأضرار المادية فحسب، بل عمل على حمايتهم أيضا من التعرض لكل الم نفسي، فقد روي عن الرسول ﷺ حينما افتتح القموص[٢]، وقد أتى رسول الله ﷺ بعد انتهاء حصار المدينة بنصر المسلمين، بصفية بنت حيي بن اخطب، وبأخرى معها، فمضى بهما بلال[٣] إلى مركز القيادة مارا بميدان المعركة فجاء بهما على قتلى من قتلى يهود، فلما رأتهم التي مع صفية صاحت، وصكت وجهها وحثت التراب على رأسها، فلما رآها رسول الله ﷺ كره ما صنع بلال فقال: " أذهبت[٤] منك الرحمة، يا بلال تمر بجارية حديثة السن على قتلى رجالهما ؟ "[٥].

ويؤكد ﷺ على ضمان سلامة المدنيين من غير المقاتلين، حيث روى أبو داود عن رباح بن الربيع بن صيفي[٦] قال: كنا مع رسول الله ﷺ في غزوة، فرأى الناس مجتمعين على شيء فبعث رجلاً فقال: انظر علام اجتمع هؤلاء؟ فجاء فقال: امرأة قتيل، فقال: ما كانت هذه لتقاتل. وعلى المقدمة خالد بن الوليد، فقال لرجل من أصحابه، إلحق بخالد، فقال لخالد: لا يقتلن ذرية ولا عسيفاً ولا امرأة[٧].

وفي ذلك يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: " من لم يكن من أهل الممانعة والمقاتلة كالنساء والصبيان والرهب والشيخ الكبير والأعمى والذمي ونحوهم فلا يقتل عند جمهور العلماء، إلا أن يقاتل بقول أو بفعله، وإن كان بعضهم يرى إباحة قتل الجميع

---

(١) ابن قيم الجوزية: أحكام أهل الذمة، ج١، تحقيق صبحي الصالح، دار العلم للملايين، ط٣، ١٩٨٣ م / ١٤٠٤ هـ ص ٤٤.

(٢) حصن بن أبي الحقيق في موقعه خيبر.

(٣) بلال بن رباح، ويكنى أبا عبد الكريم، وهو مولى أبي بكر، واعتقه لله، وكان مؤذنا لرسول الله، كان حبشياً من مولدي السراة، شهد بدراً وكان من السابقين الى الاسلام وممن عذبوا فصبر على العذاب ((أسد الغابة (١ / ٢٤٣)، الجوهرة (٢ / ١٢٢) .

(٤) أُنزِعت.

(٥) سيرة ابن هشام: ج٢، ص٣٣٦، الواقدي: المغازي ج٢ ص، ٧٣ البداية والنهاية، ٤ / ١٩٧.

(٦) رباح بن الربيع بن صيفي بن رباح بن الحارث بن مخاشن بن معاوية بن شريف بن جروة بن أسيد بن عمرو بن تميم، أخو حنظلة بن الربيع الكاتب الأسيدي. وهو من أهل المدينة، نزل البصرة، روى عنه ابنه المرقع بن صيفي بن رباح، وهو الذي قال للنبي ﷺ : يا رسول الله، لليهود والنصارى يوم، فلو كان لنا يوم. فنزلت سورة الجمعة (أنظر، أسد الغابة، باب الراء).

(٧) سبق تخريجه.

لمجرد الكفر إلا النساء والصبيان لكونهم ما لا للمسلمين والأول هو الصواب، لأن القتال هو لمن يقاتلنا " [١].

أخلاقيات سير القتال

كما رأينا من خلال سيرته ﷺ والأحاديث الشريفة أن النبي ﷺ نهى عن قتل فئات معينة كالنساء والصبيان والأجراء والشيخ الفاني وأصحاب الصوامع.

وقد أوصى رسول الله ﷺ أصحابه بقوله: { أوصيكم بتقوى الله وبمن معكم من المسلمين خيرًا، اغزوا باسم الله، في سبيل الله من كفر بالله، لا تغدروا ولا تقتلوا وليدًا، ولا امرأة ولا كبيرًا فانيًا، ولا منعزلاً بصومعة، ولا تقربوا نخلا، ولا تقطعوا شجرًا، ولا تهدموا بناء، وإذا لقيتم عدوكم من المشركين فادعوهم إلى إحدى ثلاث: فإما الإسلام، وإما الجزية، وإما الحرب...} [٢].

واستناداً إلى سلوك الرسول ﷺ أثناء المعارك نجده ﷺ قائداً عظيماً وإنساناً رحيماً حيث نظم قواعد سير القتال والقيود والنواهي التي ترد على سير القتال ومن بعده سار صحابته على نهجه.

وقد وضع الرسول ﷺ بهذه التعاليم قيوداً على المقاتلين أثناء سير القتال.

وقد مر الرسول ﷺ بعد إحدى المعارك ليتفحص القتلى فرأى امرأة مقتولة فغضب وقال: { **ما كانت هذه لتقاتل، أدرك خالداً فقل له لا تقتلن عسيفاً ولا ذرية** } [٣].

ولقد بلغه قتل بعض الأطفال فوقف يصيح في جنده فقال:

{ ما بال أقوام جاوز بهم القتل حتى قتلوا الذرية، ألا لا تقتلوا الذرية، ألا لا تقتلوا الذرية، ألا لا تقتلوا الذرية}[٤].

ولا شك في أن النهي عن قتل الضعفاء، أو الذين لم يشاركوا في القتال، كالرهبان، والنساء، والشيوخ، والأطفال، أو الذين أجبروا على القتال، كالفلاحين، والأجراء (العمال) شيء تفرد به الإسلام في تاريخ الحروب في العالم، فما عهد قبل الإسلام ولا بعده حتى اليوم مثل هذا التشريع الفريد المليء بالرحمة والإنسانية، فلقد كان من المعهود والمسلم به عند جميع الشعوب أن الحروب تبيح للأمة المحاربة قتل جميع فئات الشعب من أعدائها المحاربين بلا استثناء[٥].

---

(١) ابن تيمية: السياسة الشرعية في إصلاح الراعي والرعية، ص ٦٢.
(٢) أخرجه مسلم في الجهاد والسير (١٧٣١).
(٣) انظر: البداية والنهاية (٣٣٦/٤)، أحمد شلبي: موسوعة التاريخ الإسلامي، ج١، مكتبة النهضة المصرية، ط١٥، ١٩٩٩ م /١٤٢٠ هـ، ص ٣٩٤.
(٤) أنظر، الهندي: كتر العمال، م٤ ، ص٢٣٥.
(٥) أنظر، مصطفى السباعي: السيرة النبوية، دروس وعبر، مرجع سابق، ص ٨٦.

ولا يجوز قتل غير المقاتلين: فقد منع رسول الله ﷺ قتل النساء والصبيان[١] كما لا يجوز قتل الأسرى أو الإجهاز على الجرحى. بل إن الإنفاق على الأسير ومساعدته مما يثاب عليه المسلم وذلك لضعفه وانقطاعه عن أهله وقومه وشده حاجته للمساعدة.

ومنع الرسول ﷺ قتل المنقطعون للعبادة من رجال الدين إذا لم يقاتلوا وكذلك الخدم وكبار السن[٢].

احترام الإنسانية

ولقد كان رسول الله ﷺ حريصاً على احترام الإنسانية حتى في أثناء الحرب حيث نهى ﷺ عن التمثيل بالقتلى: مثل تشويه الأجسام وقطع الرؤوس وكانﷺ ينهى عن القتل بالجوع أو العطش، ونهى عن تعذيب الجرحى، كما أنه ﷺ كان يأمر بدفن القتلى حتى لا تنالهم الذئاب أو سباع الأرض أو الطير.

تجنب الحصار قدر المستطاع

عندما نرجع إلى غزوات النبي ﷺ فلا نرى أنه حاصر محلة، إلا أن يكون الحصار هو الوسيلة الوحيدة العاجلة لمبادرة القوة التي عسى أن تخرج منها قبل استعدادها، أو قبل نجاحها في الغدر والوقيعة، كما حدث في حصار بنى قريظة وبنى قينقاع، فكان الحصار هنا كمبادرة الجيش بالهجوم في الميدان المختار بغير كبير اختلاف[٣].

{ **وإن أنت حاصرت أهل حصن أو مدينة، فأرادوك**[٤] **أن تستنزلهم على حكم الله فلا تستنزلهم على حكم الله ولكن أنزلهم على حكمك، فأنك لا تدرى أتصيب حكم الله فيهم أم لا... وستجدون رجالا في الصوامع معتزلين الناس فلا تتعرضوا لهم وستجدون آخرين على رءوسهم مفاحص فاقلعوها بالسيوف، ولا تقتلن امرأة ولا صغيرا ضرعا ولا كبيراً فانيا ولا تغرقن نخلا، ولا تقلعن شجرا، ولا تهدموا بيتا**}[٥]، كما تضمنت الوصية التي أوصى بها الرسول ﷺ أسامة بن زيد في حملته على أطراف الشام نفس الروح السمحة.

---

(١) مختصر صحيح مسلم للمنذري، ج٢، ص٦٠.
(٢) وردت احاديث عديده في ذلك في نيل الاوطار ج٧ ٢٤٦ – ٢٤٧.
(٣) عباس محمود العقاد: عبقرية محمد (ﷺ)، مرجع سابق، ص ٣٤.
(٤) فأرادوك: أي؛ طلبوا منك.
(٥) رواه مسلم ١٧٣١/٢ وأحمد ٣٥٨/٥.

عدم الإساءة إلى البيئة[١]

لم يكن الرسول ﷺ يحارب رغبه في التدمير أو إذلالا للناس أو تعذيبا لهم كما كانت تفعل الأمم الأخرى من تدمير مدنهم ومزارعهم وحيواناتهم يقتلون كل حي فيهم من طفل أو امرأة أو شيخ.

والحروب الإسلامية، حروب ترفض البغي والتخريب، ولا تسترسل في القتل والنهب فتترك من ورائها صورة ناطقة بالفساد والفوضى فهي خير ورحمة وأمن وسلام وحماية، وأنه يحرس الأحياء كل الأحياء، فلا يبغي حي على حي، ولا يستعلي مخلوق على مخلوق، ولا تبطش أمة بأمة، ولا تتكتل كتلة ضد أخرى ولا يستبد قوي بضعيف[٢].

منع التخريب

ولقد نهى كذلك رسول الله (ﷺ) عن قطع الشجر والدخل وعن حرقه، لأن الهدف من الحرب ليس التخريب، ولكن يجوز قطع الشجر وهدم البناء إذا اقتضت ظروف الحرب ذلك[٣].

فهو يحصر الحرب في ميادين القتال، ويُحرم التخريب والإتلاف، ولا يغفل أبداً أن هدفه مصلحة البشرية، مهما كانت قسوة المعارك وحرارة وحرارة القتال، وأنه رسالة خير ورحمة، لا سوط عذاب ونقمة[٤].

جاء النهي عن التخريب وقطع الشجر وقطع النخل صريحا في وصية الرسول الكريم ﷺ لأمراء سراياه فكان يقول: " ولاتحرقوا النخل ولاتغرقوه بالماء ولا تقطعوا شجرة مثمرة ولا تحرقوا زرعا لان لاتدرون لعلكم تحتاجون إليه ولا تعقروا[٥] من البهائم مما يؤكل لحمه إلا ما لابد لكم من أكله " [٦] وبعث ﷺ بعثا الى الشام فخرج معهم حتى بلغ ثنية الوداع ثم قال: " ولاتغرقن نخلا ولاتقطعن شجرا ولا تهدموا بيتا

---

(١) البيئة هي: الوسط أو المجال المكاني الذي يعيش فيه الإنسانبما يضم من ظاهرات طبيعية، وبشرية يتأثر بها ويؤثر فيها، أو إنه الإطار الذي يعيش فيه الإنسانويحصل منه على مقومات حياته من غذاء وكساء ودواء ومأوى، ويمارس فيه علاقاته مع أقرانه من بني البشر.

(٢) محمد الدسوقي: حماية الشريعة للبيئة في حال الحرب، مجلة الوعي الإسلامي، عدد رقم493 :، لسنة ٢٠٠٦ م / ١٤٢٧ هـ.

(٣) عكس ما يحدث في الحروب الحديثة من إتباع سياسة الأرض المحروقة، فتأمل !!.

(٤) محمد شديد: الجهاد، مرجع سابق، ص ١٣٨.

(٥) العقر: قطع قوائم الدابة.

(٦) الكليني الرازي: الفروع من الكافي، ج٥، ص٢٩.

(أو لاتهدموا بناء) [1].و عن علي ابن أبي طالب: أن رسول الله ﷺ نهى عن قطع الشجر المثمر أو حرقه - يعني في دار الحرب وغيرها - إلا أن يكون ذلك من صلاح للمسلمين[2].

وكتب ﷺ سجلا للسيد ابن الحارث بن كعب، ولأهل ملته، ولجميع من ينتحل دعوة النصرانية في شرق الأرض وغربها جاء فيه " ولا هدم بيت من بيوت بيعهم، ولا إدخال شيء من بنائهم في شيء من أبنية المساجد، ولا منازل المسلمين فمن فعل ذلك فقد نكث عهد الله، وخالف رسوله، وحال عن ذمة الله " [3].

وفي عهده ﷺ للنصارى ذكر (ولا يهدم بيت من بيوت كنائسهم و بيعهم، ولا يدخل شيء من مال كنائسهم في بناء مسجد ولا في منازل المسلمين. فمن فعل شيئا من ذلك فقد نكث عهد الله وخالف رسوله) [4].

وعن علي بن أبي طالب قال: كان النبي ﷺ إذا بعث جيش من المسلمين إلى المشركين قال:(ولا تغورن عينا ولا تعقرن شجرا إلا شجر يمنعكم قتالا أو يحجز بينكم وبين المشركين) [5].

الأمانة والأمان

الأمانة والأمان هما القمة الشامخة لمكارم الأخلاق، وهما متلازمان، لا ينفك أحدهما عن الآخر يقول ﷺ:

{**لا إيمان لمن لا أمانة له، ولا دين لمن لا عهد له**} [6].

تلك هى أخلاق النبوة، وتلك معاهداتها، ولكن يجب أن نشير هنا إلى أمر يقع في الحرب الإسلامية قد حث عليه الإسلام، وهو إعطاء الأمان لأي مقاتل في الميدان، فإنه إذا طلب الأمان أي محارب من جند الأعداء من أي مسلم وأعطاه المسلم الأمان حقن دمه، وصار لا يجوز لأي جندي أن يقتله وذلك لقول النبي ﷺ، المسلمون تتكافأ دماؤهم يسعى بذمتهم أدناهم ويجير عليهم أقصاهم و هم يد على من

---

(١) الواقدي: المغازي ج٢ ص٧٥٨. ابن عساكر: تاريخ مدينة دمشق م١ ج٧ ص٣٩١.
(٢) ابو حنيفة النعمان: دعائم الاسلام، ص٣٧١.
(٣) للمزيد، أنظر: الطبقات الكبرى (٢٦٦/١)، و تاريخ الطبري (٤٤٩/٤)، وانظر كتاب الأموال، ابن زنجويه (٤٤٩/٢)، ومكاتيب الرسول للشيخ علي الاحمدي الميانجي، دار الحديث.
(٤) محمد حميد الله الحيدر ابادي: مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة مطبعة لجنة التاليف والترجمة والنشر. القاهرة ط/٢ ١٣٧٦هـ / ١٩٥٦ م، ص١٢٤، ٣٧٤..
(٥) الهندي: كتر العمال.م٤ ص٣٠٣.
(٦) رواه أحمد ١٣٥/٣، ١٥٤، ٢١٠، ٢٥٠، وابن حبان ٣٦٠/١ رقم (١٩٤)، والبيهقي ٢٨٨/٦.

سواهم يرد مشدهم على مضعفهم ومتسرعهم على قاعدهم لا يقتل مؤمن بكافر ولا ذو عهد في عهده."[1].

وكانت إجازة هذا الأمان في ميدان القتال لمنع استمرار القتال جزئياً، كما يسعى الإسلام لمنعه كلياً[2]، وهذا الأمان يجوز لآحاد الجنود من الأعداء، كما يجوز للجماعات الكثيرة منهم، فيصح أن يعطى الأمان لجماعة، ولو كانوا في حصن قد اعتصموا به، ولهم أمانهم ما لم يعتدوا على المسلمين، ولم يخلوا بعهدهم فينقضوا بذلك حقهم في الأمان الذي أعطوه[3].

وإن هذا إن دل على شئ هو ينبئ بلا ريب عن رغبة الإسلام في منع القتال ما أمكن المنع، فهو لا يقاتل إلا من يحمل السيف مقاتلاً مهاجماً، وهو قتال للضرورة، فإن ألقى سيفه وطلب الأمان أعطيه، وكان ذلك عهداً له، ولا يعتبر بهذا الأمان أسير حرب، بل يعد ذمياً إن استمر في الديار الإسلامية، له ذمة المسلمين، فله ما لهم وعليه ما عليهم.

مبدأ مراعاة الأعراف الإنسانية

ومراعاة القيم والأعراف الإنسانية، من أصل في الشريعة الإسلامية، كما قال النبي لرسولي مسيلمة: {**لولا أن الرسل لا تقتل لقتلتكما**}[4]. وكان هذان الرسولان مسلمين ثم ارتدا وصارا من أصحاب مسيلمة الكذاب، ولم يقم عليهما النبي ﷺ، حد الردة، مراعاة للأعراف في عصره، وتطبيقا لسماحة الإسلام ونبيه الكريم .

وأخرج أبو داود[5] عن أبي يعلي قال غزونا مع عبد الرحمن ابن خالد بن الوليد فأتى بأربعة أعلاج من العدو فأمر بهم فقتلوا صبراً بالنبل فبلغ ذلك أبا أيوب

---

(١) ابن الجارود (٧٧١)، ابن خزيمة (٢٢٨٠)، ابن ماجه (٢٦٨٥)، أبو داود (٢٧٥١) عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده.

(٢) أنظر، أبو زهرة: نظرية الحرب في الاسلام، ص٤٠-٤١.

(٣) تأمل وقارن !!.

(٤) رواه ابو داود (٢٧٦١)، وصححه ابن حبان والكافي في فقه ابن حنبل (٣٣٣/٤).

(٥) أبو داود (٢٠٢ – ٢٧٥ هـ): هو سليمان بن الأشعث بن بشير أزدي من سجستان. كان من أئمة الحديث. رحل في طلبة. و اختار في كتابه (٤٨٠٠) حديث من نصف مليون حديث يرويها. معدود من كبار اصحاب الامام احمد. وروي عنه (المسائل). انتقل الي البصرة بعد تخريب الزنج لها، زلكي ينشر بها الحديث؛ وبها توفي. من مصنفاته أيضاً (المراسيل)؛ و(البعث). [طبقات الحنابلة لأبي يعلى ص١١٨؛ وطبقات ابن أبي يعلى ١٦٢/١؛ والأعلام للزركلي ١٨٢/٣]

.

الأنصاري[1] ﷺ فقال سمعت رسول الله ﷺ ينهى عن قتل الصبر فوالذي نفسي بيده لو كانت دجاجة ما صبرتها فبلغ ذلك عبد الرحمن فأعتق أربع رقاب[2].

لم يكن هذا من الفن الحربي فحسب، ولكنه كان من التربية العالية، وعملية تدريب بدني ونفسي في آن واحد[3].

القُدوَة العليَا - الشخصيّة القيَادِية العَسْكريّة المثلى

الشجاعة

أما الشجاعة والنجدة فكانتا من أبرز صفاته ﷺ؛ فقد روى الشيخان من حديث أنس بن مالك: " أن الرسول ﷺ كان أحسن الناس، وأجود الناس، وأشجع الناس " وكانت شجاعته تفوق شجاعة أشجع الرجال، فما خاف أعدائه لحظة واحدة، حتى ابان التآمر في مكة، فكان يغدو ويروح، نهاراً وليلاً، لا يخشى أحداً، ولا يهاب غدراً[4].

وفي الصحيحين واللفظ لمسلم من حديث حماد بن زيد، عن ثابت، عن أنس قال: كان رسول الله ﷺ أحسن الناس وكان أجود الناس، وكان أشجع الناس[5]

وقد حرص الرسول ﷺ على مباشرة القيادة بنفسه [6] وكان ﷺ في تقدمه الصفوف في كل معركة وخوضه غمارها معهم إلا فيما يشير به أصحابه، دليل على أن مكان القيادة لا يحتله إلا الشجاع المتثبت، وأن الجبناء خائري القوى لا يصلحون

---

(١) أبو ايوب الأنصاري (ت ٥٢ هـ) هو خالد بن زيد بن كليب بن ثعلبة، أبو أيوب الأنصاري. من بني النجار: صحابي، شهد العقبة وبدراً وأحداً والخندق وسائر المشاهد، وكان شجاعاً صابراً تقياً محبا للغزو والجهاد. روى عن النبي ﷺ وعن أبي بن كعب. وعنه البراء بن عازب وجابر بن سمرة وزيد بن خالد الجهيني وابن عباس وغيرهم. ولما غزا يزيد القسطنطينية في خلافة أبيه معاوية، صحبه أبو أيوب غازياً، فحضر الوقائع ومرض فأوصى أ، يوغل به في أرض العدو، فلما توفي دفن في أصل حصن القسطنطينية. له ١٥٥ حديثاً (الإصابة ٤٠٥/١، وتهذيب التهذيب ٩٠/٣، والأعلام ٣٣٦/٢).

(٢) انظر: جامع الأصول (٦١٨/٢)، والمسند (٤٢٢/٥)، وسنن سعيد بن منصور (٢٩٤/٢)، ومعجم الطبراني الكبير (١٩٠/٤)، وسنن البيهقي (٧١/٩).

(٣) مالك بن نبي: الظاهرة القرآنية، مرجع سابق، ص ١٤٥.

(٤) مولاي محمد علي: محمد رسول الله،، مرجع سابق، ص ٢٧٥.

(٥) ابن كثير: شمائل الرسول، مرجع سابق، ص ٦٦.

(٦) محمد جمال الدين محفوظ: تحليل نوعي وكمّي لغزوات النبي ﷺ مجلة الأمة، العدد ٦، جمادى الأولى ١٤٠١ هـ / ١٩٨٠ م .

لرئاسة الشعوب، ولا لقيادة الجيوش، ولا لزعامة حركات الإصلاح ودعوات الخير، فشجاعة القائد والداعية بفعله وعمله يفيد في جنوده وأنصاره في إثارة حماسهم واندفاعهم ما لا يفيده ألف خطاب حماسي يلقونه على الجماهير. ومن عادة الجنود والأنصار أن يستمدوا قوتهم من قوة قائدهم ورائدهم، فإذا جبن في مواقف اللقاء، وضعف في مواطن الشدة، أضر بالقضية التي يحمل لواءها ضرراً بالغا[1]. فالرجل الذي يجتنب القتال في غير ضرورة رجل شجاع غير هياب، شجاع.

وما تطرق إليه خوف قط لكثرة الأعداء، ولا تراجع قط خطوة حين فر من حوله الصناديد[2] الأشداء[3].

قال أبو إسحاق السبيعي، عن حارثة بن مضرب، عن علي بن أبي طالب، قال: لما كان يوم بدر اتقينا المشركين برسول الله ﷺ وكان أشد الناس بأساً[4].

وكان ﷺ قائداً عسكرياً محنكاً، يعد للمعركة، ويديرها، ويصرف أمورها، ويرعى أسر القتلى، وينظم شؤون الأسرى، ويرتب الصفوف، ويضرب من يخرج على الصف، وفي غزوة بدر وجد سواد بن غزية قد خرج على الصف فضربه على بطنه ليدخل الصف، فقال سواد: أوجعتني يا رسول الله ولا بد أن أقتص منك، فقال له النبي: أقتص يا سواد، قال: بل من بطنك عارياً، فكشف النبي عن بطنه فأهوى سواد على بطن النبي يقبله، فقال له النبي: ما حملك على ذلك يا سواد؟ قال: يا رسول الله، حضر من الأمر ما ترى فأردت أن يكون آخر عهدي بالدنيا أن يمس جلدي جلدك؛ فدعا له النبي بخير[5].

تفرق المسلمون في غزوة أُحد، ولم يتزعزع في هذه المحنة، فقتل منهم من قتل، وفر منهم من فرَّ، وتكاثر الكفار على رسول الله يريدون قتله، ولكنه ظل صامدًا كالجبل هو وبعض أصحابه، ووقف يقاتل بعزيمة لا تلين، وقلب لا يهتز، حتى انصرف المشركون من حوله.

عناية الله أغنت عن مضاعفة من الدروع وعن عال من الأطم

---

(١) مصطفى السباعي: السيرة النبوية، دروس وعبر، مرجع سابق، ص ٧٣.
(٢) الصناديد: جمع صنديد، وهو السيد الشجاع.
(٣) حسين محمد يوسف: من أخلاق الرسول ﷺ. مكتبة نور الهدى، القاهرة ١٩٩١ م / ١٤١٢ هـ، ص ١٠٠.
(٤) ابن كثير: شمائل، مصدر سابق، ص ٦٧.
(٥) أنظر: ابن قيم الجوزية، زاد المعاد في هدى خير العباد، مؤسسة الرسالة؛ بيروت، ط٧، ١٤٠٥هـ /١٩٨٤ م، ج٣، ص، ١٧٣.

وقد استطاع أن يحول هزيمة المسلمين في أحد إلى نصر سياسي وعسكري، ولو أن قائداً مكانه ﷺ لَنَدَبَ حظه، أو لحاكَمَ الرماةَ محاكمة عسكرية قاسية، ولكنه لم يفعل ذلك فهو خير البشر، خرج في اليوم التالي لغزوة أحد واشترط ألا يخرج معه إلا من شَهِد أُحُداً، فما كان من قريش إلا أن انسحبت، فحفظ ماء وجه المسلمين ورُدَّتْ إلى المسلمين كرامتهم.

ويضرب الرسول ﷺ المثل في الثبات يوم حنين عندما فَرَّ المسلمون من حوله لكنه ثبت في مكانه، وثبت معه نفر من المهاجرين والأنصار(١)، وكان (ينادى في المسلمين:

أنا النبي لا كذب أنا ابن عبد المطلب

فتجمع المسلمون حوله مرة ثانية، وثبتوا حتى جاءهم نصر الله.

ولولا ثباته في وقعة حنين، وقد ولت جمهرة الجيش وأوشك أن ينفرد وحده في وجه الرماة والطاعنين، لحقَّت الهزيمة على المسلمين.

ومشاركته في الوقعات الأخرى هي مشاركة القائد الذي لا يعفى نفسه وقد أعفته القيادة من مشاركة الجند عامة فيما يستهدفون له، فهي شجاعة لا تؤثر أن تتوارى حيث يتاح لها أن تتوارى، وعندها العذر المقبول بل العذر المحمود(٢)

وإذا كان القائد خبيراً بالحرب قديراً عليها غير هياب لمخاوفها، ثم اكتفى منها بالضروري الذي لا محيص عنه، فذلك هو الرسول ﷺ تأتيه الشهادة بالرسالة من طريق القيادة العسكرية وتأتي جميع صفاته الحسنى تبعاً لصفات الرسول(٣).

شجاعة الرسول ﷺ في غزوة حنين (٤)

وعن أبى الفضل العباس بن عبد المطلب ﷺ قال: شهدت مع رسول الله ﷺ يوم حُنين، فلزمتُ أنا وأبو سفيان ابن الحارث بن عبد المطلب رسول الله ﷺ، فلم نَفَارِقْهُ ورسول الله على بغلةٍ له بيضاء، فلما التقى المسلمون والمشركون ولى المسلمون مُدبرين، فطفق رسول الله ﷺ يركضُ بغلته قبل الكفار وأنا آخذُ بلجام بغلة رسول الله أكفها إرادة ألا تسرع، وأبو سفيان آخذ بركاب رسول الله ﷺ، فقال رسول الله ﷺ ": أي عباسُ، (يا عباس) نادِ أصحاب السَّمُرَةِ ".

قال العباس: وكان رجلاً صَيِّتاً، فقلتُ بأعلى صوتي: أين أصحاب السَّمُرةِ ؟ فوالله لكأن عطفتهم حين سمعوا صوتي عطفة البقر على أولادها(٥).

---

(١) أنظر: محمد أحمد الحوفي: البطولة والأبطال، مكتبة نهضة مصر، بدون، ص ٣٣.
(٢) نفسه، ص ٤٨.
(٣) نفسه، ص ٤٨.
(٤) الأبراشي: عظمة الرسول ، مرجع سابق، ص ٢٩٦.
(٥) نفسه، ص ٢٩٧.

فقالوا: يا لبيك، يا لبيك. فاقتتلُوا هم والكفارُ، والدعوة في الأنصار يقولون: يا معشر الأنصار، يا معشر الأنصار.

ثم قصُرت الدعوةُ على بنى الحارث بن الخزرج، فنظر رسول الله ﷺ، وهو على بَغلتهِ كالمُتطاول عليها إلى قتالهم، فقال: " هذا حين حمى الوطيسُ ". أى اشتدت الحرب.

ثم أخذ رسول الله ﷺ حصيات، فرمى بهن وجوه الكفار، ثم قال: " انهزموا ورَبَّ محمد ".

فذهبت أنظرُ فإذا القتال على هيئته فيما أرى. فوالله ما هو إلا أن رماهم بحصياته فما زلتُ أرى حَدهم كليلاً، وأمرهم مُدْبِراً "[1].

وقد قاد الرسول ﷺ أكثر الغزوات الإسلامية. فكان بذلك يدرب قادته تدريباً عمليا على المعارك والصمود فيها، وقد وصفه على بن أبي طالب[2] في ذلك المجال بقوله: " إنا كنا إذا اشتد البأس واحمرت الحدقة اتقينا برسول الله، فلا يكون أحد منا أدنى إلى القوم منه [3]، ووصفه عبد الله بن عمر بقوله: ما رأيت أشجع ولا أنجد ولا أجود ولا أرضى من رسول الله ﷺ [4].

الثبات والحزم

إن سيرة النبي ﷺ - سواء ما كتبه الأعداء والأصدقاء – لتتفق على الإعجاب بحزمه وثباته في اشد المواقف حرجاً، فما عرف اليأس أو القنوط أبدا، وكان أعداؤه يحفون به من كل جانب وقبائل العرب الثائرة تتربص به الفرص للقضاء عليه ولكن إيمانه بنصر قضية الحق أخيراً لم يتزعزع لحظة. وما تمكنت العواصف والاضطهاد والعُسر والضيق أن تُصرفه قيد أنمُلة عن عزمه. كان يبذل كل ما في وسعه، ثم

---

(١) رواه مسلم رقم (١٧٧٥).

(٢) علي كرم الله وجهه (٢٣ ق هـ – ٤٠هـ): هو علي بن أبي طالب، واسم أبي طالب : عبد مناف بن عبد المطلب. من بني هاشم، من قريش أمير المؤمنين. ورابع الخلاء الراشدين، وأحد العشرة المبشرين بالجنة. زوجة النبي صلي الله علية وسلم بنته فاطمة. ولي الخلافة بعد مقتل أمير المؤمنين عثمان، فلم يستقم له الأمر حتى قتل بالكوفة. كفرة الخوارج، وغلا فيه الشيعة حتى قدموه على الخلفاء الثلاثة، وبعضهم حتى فيه حتى رفعه إلى مقام الألوهية. ينسب إليه ((نهج البلاغة)) وهو مجموعة خطب وحكم، أظهر الشيعة في القرن الخامس الهجري ويشك في صحة نسبته إليه. [الأعلام للزركلي ١٠٨/٥؛ ومناهج السنة ٢/٣ وما بعدها؛ والرياض النضرة ١٥٣/٢ وما بعدها].

(٣) مستدرك الحاكم(١٥٥/٢).

(٤) أحمد شلبي: موسوعة التاريخ الإسلامي، ج١، مكتبة النهضة المصرية، ط١٥، ١٩٩٩ / ١٤٢٠ هـ، ص ٣٩١.

يتوكل على الله وما كان ليحزن أو يضطرب إذا ما دارت عليه الدوائر، ولم يعرف اليأس أبداً فإنه بعد موقعة أُحد بيوم واحد، كان منتصراً في الميدان، بل كان يجد في أثر العدو ويتعقبه. وعلى العموم كان على الرغم من جميع الصعاب، ومن الأهوال يعتقد اعتقاداً جازماً أن الله ناصره، وناصر دينه[١].

واستقبل النبي ﷺ غدر بني قريظة بالثبات والحزم واستخدام كل الوسائل التي من شأنها أن تقوي روح المؤمنين وتصدع جبهات المعتدين، فأرسل النبي ﷺ في الوقت نفسه (سلمة بن أسلم) في مائتي رجل، وزيد بن حارثة في ثلاثمائة رجل، يحرسون المدينة، ويظهرون التكبير ليرهبوا بني قريظة، وفي هذه الأثناء استعدت بنو قريظة للمشاركة مع الأحزاب، فأرسلت إلى جيوشها عشرين بعيرًا كانت محملة تمرًا، وشعيرًا، وتينًا لتمدهم بها وتقويهم على البقاء إلا أنها أصبحت غنيمة للمسلمين الذين استطاعوا مصادرتها وأتوا بها إلى النبي ﷺ [٢].

﴿ وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ ﴾[٣].

ضبط النفس الكامل والواعي

وكان الرسول ﷺ يقتصر في حروبه على أقل قدر ممكن ترتفع به الضرورة، ويلتزم بضبط النفس الكامل والواعي حتى في أحلك اللحظات وآخرها. ولهذا لم يستطع الباحثون إيصال القتلى في حروب النبيﷺ طيلة عشر سنين، والتي تُعد بعشرات الحروب والسرايا، لم يستطيعوا إيصالها إلى الألف قتيل. رغم أن هذه الحروب كانت تتجه نحو تهيئة الجو لبسط النفوذ الإسلامي على مختلف أرجاء الجزيرة العربية ويتعداها إلى غيرها مما حولها[٤].

مبدأ تأدية الواجب العملي في المعركة

ولم تعف القيادة محمدا ﷺ من واجب الجندية فقد اشترك في جميع المعارك الإسلامية الهامة لعهده، وهى ما يسمى في الاصطلاح التاريخي بالغزوات، فلم يدر المعارك بعيداً عن ميادينها وبواسطة النواب بل أدارها كلها في ميادينها ومن داخلها وكان يتخذ له عريشا يستظل به على مرأى منها يرقب تطوراتها ويطمئن على سيرها ويثير جنوده العزم والحماس ويبشرهم بالنصر، وليس أبعث إلى القوة والتضحية في نفوس الجند من وجود قائد المعركة بينهم يتعرض لما يتعرضون له

---

(١) مولاي محمد علي: محمد رسول الله،، مرجع سابق، ص ٢٧٦.
(٢) علي محمد الصلابي: السيرة، مرجع سابق، ص ٢٩٨.
(٣) سورة الأنفال: آية ٥٨.
(٤) منير الغضبان: المنهج الحركي للسيرة النبوية، مكتبة المنار، القسم الاول، ص ١٣٣.

ويحتمل ما يحتملونه، ولقد احتمل رسول الله ﷺ كما احتمل الجنود فحمل السلاح وقاتل فشج وجهه وكسرت سنه ودخلت حلقتان من المغفر في وجنتيه في غزوة أُحد، وشارك في حفر الخندق فحمل التراب على كتفه كما يحمل سائر المسلمين في غزوة الخندق، وروي عن أنس أن الأنصار والمهاجرين كانوا يرتجزون وهم يحفرون الخندق:

نحن الذين بايعوا محمداً على الإسلام ما بقينا أبدا

فيجيبهم ﷺ:

اللهم إنه لاخير إلا خير الآخرة، فبارك في الأنصار والمهاجرة[١]

فمحمد كان في طليعة رجاله حين تحتدم نار الحرب ويهاب شواظها من لا يهاب[٢]، وكان على بن أبي طالب ﷺ يقول: " كنا إذا حمى البأس اتقينا برسول الله ﷺ... فلا يكون أحد منا أدنى إلى القوم منه"[٣].

وهكذا كانت سائر المناسبات تتيح له أن يشجع صحابته ويعلمهم أيضاً[٤].

رفع الروح المعنوية

فكان ﷺ يسعى إلى رفع معنويات المجاهدين، يمنحهم أملا يقينيا بالنصر أو الجنة[٥]

وكان يعمل ﷺ على **رفع معنويات الجنود** وإدخال السرور عليهم ففي غزوة الأحزاب: اقترن حفر الخندق بصعوبات جمة، فقد كان الجو باردًا، والريح شديدة والحالة المعيشية صعبة، ولكن النبي ﷺ لم ينسَ في هذا الظرف أن هؤلاء الجند إنما هم بشر كغيرهم، لهم نفوس بحاجة إلى الراحة من عناء العمل، ولهذا نجد أن النبي ﷺ كان يرتجز بكلمات ابن رواحة وهو ينقل التراب[٦] :

تالله لولا الله ما اهتدينا ولا تصدقنا ولا صلينا

الكافرون قد بغوا علينا إذا أرادوا فتنة أبينا

---

(١) البخاري: (٥ / ٤٦)، ومسلم (٦ / ١٨٧).
(٢) عباس محمود العقاد: عبقرية محمد (ﷺ)، مرجع سابق، ص ٤٧.
(٣) مستدرك الحاكم(١٥٥/٢).
(٤) مالك بن نبي: الظاهرة القرآنية، مرجع سابق، ص ١٤٦.
(٥) علي محمد الصلابي: السيرة، مرجع سابق، ص ٥٨٥.
(٦) البخاري، كتاب المغازي، باب غزوة الخندق (٥٧/٥) رقم (٤١٠٦).

وثبـــت الأقـــدام إن لاقينـــا فـــأنزلن ســـكينة علينـــا[1]

ثم يمد صوته بآخرها[2].

(١) أنظر ديوان ابن رواحة، تحقيق وليد قصاب، دار العلوم، الرياض، ص ١٣٩ - ١٤٠.
(٢) أخرجه البخاري في المغازي، باب غزوة الخندق رقم (٤٠٩٩ – ٤١٠٠)، مسلم في صحيحه، الجهاد والسير، باب غزوة الأحزاب، حديث رقم (١٨٠٥)، الفتح الرباني (٢١ / ٧٧).

مشاركة النبي ﷺ أصحابه في الصعاب

وشارك النبي ﷺ أصحابه في الصعاب[١]، وكان يعيش المعركة بكل أبعادها، فيجند لها كل الطاقات، ويمدها بكل الخبرات، ويُقدم لها زاداً نفسياً، يحرق كل أسباب الهزيمة ويقضي على كل طرق الانتكاس[٢].

فعن ابن مسعود ﷺ قال: كنا يوم بدر كل ثلاثة على بعير، كان أبو لبابة وعلي بن أبي طالب زميلي رسول الله ﷺ قال: وكانت عقبة رسول الله، قال: فقالا: نحن نمشي عنك. فقال: «ما أنتما بأقوى مني، ولا أنا بأغنى عن الأجر منكما»[٣].

ومن الأمور التي ساهمت في تقوية وتماسك الجبهة الداخلية مشاركة النبي ﷺ جنده أعباء العمل، فقد شارك الرسول ﷺ الصحابة في العمل المضني، فأخذ يعمل بيده الشريفة، في حفر الخندق، فعن ابن إسحاق قال: سمعت البراء يحدث قال: لما كان يوم الأحزاب وخندق رسول الله ﷺ رأيته ينقل من تراب الخندق حتى وارى عني الغبار جلدة بطنه، وكان كثير الشعر[٤].

فعمل رسول الله ﷺ مع الصحابة بهمة عالية لا تعرف الكلل، وقسم الصحابة إلى مجموعات يتكون كل منها من عشرة أشخاص[٥]، فأعطى القدوة الحسنة لأصحابه حتى بذلوا ما في وسعهم لإنجاز حفر ذلك الخندق.

فالقائد في المعركة رمزها، والالتفاف حوله، والتعاون معه ثمرة من ثمار النصر[٦].

والجندي وهو يرى قائدة بجواره يقاتل معه كتفاً لكتف فإن ذلك يعتبر أقوى عوامل رفع الروح المعنوية للفداء، وأكثر وسائل إذكاء الروح القتالية في الجنود فقد كان ﷺ دائماً على قيادة جيشه، يتقدمهم مقاتلاً.. محارباً.. فعندما وجد المسلمون الرسول ﷺ عليه وسلم بينهم في حرب بدر.. تقدم منه سعد بن معاذ[٧] وقال: يا نبي

---

(١) علي محمد الصلابي: السيرة، مرجع سابق، ص ٧.
(٢) عبد العال سالم: من الدراسات الاسلامية. مؤسسة علي الصباح، الكويت، بدون، ص ٢٢.
(٣) العمري: السيرة النبوية الصحيحة، (٢ / ٣٥٥).
(٤) أنظر: البخاري، كتاب المغازي، باب غزوة الأحزاب، (٥٧/٥) رقم ٤١٠٦.
(٥) للمزيد أنظر: محمد عبد الستار عثمان: المدينة الإسلامية، سلسلة عالم المعرفة، عدد ١٢٨، سنة ١٩٨٨ / ١٤٠٩ هـ، ص ٥٩.
(٦) عبد العال سالم: من الدراسات الاسلامية. بمرجع سابق، ص ٢٢.
(٧) سعد بن معاذ (؟ - ٥ هـ) هو سعد بن معاذ بن النعمان بن امرئ القيس، أبو عمر، الأوسي، الأنصاري. صحابي من الأبطال ﷺ . من أهل المدينة، كانت له سيادة الأوس، وحمل لواءهم يوم بدر. وشهد أحداً، فكان ممن ثبت فيها. وكان من أطول الناس، وأعظمهم حيلة، ورُمِي بسهم يوم الخندق، فمات من أثر جرحه، وحزن عليه النبي ﷺ وفي الحديث: " اهتز عرش

الله نبني لك عريشاً من جريد تكون فيه، ونعد لك ركائبك ثم نلقي عدونا: فإن اعزنا الله وأظهرنا على عدونا كان ذلك ما أحببنا وان كانت الأخرى جلست على ركائبك فلحقت بمن وراءنا من قومنا ولو ظنوا انك تلقى حربا ما تخلفوا عنك يمنعك الله بهم ويناصحونك ويجاهدون معك).

وأقيمت العريش لسيدنا رسول الله ﷺ: لتكون كمركز قيادة أو غرفة عمليات: ولكن الرسول ﷺ سار إلى موضع المعركة. ودخل ميدانها وقاتل مع جنوده ومن عجب أنه ﷺ كان اقرب جنوده للعدو. فلقد قال على بن أبي طالب:

" لما أن كان يوم بدر وحضر البأس تقدمن رسول الله ﷺ فكان من اشد الناس بأسا وما كان منا أحدا اقرب إلى العدو منه " (١).

المشاركة في الآمال والآلام

وكان ﷺ يشارك الصحابة -رضي الله عنهم- في آلامهم وآمالهم، بل كان يستأثر بالمصاعب الجمة دونهم، فراح ﷺ يجأر الى الله تعالى بالدعاء يوم بدر ويقول:

" اللهم هذه قريش قد أقبلت بخيلائها وفخرها تحادك وتكذب رسولك. اللهم فنصرك الذي وعدتني.... وأقبل المسلمون أيضاً يستنصرون الله ويستغيثونه ويخلصون له في الضراعة(٢).

وفي غزوة الأحزاب نجد أنه ﷺ كان يعاني من ألم الجوع كغيره، بل أشد، حيث وصل به الأمر إلى أن يربط حجرًا على بطنه الشريف من شدة الجوع، ثم إنه ﷺ شاركهم في آمالهم فحين وجد ما يسد رمقه بعد هذا الجوع الذي استمر ثلاثًا، لم يستأثر بذلك دونهم.

وفي غزوة ذات الرقاع شارك الرسول الكريم أصحابه في الموقف وقام بتأدية صلاة الخوف جماعة مع أصحابه فاتجاب الله تعالى وعادت القبائل المعلنة للحرب دون قتال.

الاعتماد على القوة الإيمانية لا العددية

والنبي ﷺ كان عظيم الاعتماد على هذه القوة المعنوية التي هي في الحقيقة قوة الإيمان... وربما بلغت نسبة هذه القوة إلى الكثرة العددية كنسبة خمسة إلى واحد في بعض

الرحمن لموت سعد بن معاذ " [الإصابة ٣٨/٢، وأسد الغابة ٢٢١/٢، وتهذيب التهذيب ٤٨١/٣، والأعلام ٣٩/٣].

(١) ابن كثير: شمائل، مصدر سابق، ص ٦٧.

(٢) أنظر: سيرة ابن هشام (١ / ٢٠٥)، وزاد المعاد (٢ / ٨٧) .

المعارك، مع رجحان الفئة الكثيرة في السلاح والركاب إلى جانب رجحانهم في عدد الجنود[١].

الشورى[٢]

ومع أن النبي ﷺ أرجح الناس عقلاً وأفضلهم نضجاً وتفكيراً إلا أن ذلك لم يمنعه من مشاورة أصحابه وأمر أصحابه بالاستشارة من أهل الخبرة والدراية والفضل والمعرفة، فكان يرسم الخطط دون أن يستبد فيها برأيه[٣].

الرأي قبل شجاعة الشجعان هو أول وهي المحل الثاني

فإذا اجتمعا لنفس مرة بلغا من العلياء كل مكان

ولَرُبَّما طعَنَ الفتى أقرانَهُ بالرَأيِ قبلَ تَطاعُنِ الأقران[٤]

وعن أبي هريرة قال: ما رأيت أحدا قط كان أكثر مشورة لأصحابه من رسول الله ﷺ[٥].

وكان يريد من الأجيال اللاحقة أن تحذوا حذوه وتتبع خطاه لتشرك الآخر المخالف تحديداً عند صنع القرار وممارسته.

ويقول لويس ماسينيون " لم يستبد محمد [ﷺ] بالأمور دون أصحابه، فكان يشاورهم في كل الأمور "[٦].

---

(١) عباس محمود العقاد: عبقرية محمد (ﷺ)، مرجع سابق، ص ٣٣.

(٢) إن الشورى في فن السياسة وعملية تستجمع فيها طاقات العقول كلها لاستخلاص الرأي الصالح، ويتحمل فيها كل فرد مسؤولية القرار النهائي، ويقتنع فيها كل فرد بالنتيجة. فيندفع نحو المراد بقوة، وترتفع بها ملكات الفرد وروح الجماعة. ويبقى الإنسانفيها على صلة بمشاكل أمته وجماعته، ولذلك جعل الله أمر المسلمين شورى بين المسلمين، حتى يتحمل كل فرد من المسلمين المسؤولية كاملة ولا يبقى مسلم مهملاً.

(٣) أبو الوفا المراغي: من رياض السيرة الطاهرة، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، القاهرة ١٩٧٠ / ١٣٩٠ هـ، ص ٥٧.

(٤) الأبيات للمتنبي أنظر ديوانه، بيسان للنشر والتوزيع، ط ١، ١٩٩٦ م.

(٥) رواه أحمد والشافعي الإمام الشافعي: محمّد بن إدريس، كتاب الأم، باب المشاورة، ص ١٠٠.و رواه الترمذي في سننه، (ج ٤، ص ٢١٤).

(٦) لمزيد من التفاصيل أنظر للباحث، زيارة جديدة للاستشراق، مكتبة الأنجلو المصرية، ٢٠٠٦ م / ١٤٢٧ هـ.

وقد كانت غزوة بدر هي التجربة الأولى للنبي ﷺ في إدارة المعارك الكبيرة[١]، فلم يأنف أن يستمع فيها إلى مشورة الحباب بن المنذر[٢] حين اقترح عليه الانتقال إلى غير المكان الذي نزل فيه فقال الحباب إلى رسول الله ﷺ: أرأيت هذا المنزل أمنزلاً أنزلكه الله ليس لنا أن نتقدمه ولا نتأخر عنه أم هو الرأي والحرب والمكيدة ؟

قال: بل هو الرأي والحرب والمكيدة.

قال: يا رسول الله فإن هذا ليس بمنزل، فانهض بالناس حتى نأتي ماء من القوم فنعسكر فيه ثم نغوّر ما رواءه من الآبار ثم نبني عليه حوضاً فنملأه ماء ثم نقاتل القوم فنشر ولا يشربون. فقال رسول الله ﷺ: لقد أشرت بالرأي. ونفذ ﷺ ما أشار به [٣].

إنها القيادة التي لا تستكبر أن تنزل على رأي مسلم كائناً من كان، ما دام الرأي سليماً صحيحاً، والقيادة الصالحة هي التي تعمم الشورى حتى لا يبقى أحد عنده رأي إلا قاله، وخاصة فيما يكون فيه غرم.

وفيها كانت وقعة أُحد استشار رسول الله ﷺ أصحابه في الخروج إليهم. وكان رأيه أن لا يخرجوا. فإن دخلوها قاتلهم المسلمون على أفواه السكك، والنساء من فوق البيوت، ووافقه عبد الله بن أُبيّ – رأس المنافقين – على هذا الرأي. فبادر جماعة من فضلاء الصحابة – ممن فاته بدر – وأشاروا على رسول الله بالخروج. وألحوا عليه. فنهض ودخل بيته، ولبس لأمته، وخرج عليهم، فقالوا: اسْتكْر ؟ هنا رسول الله ﷺ على الخروج. ثم قالوا: إن أحببت أن تمكث بالمدينة فافعل، فقال " ما ينبغي لنبي إذا لبس لأمته[٤]: أن يضعها حتى يحكم الله بينه وبين عدوه " [٥].

وفي غزوة الخندق شرع الرسول ﷺ في اتخاذ الإجراءات الدفاعية اللازمة، ودعا إلى اجتماع عاجل حضره كبار قادة جيش المسلمين من المهاجرين والأنصار،

---

(١) عباس محمود العقاد: عبقرية محمد (ﷺ)، مرجع سابق، ص ٣٢.

(٢) هو أبو عمرو الحباب بن المنذر بن الجموح الأنصاري الخزرجي السَّلمي وتوفي الحباب بن المنذر في خلافة عمر بن الخطاب وليس له عقب– الإصابة ٣٠٢/١ رقم ١٥٥٢.

(٣) للمزيد، أنظر، سيرة ابن هشام (ج ٢ / ص ١٧٨).

(٤) لأمة: درع معدنية، وهي من عدة المحارب وسُميت لأمة لاحكامها وجودة حلقاتها (مجموعة المصطلحات العلمية والفنية التي أقرها المجمع، المجلد الرابع عشر، القاهرة، ١٩٧٢ م / ١٣٩٢ هـ، ص ١١٦، وابن هذيل الأندلسي: حلية الفرسان، نشر عبد الغني حسن، ص ٢٣٨).

(٥) أنظر، محمد بن عبد الوهاب: مختصر، مرجع سابق، ص ١١٩.

بحث فيه معهم هذا الموقف الخطير الناجم عن مساعي اليهود الخبيثة[١]. فأدلى سلمان الفارسي[٢] ﷺ برأيه الذي يتضمن حفر خندق كبير لصد عدوان الأحزاب، فأعجب النبي ﷺ بذلك، قال الواقدي[٣]: فقال سلمان: يا رسول الله، إنا إذا كنا بأرض فارس[٤] وتخوفنا الخيل، خندقنا علينا، فهل لك يا رسول الله أن تخندق؟ فأعجب رأي سليمان المسلمين) [٥] فقبول النبي مشورة سلمان عمل من أعمال القيادة الرشيدة، وسنة من سنن القواد الكبار.

---

(١) قام اليهود بارشاد جيش القريشيين الى الجهات التي يمكن أن يهاجموا المسلمين منها والجدير بالذكر أن الخندق لم يكن محيطاً بكل جوانب المدينة، وانما كان حول جوانبها الضعيفة والجوانب التي توقعوا أن يأتيهم الأعداء منها.

(٢) هو سلمان الفارسي، أبو عبد الله، ويقال له سلمان ابن الإسلام، أصله من فارس من قرية يقال لها جي وقد أسر وبيع بالمدينة، ثم أسلم وناصر النبي وحدث عنه، ومات بالمدائن في خلافة عثمان بن عفان "ﷺ "(الطبقات الكبرى ٤ / ٧٥)، الاستيعاب (٢ / ٦٣٤) و سير لأعلام البلاء (١ / ٥٠٥).

(٣) الواقدي (ت ٢٠٧ هـ / ٨٢٢ م): هو محمد بن عمر الواقدي، مؤرخ حجازي ، نشأ في المدينة المنورة، وكان تاجرا ثم فسدت تجارته، فرحل إلى العراق، ودخل في خدمة هارون الرشيد الذي جعله قاضيا في الجانب الشرقي من بغداد. وقيل انه كان يمتلك مكتبة ضخمة.وقد أخذ عن شيوخ العصر في المدينة فأخذ الحديث عن مالك بن أنس، والتاريخ عن أبى معشر السندى فضلاً عن أنه شغف بدراسة معارف عصره، وعنى بنسخ المخطوطات التي أتيح له الإطلاع عليها ولهذا عد الواقدى الرجل الثاني بعد ابن اسحق في اتساع علمه بالمغازي والسيرة والتاريخ (أنظر للباحث، من خزانة التراث، مكتبة الثقافة الدينية، ٢٠٠٧، ص ٢٦.

(٤) كانت حدود فارس قبيل الإسلام، ما بين نهر بلخ، الى أذربيجان وأرمينية، الى نهر الفرات، الى برية العرب، الى مكران وكابل وطخارستان (الحميري، الروض ٤٣٣، ياقوت، معجم ٤ / ٢٢٦).

(٥) انظر: مغازي الواقدي (٤٤٤/٢)، والطبقات الكبرى (٦٦/٢).

مشاورة النبي ﷺ لأصحابه[1]

ولما بلغ النبيَّ ﷺ نجاةُ القافلة وإصرار زعماء مكة على قتال الذبي ﷺ استشار رسول الله ﷺ أصحابه في الأمر[2] وأبدى بعض الصحابة عدم ارتياحهم لمسألة المواجهة الحربية مع قريش، حيث إنهم لم يتوقعوا المواجهة ولم يستعدوا لها، وحاولوا إقناع الرسول ﷺ بوجهة نظرهم، وقد أجمع قادة المهاجرين على تأييد فكرة التقدم لملاقاة العدو وكان للمقداد بن الأسود[3] موقفٌ متميزٌ، فقد قال عبد الله بن مسعود ﷺ: شهدت من المقداد بن الأسود مشهدًا لأن أكون صاحبه أحب إلي مما عُدلَ به: أتى النبي ﷺ وهو يدعو على المشركين فقال: لا نقول كما قال قوم موسى: ﴿قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّا لَن نَّدۡخُلَهَآ أَبَدٗا مَّا دَامُواْ فِيهَا فَٱذۡهَبۡ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ﴾[4]، ولكن نقاتل عن يمينك وعن شمالك، وبين يديك وخلفك. فرأيت الرسول ﷺ أشرق وجهه وسرَّه[5]، وفي رواية: [6] قال المقداد: يا رسول الله، لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى: (فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ) ولكن امضِ ونحن معك، فكأنه سرَّى عن رسول الله ﷺ. وبعد ذلك عاد رسول الله ﷺ فقال: «أشيروا عليَّ أيها الناس [7].

إن حرص النبي ﷺ على استشارة أصحابه في الغزوات يدل على تأكيد أهمية الشورى في الحروب بالذات؛ ذلك لأن الحروب تقرر مصير الأمم، فإما إلى العلياء، وإما تحت الغبراء[8].

بعد أن جمع ﷺ معلومات دقيقة عن قوات قريش سار مسرعًا ومعه أصحابه إلى بدر ليسبقوا المشركين إلى ماء بدر، وليَحُولوا بينهم وبين الاستيلاء عليه، فنزل

---

(١) علي محمد الصلابي: السيرة، مرجع سابق، ص ٩.
(٢) صحيح البخاري، رقم (٣٩٥٢).
(٣) المقداد (٣٧ ق هـ - ٣٣ هـ) هو المقداد بن عمرو بن ثعلبة بن مالك بن ربيعة، أبو الأسود ويقال غير ذلك، المعروف بالمقداد بن الأسود الكندي. صحابي، أسلم قديماً، هاجر الهجرتين وشهد بدراً والمشاهد بعدها، هو أحد السبعة الذين كانوا أول من أظهر الإسلام،آخى الذبي صلي الله علية وسلم بينه وبيت عبد الله بن رواحه. روى عنه علي وأنس وعبيد الله بن عدي وآخرون. [تهذيب التهذيب ٢٨٥/١٠؛ والجرح والتعديل القسم الأول من المجلد ٤٢٦/٤؛ والإصابة ٤٥٤/٣؛ والأعلام للزركلي ٢٠٨/٨].
(٤) المائدة،: ٢٤.
(٥) البخاري: كتاب المغازي (٧ / ٢٨٧).
(٦) البخاري: كتاب التفسير (٨ / ٢٧٣).
(٧) مسلم: (٣ / ١٤٠٤) رقم (١٧٧٩).
(٨) أنظر: علي محمد الصلابي: السيرة، مرجع سابق، ص ١٠.

عند أدنى ماء من مياه بدر، وهنا قام الحباب بن المنذر، وقال: يا رسول الله: أرأيت هذا المنزل، أمنزلاً أنزلكه الله ليس لنا أن نتقدمه ولا نتأخر عنه؟ أم هو الرأي والحرب والمكيدة؟ قال: «بل هو الرأي والحرب والمكيدة» قال: يا رسول الله فإن هذا ليس بمنزل، فانهض يا رسول الله بالناس حتى تأتي أدنى ماء من القوم-أي جيش المشركين- فننزله ونغور –نخرب- ما وراءه من الآبار ثم نبني عليه حوضًا فنملؤه ماء ثم نقاتل القوم، فنشرب ولا يشربون، فأخذ النبي ﷺ برأيه ونهض بالجيش حتى أقرب ماء من العدو فنزل عليه، ثم صنعوا الحياض وغوروا ما عداها من الآبار[١].

وهذا يصور مثلاً من حياة الرسول ﷺ مع أصحابه حيث كان أي فرد من أفراد ذلك المجتمع يدلي برأيه حتى في أخطر القضايا، ولا يكون في شعوره احتمال غضب القائد الأعلى، ثم حصول ما يترتب على ذلك الغضب من تدني سمعة ذلك المشير بخلاف رأي القائد وتأخره في الرتبة وتضرره في نفسه أو ماله.

والمستفاد[٢] من سيرة النبي ﷺ وهديه في الشورى. إنه كان يشاور جمهور المسلمين في الأمور التي تهمهم مباشرة كما حصل في مسألة الخروج إلى قتال المشركين في معركة أُحد، فقد استشار جمهورهم الموجودين في المدينة، وكان يقول " أشيروا على "[٣].

إن هذه الحرية التي ربَّى عليها رسول الله ﷺ أصحابه مكنت مجتمعهم من الاستفادة من عقول جميع أهل الرأي السديد والمنطق الرشيد، فالقائد فيهم ينجح نجاحًا باهرًا، وإن كان حديث السن؛ لأنه لم يكن يفكر برأيه المجرد، أو آراء عصبة مهيمنة عليه قد تنظر لمصالحها الخاصة قبل أن تنظر لمصلحة المسلمين العامة، وإنما يفكر بآراء جميع أفراد جنده، وقد يحصل له الرأي السديد من أقلهم سمعة وأبعدهم منزلة من ذلك القائد؛ لأنه ليس هناك ما يحول بين أي فرد منهم والوصول برأيه إلى قائد جيشه[٤].

ونلحظ عظمة **التربية النبوية** التي سرت في شخص الحباب بن المنذر، فجعلته يتأدب أمام رسول الله ﷺ فتقدم دون أن يُطلب رأيه، ليعرض الخطة التي لديه، لكن هذا تم بعد السؤال العظيم الذي قدمه بين يدي الرسول ﷺ. يا رسول الله، أرأيت هذا المنزل أمنزلا أنزلكه الله ليس لنا أن نتقدمه ولا نتأخر عنه، أم هو الرأي والحرب والمكيدة؟ إن هذا السؤال ليشي بعظمة هذا الجوهر القيادي الفذ الذي يعرف أين يتكلم ومتى يتكلم بين يدي قائده، فإن كان الوحي هو الذي اختار هذا المنزل، فلأن يقدم

---

(١) أحمد محمد باوزير: مرويات غزوة بدر، ص ١٦٤.
(٢) عبد الكريم زيدان: أصول الدعوة ، مرجع سابق، ص ٢٠٩.
(٣) سبق تخريجه.
(٤) الحميدي: التاريخ الإسلامي، (٤ / ١١٠).

فتقطع عنقه أحب إليه من أن يلفظ بكلمة واحدة، وإن كان الرأي البشري فلديه خطة جديدة كاملة باستراتيجية جديدة.

إن هذه النفسية الرفيعة، عرفت أصول المشورة، وأصول إبداء الرأي، وأدركت مفهوم السمع والطاعة، ومفهوم المناقشة، ومفهوم عرض الرأي المعارض لرأي سيد ولد آدم، عليه الصلاة والسلام.

من الواضح أن الرسول ﷺ عوَّد أصحابه على التصريح بآرائهم عند مشاورته لهم حتى ولو خالفت رأيه، فهو إنما يشاورهم فيما لا نص فيه تعويدًا لهم على التفكير في الأمور العامة ومعالجة مشاكل الأمة، فلا فائدة من المشورة إذا لم تقترن بحرية إبداء الرأي، ولم يحدث أن لام الرسول ﷺ أحدًا؛ لأنه أخطأ في اجتهاده ولم يوفق في رأيه [١].

ففي مسألة غنائم هوازن فقد حرص النبي ﷺ على أن يعرف آراء جميع المسلمين المشتركين في حرب هوازن في مسألة الغنائم التي صارت إليهم، فقد جاء في أخبارها أن النبي ﷺ بعد أن ذكر لهم ما يراه بصدد الغنائم، قال الحاضرون " يا رسول الله رضينا وسلمنا. قال: فمروا عرفاءكم أن يرفعوا ذلك إلينا حتى نعلم... فكان زيد بن ثابت[٢] على الأنصار يسألهم: هل سلموا ؟ فأخبروه أنه سلموا ورضوا ولم يتخلف عنهم رجل واحد.... أخل، فهذه الواقعة تدل على أن أهل الشورى كانوا جميع المسلمين الذين يتعلق بهم موضوع المشاورة. وأحيانا كان الذبي ﷺ يستشير بعض أصحابه لا كلهم كما حصل في مسألة أسرى بدر فقد استشار عليه الصلاة والسلام بعض أصحابه في هؤلاء الأسرى وهل يأخذ منهم الفداء أم لا ؟ [٣].

واستشار ﷺ سعد بن معاذ[٤] وسعد بن عبادة[١] في مسألة مصالحة غَطَفَان على ثلث ثمار المدينة على أن يرجعوا عن قتال المسلمين في معركة الخندق، فقالا:

---

(١) علي محمد الصلابي: السيرة، مرجع سابق، ص ١٢٠.

(٢) زيد بن ثابت (١١ق هـ - ٤٥ هـ) هو زيد بن ثابت بن الضحاك. من الأنصار، ثم من الخزرج. من أكابر الصحابة. كان كاتب الوحي. ولد في المدينة،ونشأ بمكة، و هاجر مع الذبي صلي الله علية وسلم وعمره (١١) سنة. تفقه في الدين فكان رأساً في القضاء والفتيا والقراءة والفرائض. وكان أحد الذين جمعوا القرآن في عهد النبي ﷺ وعرضه علية. كتب المصحف لأبي بكر، ثم لعثمان حين جهز المصاحف إلى الأمصار. [الأعلام للزركلي ؛ تهذيب التهذيب ٣٨٩/٣؛ وغاية النهاية ٢٩٦/١].

(٣) عبد الكريم زيدان: أصول الدعوة، ط٣، مرجع سابق، ص ٢٠٩.

(٤) سعد بن معاذ (؟ - ٥ هـ)، هو سعد بن معاذ بن النعمان بن امرئ القيس، أبو عمر، الأوسي، الأنصاري. صحابي من الأبطال. من أهل المدينة، كانت له سيادة الأوس، وحمل لواءهم يوم بدر. وشهد أحداً، فكان ممن ثبت فيها. وكان من أطول الناس، وأعظمهم حيلة، ورُمِي

يا رسول الله إن كان هذا أمراً من السماء فامض له، وإن كان أمراً لم تؤمر فيه ولك فيه هوى فسمع وطاعة، وإن كان أنما هو الرأي، فما لهم إلا السيف، فأخذ الرسول ﷺ برأيهما وترك موضوع المصالحة مع غَطَفَان [٢].

فهذه السوابق الثابتة في سنة النبي ﷺ تدل على أن أهداف الشورى، تارة يكونون جمهور الأمة، وطوراً يكونون جميع المسلمين الموجودين وقت المشاورة ويتعلق بهم موضوع المشاورة كما في مسألة غنائم هوازن، وأحياناً يكون أهل الشورى المتبوعين في قومهم كما في مسألة مصالحة غَطَفَان وأحيانا أخرى يكون أهل الشورى بعض المسلمين من ذوي الرأي كما في مسألة أسرى بدر [٣].

وفي ضوء هذه السوابق يمكن أن نقول: إن من يشاورهم رئيس الدولة يختلفون باختلاف موضوع المشاورة من المسائل التي تحتاج إلى نوع معرفة وحسن رأي ولطف أدراك، فيشاور رئيس الدولة أهل الاختصاص والمعرفة.

بحث الموقف في غزوة أُحد

اجتمع الرسول ﷺ والمسلمون يتشاورون فيما يفعلون ؟ وعرض رأيان للمناقشة حول أيهما يتبع، فأما الأول فيقضي بأن يبقى المسلمون في المدينة، ويستدرجوا عدوهم لقتاله داخلها في طرقاتها وأزقتها، ولتقذف النساء بالحجارة من فوق أسطح المنازل. وأما الثاني، فهو أن يخرجوا للقاء العدو حيث هو الآن وكان النبي ﷺ ومعه كبار الصحابة يؤيدون الرأي الأول وانضم إليهم في القول به عبدالله بن أبي رأس النفاق في المدينة، ودعا إلى الرأي الأخير شباب المسلمين، وسائر المجاهدين الذين لم يشهدوا بدرا ورغبوا في أن يعوضهم الله خيراً عنها في هذا اللقاء، وقيل كلام كثير من هؤلاء – وكانوا يمثلون أغلب الحاضرين – حول فضل

بسهم يوم الخندق، فمات من أثر جرحه، وحزن عليه النبي ﷺ وفي الحديث: " اهتز عرش الرحمن لموت سعد بن معاذ ". [الإصابة ٣٨/٢، وأسد الغابة ٢٢١/٢، وتهذيب التهذيب ٤٨١/٣، والأعلام ٣٩/٣].

(١) سعد بن عبادة (ت ١٤ هـ) هو سعد بن عبادة بن دليم بن حارثة سيد الخزرج (أبو قيس)، أسلم مبكرا وشهد بيعة العقبة والمشاهد كلها مع الرسول -ﷺ-، سخر أمواله في خدمة الإسلام وكان يسأل الله قائلا: (اللهم إنه لا يصلحني القليل ولا أصلح عليه). حتى أصبح مثلا بالجود والكرم، وكان يحسن العَوْمَ والرمي فسمي بالكامل. وكان غيورا شديد الغيرة على سيدنا رسول الله حتى قال عنه (أن سعد لغيور وانى لأغير من سعد والله أغير منا).وتوفى في خلافة عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

(٢) عبد الكريم زيدان: أصول الدعوة، مرجع سابق، ص ٢١٠.

(٣) نفسه، ص ٢١٠.

الخروج لقهر عدو الله وكسر شوكته بعيدا عن محارم المدينة ! ورأي الذبي أن ينزل على رأيهم لكثرتهم، فدخل بيته ليتجهز ويلبس عدة القتال.

وقبل أن يخرج النبي ﷺ عليه، تجادل هؤلاء في أمرهم وتوجسوا أن يكونوا قد أكرهوا رسول الله على الخروج، وهو غير راغب فيه، حتى إذا خرج إليهم، بادروه فقالوا: يا رسول الله استكرهناك على الخروج وما كان لنا ذلك فاصنع ما بدا لك والأمر إلى الله ثم إليك ! فقال لهم: ما ينبغى لنبي لبس لأمته[١] أن يضعها حتى يحكم الله بينه وبين أعدائه، وأضاف: قد دعوتكم إلى هذا الحديث فأبيتم إلا الخروج، فعليكم بتقوى الله والصبر عند البأس، وانظروا ما آمركم به فافعلوا[٢].

فالمشورة في مصالح الأمة وبخاصة في شئون الحرب توحيد للرأي وتكتيل للجهود[٣] وهكذا يعلمنا الرسول ﷺ أن القيادة الرشيدة هي التي لا تستأثر بصنع القرار وإصدار التعليمات التي يتعين على المرؤوسين تنفيذها، بل هي تحرص على أن يشترك معها في تقدير الموقف وصنع القرار أكبر عدد ممكن من أصحاب الرأي والمختصين[٤].

وهكذا نجد الرسول الكريم ﷺ لم يصنع نفوساً مؤمنة تقية فحسب، وإنما صنع عقولاً مستنيرة. وطرق إرادات فولاذية، إنه ينمي الشعور بالمسئولية، ويشجع المبادأة في كل إنسان، ويعظم الفضيلة في أبسط صورها[٥].

ثلاثية (الرحمة والعفو والتسامح)

عملية شاقة وصعبة ولا تتاح إلا لأولئك الكبار القادرين على ضبط النفس والضغط على المشاعر والانفعالات الذاتية، ورسول الله ﷺ كان الرائد الأول في هذا المضمار بلا منازع، يقول النبي الكريم ﷺ " من لا يرحم لا يُرحم "[٦] وما عرف عنه قط انه وقف في ميدان ما معتديا أو ظالما.

---

(١) لأمته: أي درعه .

(٢) للمزيد أنظر: طبقات ابن سعد (٢ / ١٩٧)، وسيرة ابن هشام (٣: ٣)، وصحيح البخاري (٥ / ٩٣)، ومسلم بشرح النووي (١٢ / ١٤٧)، وأنساب الأشراف للبلاذري (١ / ١٤٨)، والسيرة الحلبية (٢ / ٢٨٤)، والسيرة الشامية (٤ / ٢٧١) .

(٣) أبو الوفا المراغي: من رياض السيرة الطاهرة، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، القاهرة، ١٩٧٠ / ١٣٩٠ هـ، ص ٥٨.

(٤) محمد جمال الدين محفوظ: العسكرية، مرجع سابق، ص ١٠٥.

(٥) مالك بن نبي: الظاهرة القرآنية، مرجع سابق، ص ١٤٥.

(٦) البخاري (٦٠١٣) ومسلم (٢٣١٩).

وقال ﷺ "ارحموا ترحموا، واغفروا يغفر لكم"[1]

وكان ﷺ رفيقاً رقيقاً شفيقاً ليناً براً كريماً رءوفاً رحيماً، يعفو ويسمو ويسمح، يعز عليه عنت الناس يشق عليه ما يشق على الخلق، يضيق لما يضيقون به ويتألم لما يتألمون.

(١) أنظر، المنذري: الترغيب والترهيب م٢،ج ٣، ص١٩٣-١٩٤.

وقد عفا الرسول ﷺ عن أهل مكة الذين آذوه[1] وأصحابه أشد الإيذاء والذين تآمروا على قتله شر تآمر، وأرغموه على الخروج من مكة وهي أحب بلاد الله إلى قلبه؟!.

وقد قال قائل في ذلك:

كل امرىء من عباد الله مضطهد ببطن مكة مقهور ومفتون

أنا وجدنا بلاد الله واسعة تنجي من الذل والمخزاة والهون

---

(١) قال ابن إسحاق: كان النفر الذين يؤذون رسول الله ﷺ في بيته أبا لهب، والحكم بن أبي العاص بن أمية، وعقبة بن أبي معيط، وعدى بن حمراء الثقفي، وابن الأصداء الهذلى ـ وكانوا جيرانه ـ لم يسلم منهم أحد إلا الحكم بن أبي العاص، فكان أحدهم يطرح عليه ﷺ رحم الشاة و هو يصلى، وكان أحدهم يطرحها في برمته إذا نصبت له، حتى اتخذ رسول الله ﷺ حجرًا ليستتر به منهم إذا صلى فكان رسول الله ﷺ إذا طرحوا عليه ذلك الأذى يخرج به على العود، فيقف به على بابه، ثم يقول: (يا بني عبد مناف، أي جوار هذا؟) ثم يلقيه في الطريق، وكان أمية بن خلف إذا رأي رسول الله ﷺ همزه ولمزه. وفيه نزل: {وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ} [سورة الهمزة:١] وكان الأخنس بن شَرِيق الثقفي ممن ينال من رسول الله ﷺ وقد وصفه القرآن بتسع صفات تدل على ما كان عليه، وهي في قوله تعالى:{ وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ هَمَّازٍ مَّشَّاءٍ بِنَمِيمٍ مَنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ عُتُلٍّ بَعْدَ ذَلِكَ زَنِيمٍ} [القلم:١٠: ١٣]. وكان أبو جهل يجيء أحيانًا إلى رسول الله ﷺ يسمع منه القرآن، ثم يذهب عنه فلا يؤمن ولا يطيع، ولا يتأدب ولا يخشى، ويؤذى رسول الله ﷺ بالقول، ويصد عن سبيل الله، ثم يذهب مختالًا بما فعل، فخورًا بما ارتكب من الشر، كأن ما فعل شيئًا يذكر، وفيه نزل: {فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّى} [القيامة:٣١]، ولم يكن أبو جهل ليفيق من غباوته بعد هذا الانتهار، بل ازداد شقاوة فيما بعد. أخرج مسلم عن أبي هريرة قال: قال أبو جهل: يعفر محمد وجهه بين أظهركم؟ فقيل: نعم، فقال: واللات والعزى، لئن رأيته لأطأن على رقبته، ولأعفرن وجهه، فأتى رسول الله ﷺ وهو يصلى، زعم ليطأ رقبته، فما فجأهم إلا وهو ينكص على عقبيه، ويتقى بيديه، فقالوا: ما لك يا أبا الحكم؟ قال: إن بيني وبينه لخندقًا من نار وهولًا وأجنحةً، فقال رسول الله ﷺ : (لو دنا منى لاختطفته الملائكة عضوًا عضوًا).

وبعد ذلك الهوان ألم يتمكن ﷺ منهم وكان من الممكن قتلهم جميعاً أو تعذيبهم؟ لم يفعل ﷺ بأعدائه شيئاً من ذلك بل قال لهم: "اذهبوا فأنتم الطلقاء"[١].

إن هذا الموقف المثالي الأخلاقي في تاريخ العظماء ينُم على ما أتى رسول الله من رجحان العقل وكماله وعفوه وتسامحه الكريم، ما أصبح به مثلاً عالياً في هذا الشأن[٢].

وقد جسد الرسول محمد ﷺ، تلك السماحة والرحمة عندما نصره الله تعالى وفتح مكة فأوصى أصحابه(لا تجهزن على الجريح، ولا يتبعن مدير، ولا يقتلن أسير، ومن أغلق بابه فهو امن). ثم خطب ﷺ فقال:(الحمد الله الذي صدق وعده ونصر جنده، وهزم الأحزاب وحده. ألا أن كل مأثرة كانت في الجاهلية وكل دم ودعوى موضوعه تحت قدمي إلا سدانة البيت وسقاية الحاج) [٣].

وأراد الرسول ﷺ والمسلمين معه أن يختصروا الطريق إلى السلام مع قريش ولم يريدوا أن تتطور الصراعات بينهم وبين أعدائهم إلى الحالة التقليدية المعروفة بين القبائل العربية التي كانت تحرص على الثأر من خصومها حرصاً على الوفاء بمقومات شرفها المزعوم، ولم يكن عند المسلمين وقت وقت للمشاحنات العقيمة والخصومات الطويلة، ولم يكن من مصلحتهم التطاحن مع أعدائهم حتى النهاية، وإذا كانوا قد جربوا قبل ذلك الحروب معهم وأثبتوا فيها كفاءتهم، فإن التغلب على القرشيين بالتفاهم لم يكن يعني عدم الحاجة لاستعمال القوة مع غيرهم من العرب الآخرين ولا بأس عليهم من أن يحاولوا تجربة جديدة عسى أن تأتيهم عن طريقها نتائج تفوق ما كانوا يحصلون عليه بالحرب والخصومات الطويلة، ولم تكن سياسة المسلمين قائمة على محاولة الانتقام من خصومهم وإنما كانت تستهدف كسب قلوبهم بالنصيحة والتفاهم[٤].

ولم يستبح رسول الإسلام ﷺ لهم عرضا، ولم يكشف لهم عن سوأة، ولم يظهر عوراتهم، ولم يضع القيود في أعناقهم، ولم يسفك لهم دماً.

وامتزجت أخلاق النبوة ببلسم العفو، والصفح والتسامح مع أولئك القادة والسادة من الأعداء في مكة فتحولوا طائعين مختارين إلى عمالقة تفانوا في خدمة الإسلام[٥].

---

(١) أنظر: سنن البيهقي الكبرى، ١١٨/٩، برقم ١٨٠٥٥، وسيرة ابن هشام: ٤ / ٤١، والبلاذري: فتوح البلدان، ص٥٤.

(٢) أحمد جمال العمري: الحديث النبوي والتأريخ، دار المعارف، القاهرة، ١٩٩٠ / ١٤١١ هـ، ص ٣٨٥.

(٣) البلاذري: فتوح البلدان. مراجعة رضوان محمد رضوان. مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية بحيدر اباد الدكن-الهند ١٣٥٦هـ / ١٩٣٧ م، ص١١٨.

(٤) علي حبيبة: في سيرة الرسول، مكتبة الشباب، القاهرة، ١٩٨١ / ١٤٠٢ هـ، ص ٢٩١.

(٥) باشميل: فتح مكة، مرجع سابق، ص ١٥.

ولما فتح رسول الله ﷺ القموص (حصن بن أبي حُقيق من خيبر)، أتى رسول الله ﷺ بصفية بنت حيي بن أخطب بأخرى، فمر بهما بلال على قتلى يهود فلما رأتهم الجارية التي مع صفية صاحت، وسحقت وجهها وحست التراب على رأسها، فلما رأى رسول الله ﷺ بتلك الجارية ما رأى قال: أُنزعت منك الرحمة يا بلال ؟ حين تمر بامرأتين على قتلى رجلهما[١].

فكانت سماحة الرسول ﷺ ورحمته وأخلاقه ومبادئه النبيلة التي فتحت مغاليق قلوب كثير من أهل البلاد ودون الحاجة إلى قتال.

وكان دخول المسلمين بالقوة يعني أن تحدث مذابح، وتزهق أرواح كثيرة، وتسفك دماء غزيرة من الطرفين، وهذا أمر لم يرده الباري سبحانه، وكان لمصلحة الفريقين المؤمنين والمشركين[٢].

وكان أبو سفيان بن الحارث يهجو بشعره رسول الله ﷺ كثيرًا، وأما عبد الله بن أمية فقد قال لرسول الله ﷺ: (فوالله لا أومن بك حتى تتخذ إلى السماء سلمًا ثم ترقى فيه وأنا أنظر إليك حتى تأتيها، ثم تأتي بصك معه أربعة من الملائكة يشهدون لك كما تقول، ثم وأيم الله لو فعلت ذلك ما ظننت أني أصدقك) [٣].

ومع فداحة جرمهما فإن النبي ﷺ عفا عنهما وقبل عذرهما، وهذا مثال عالٍ في الرحمة والعفو والتسامح، ولقد كفَّر أبو سفيان بن الحارث عن أشعاره السابقة بهذه القصيدة البليغة التي قالها في مدح النبي ﷺ وبيان اهتدائه به، ولقد حسن إسلامه، وكان له موقف مشرف في الجهاد مع رسول الله في معركة حنين[٤].

كما لم يواجه النبي ﷺ ابن سلول[٥] ومؤامراته المدبرة بالقوة واستعمال السلاح[٦].

وقد كان لتسامح الرسول ﷺ مع رأس المنافقين أبعد الآثار فيما بعد، فقد كان ابن أبي ابن سلول كلما أحدث حدثًا كان قومه هم الذين يعاتبونه ويأخذونه، ويعنفونه، ويعرضون قتله على النبي ﷺ، والرسول يأبى ويصفح، فأراد رسول الله أن يكشف لسيف الحق عن آثار سياسته الحكيمة[٧].

---

(١) سيرة ابن هشام: ج٢، ص٣٣٦، الواقدي: المغازي ج٢ ص، ٧٣ البداية والنهاية، ٤ / ١٩٧.
(٢) أنظر، علي محمد الصلابي: السيرة، مرجع سابق، ص ٣٨٢.
(٣) ابن هشام: (١ / ٢٩٥ – ٣٠٠).
(٤) الصلابي: السيرة، مرجع سابق، ص ٥١٨.
(٥) عبد الله بن سلول كبير المنافقين في المدينة يرى أن الرسول ﷺ قد انتزع منه ملكه فقد كادت الخزرج أن توليه عليها سيداً.
(٦) أنظر، فقه السيرة النبوية للبوطي، مرجع سابق، ص٤٠٩.
(٧) علي محمد الصلابي: السيرة، مرجع سابق، ص ٢٦٩.

وكان من طبيعة الداعية الصادق أن يحرص على هداية أعدائه، وأن يفسح لهم المجال لعل الله يلقي في قلوبهم الهداية، ومن هنا نفهم ميل رسول الله ﷺ إلى فداء الأسرى يوم بدر، فقد كان يرجو أن يهديهم الله وأن تكون لهم ذرية من بعدهم تعبد الله وتدعو إليه، وإذا كان القرآن الكريم قد عاتب الرسول ﷺ على ذلك، فلأن هناك مصلحة أخرى للإسلام يومئذ، وهو إرهاب أعداء الله والقضاء على رؤوس الفتنة والضلالة، ولو قتل الأسرى يوم بدر لضعفت مقاومة قريش للقضاء على زعمائها ومؤججي نار الفتنة ضد المؤمنين(١).

وفي غزوة ذي أمر (٢) عندما أصاب المطر ثوب رسول الله(ﷺ)، ونزعه وألقاه على الشجرة ليجف وكان بعيداً عن أصحابه، جاءه دعثور بن الحارث وقام على رأسه بالسيف مشهوراً وقال: من ينجيك مني يا محمد؟، قال ﷺ: الله! فوقع السيف من يده فأخذه رسول الله ﷺ وقام على رأسه فقال: من يمنعك مني؟، قال جودك وكرمك! فتركه وقام وهو يقول: والله لأنت خير مني وأكرم(٣).

إن موقف الرسول ﷺ في **غزوة الحديبية** أنموذجاً حسناً لروح التسامح والصفح حرصا على السلام من جانب الطرف الأقوى، فهو لم يكتف بالرجوع مع جيشه من حيث أتوا، وبتأجيل ما كانوا اجمعوا على أدائه في ذلك العام من المناسك، ولم يكتف بأن رضي بتجريد اسمه في نصوص الهدنة من كل لقب تشريفي هو أهله، ولكنه فوق ذلك كله قبل مختارا مقترحات الهدنة التي لا يعامل فيها الطرفان على قدم المساواة بل تخول الأعداء حقوقا لا تخولها للمسلمين،مع الشرط الذي يلزم المسلمين بإعادة من يلجأ إليهم فراراً من معسكر قريش دون إزعاج ولا رد. (٤).

وقد ارتضى الرسول هذه الشروط ويكفيه أن هذا الصُلح أزاح شر القتال، وحقن الدماء التي كان يمكن أن تسيل إذا ما قامت الحرب(٥).

---

(١) مصطفى السباعي: السيرة النبوية، دروس وعبر، ط١، دار السلام، ١٩٩٨، ص ٧٠.

(٢) في المحرم ٢هـ وفيها أنظر، سيرة ابن هشام (٣ / ٣٩)، ومغازي الواقدي، ص ١٩٢، وتاريخ الطبري (٢ / ٤٨٧)، والسيرة الحلبية (٢ / ٢٧٩).

(٣) سبق تخريجه.

(٤) محمد عبد الله دراز: القانون الدولي العام والاسلام. المجلة المصرية للقانون الدولي. الجمعية المصرية للقانون الدولي. القاهرة. م٥/ ١٩٤٩/ ١٣٦٩ هـ، ص٧.

(٥) محمد أحمد خضر: محمد أعظم البشر، القاهرة، ٢٠٠٢ / ١٤٢٣ هـ، بدون، ص ٤١٠.

ويقول عبيد بن عمير[١] بلغني أن رسول الله ما أُتي في غير حد إلا عفا عنه.

وكان ﷺ يستخدم الرفق مع الأعداء ليكونوا أقرب للإجابة[٢]. فكان ﷺ قدوة للناس وما كان له أن يعلمهم الرفق – بهذه الصورة – إلا إذا كان هو ﷺ قد طبعه مولاه على الرفق، وسواه بحيث يكون رفيقاً رقيقاً [٣].

هل نزيد ؟ يقول ﷺ " إن الرفق لا يكون في شئ إلا زانه، ولا ينزع من شئ إلا شانه"[٤].

وهكذا كان النبي ﷺ يقوم بتربية المؤمنين على ضبط النفس والتجرد والصبر والاحتمال، وهو عمل كبير وجهاد شاق قام به الرسول ﷺ وفق منهج القرآن الكريم[٥].

مبدأ العفو[٦] عند المقدرة

لقد كان من صفات الرسول العظيم ﷺ العفو عند المقدرة[٧]، روى أبو موسى الأشعري[٨]، قال: كان رسول الله ﷺ يسمي لنا نفسه أسماء فقال: (أنا محمد، وأحمد، والمقفي والحاشر، ونبي التوبة، ونبي الرحمة) [١].

---

(١) عبيد بن عمير عبيد بن عمير ابن قتادة الليثي الجندعي المكي، الواعظ المفسر ولد في حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم .وحدث عن أبيه، وعن عمر بن الخطاب، وعلي، وأبي ذر، وعائشة، وأبي موسى الأشعري، وابن عباس، وكان من ثقات التابعين وأئمتهم بمكة.

(٢) الطبرسي: مجمع البيان في تفسير القران م٦ ج٢٩، ص٩.

(٣) عبد الحميد ندا: التعامل مع غير المسلمين، مكتبة النهضة المصرية، ٢٠٠٧ م / ١٤٢٨ هـ، ص ٤٥.

(٤) مسلم (٢٥٩٤).

(٥) محمد شديد: الجهاد، مرجع سابق، ص ٥.

(٦) العفُوُّ، وهو فَعُولٌ من العَفْوِ، وهو التجاوز عن الذنب وتَرْكُ العقاب عليه، وأصله المَحْوُ والطَّمْس، وهو من أبنية المبالغة. يُقال: عفا يعْفُو عَفْواً، فهو عافٍ وعَفُوٌّ، أنظر، ابن منظور. لسان العرب.- مج٩ - ط١ بيروت: دار إحياء التراث العربي،1408 هـ-١٩٨٨م، ص٢٩٤ – ٢٩٥.

(٧) محمد رفعت زنجير: دفع شبهة الإرهاب عن نبي السلام، مجلة منار الإسلام، ربيع الأول ١٤٢٤هـ/مايو ٢٠٠٣م، ١٤٢٤ هـ.

(٨) أبو موسي الأشعرى (٢١ق هـ - ٤٤ هـ) هو عبد الله بن قيس بن سليم. من الاشعرين، ومن أهل زبيد باليمن. صحابي من الشجعان الفاتحين الولاة.قدم مكة عند ظهور الاسلام، فاسلم، وهاجر إلي الحبشة. واستعمله النبي ﷺ علي زبيد وعدن. وولاه عمر بن الخطاب البصرة سنة ١٧ هـ فافتتح أصبهان والأهواز، ولما ولي عثمان أقره عليها، ثم ولاه الكوفة،وأقره علي، ثم عزله. ثم

وفي غزوة بنى قينقاع[٢]. وكانوا من يهود المدينة. فنقضوا العهد الذي عقدوه مع رسول الله عند قدومه إلى المدينة، وناصبوا المسلمين العداء؛ فحاصرهم رسول الله ﷺ خمسة عشر ليلة. فنزلوا على حكمه، فأجلاهم رسول الله عن المدينة[٣] فشفع فيهم عبد الله بن أُبيّ ابن سُلول. وألح على رسول الله ﷺ فيهم. فأطلقهم له، وكانوا سبعمائة رجل. وهم رهط عبد الله بن سلام[٤].

وقد أحسن شوقي حين شبه النبي ﷺ بالأب الرحيم الذي يعفو عن زلات أولاده، فقال[٥]:

وإذا عفـــوت فقـــادرا ومقـــدرا لا يســـــتهين بعفـــــوك الجهـــــلاء

وإذا رحمـــــت فأنـــــت أم أو أب هـــذان فـــي الـــدنيا همـــا الرحمـــاء

فمن أعظم أخلاقه ﷺ الصفح والعفو، والأمثلة على أخلاق العفو عند الرسول ﷺ كغيرها من الأخلاق النبيلة التي تشرفت بالانتساب إليه أكثر من أن تُحصى وأجل من أن تُحاط بكلم.

بنو الحرب إن نظفر فلسنا بفحش ولا نحـــن مـــن أظفارهـــا نتوجـــع[٦]

وهو لا يفقد أبدا حصانة الأخلاق والحرب قائمة، كما لا يفقد نزاهة العدل ونعمة العفو والحرب ظافرة.

يقول رسول الله ﷺ {عليكم بالعفو، فإن العفو لا يزيد العبد إلا عزاً، فتعافوا يعزكم الله}.

وروى البخاري ومسلم {أنّ رسول الله ﷺ كان في حرب، فجاء رجل هو (غورث بن حارث) حتى قام على رأسه بالسيف فقال: من يمنعك مني؟ فقال: الله. فسقط السيف من يده، فأخذه رسول الله ﷺ وقال: من يمنعك مني؟ قال الرجل: كن خير آخذ. قال النبي ﷺ: قل: أشهد أن لا إله إلاّ الله وأني رسول الله. فقال الرجل: لا.

كان احد الحكمين، رجع إلي الكوفة وتوفي بين علي ومعاوية. وبعد التحكيم رجع إلي الكوفه وتوفي بها [الأعلام للزركلي ٤/٢٥٤؛ والإصابة؛ وغاية النهاية ١/٤٤٢].

(١) أخرجه مسلم في الفضائل (٢٣٥٥)، وانظر: مشكاة المصابيح، للتبريزي، بتحقيق الألباني، (١٦٠٩/٣).

(٢) في شوال ٢هـ وفي غزوة بني قينقاع أنظر: فتح الباري شرح صحيح البخاري في كتاب المغازي (٧ /٣٣٢).

(٣) حيث توجهوا الى أذرعات بالشام (ابن الأثير، الكامل ج٢، ص ٥٢.

(٤) محمد بن عبد الوهاب: مختصر، مرجع سابق، ص ١١٨.

(٥) ديوان الشوقيات الهمزية النبوية، مرجع سابق، ص٣٣ .

(٦) أنظر، ديوان كعب بن مالك الأنصاري: تحقيق: سامي العاني، مطبعة النهضة، بغداد.

غير أني لا أقاتلك، ولا أكون معك، ولا أكون مع قوم يقاتلونك. فخلى سبيله. فجاء أصحابه وقال: جئتكم من عند خير الناس} [١].

وفي غزوة الأحزاب تم القبض على العين (الجاسوس) الذي أرسلته قريش وهو " فرات بن حيان"، فأمر الرسول ﷺ بقتله ولما قدم للقتل قال أني مسلم؛ فعفا عنه الرسول ﷺ وقال " إن منكم من أتألفه على الإسلام، وأكله إلى إيمانه منهم فرات بن حيان [٢].

وفي فتح مكة، ماذا فعل مع أبي سفيان الذي قاد المشركين في معظم حروبهم ؟ ماذا فعل معه وهذه مكة تدين له وتدخل في رحاب دعوته ؟ ماذا فعل معه وهو قادر لو أنه قتله ما لامه أحد. ولا عد في نظر الناس إلا منصفا عادلا ؟ [٣].

لكن محمدا ﷺ لم يفعل ذلك بل عفا عنه وأكرمه ونادى في الناس: " من دخل دار أبى سفيان فهو آمن " وعفا عن قريش التي أخرجته وبيتت قتله وهي التي كانت تنتظر العقوبة: يا معشر قريش ما تظنون أنى فاعل بكم ؟ قالوا: أخ كريم وابن أخ كريم. قال: اذهبوا فأنتم الطلقاء " [٤].

وهذه هند بنت عتبة[٥] زوجة أبي سفيان التي حرضت على قتال رسول الله ومثلت بعمه حمزة ﷺ في غزوة أحد ولاكت كبده وأنشدت شعراً لتكيد المسلمين.

شـــفيت نفســـي وقضـــيت نـــذري شـــفيت وحشـــي غليـــل صـــدري [٦]

---

(١) أخرجه البخاري (٤١٣٦)، المغازي، ومسلم (٨٤٣) صلاة المسافرين.

(٢) للمزيد: أنظر، طبقات ابن سعد (٢ / ٦٥)، سيرة ابن هشام (٣ / ١٦٨)، أنساب الأشراف للبلاذري (١ / ١٦٥)، تاريخ الطبري (٢ / ٥٦٤)، صحيح البخاري (٥ / ١٠٧)، صحيح مسلم بشرح النووي (١٢ / ١٤٥)، البداية والنهاية لابن كثير (٤ / ٩٢)، السيرة الحلبية (٢ / ٤٠١)، السيرة الشامية (٤ / ٥١٢).

(٣) محمد الراوي: الدعوة الإسلامية دعوة عالمية، المؤسسة المصرية للتأليف، ١٩٦٥، ص ٤٤٦.

(٤) أنظر: سنن البيهقي الكبرى، ١١٨/٩، برقم ١٨٠٥٥، وسيرة ابن هشام (٤ / ٤١).

(٥) هند بنت عتبة ابن ربيعة: صحابية، قرشية عبشمية (أي بن بني عبد شمس) أسلمت بعد فتح مكة وحسن إسلامها. زوجة أبو سفيان بن حرب وأم معاوية بن أبي سفيان (مؤسس الدولة الأموية). أبوها: عتبة بن ربيعة (سيد قومه) والدتها: صفية بنت أمية (شاعرة) أمضت هند بن عتبة رضي الله عها أول حياتها في الكفر، وظلت تتآمر على قتل النبي ﷺ، فهي التي قامت بتحريض وحشي على قتل حمزة بن عبد المطلب (عم النبي ﷺ). وأسلمت في العام الثامن من الهجرة، حينما دخل النبي ﷺ مكة، توفيت في السنة ١٤ للهجرة.

(٦) للمزيد أنظر البداية والنهاية، ج ٤، ص٣٧ وما يليها .

نراها بعد ذلك تأتى منتقبة يوم الفتح، فلا يتعرض لها ولا يسألها ما فعلت ؟ بل يعفو ويصفح. وترى منه ذلك فلا تتمالك ؟ أن تقول " يا محمد، لم يكن أهل خباء أبغض إلى من أهل خبائك قبل اليوم ! وأنا اليوم ليس أهل خباء أحب إلى من أهل خبائك " ! [١].

وأراد صفوان بن أمية[٢] أن يهرب إلى جدة، وليبحر إلى اليمن، وقيل أراد أن يذهب ليلقي بنفسه في البحر فأتى عميرُ بن وهب لرسول الله، فقال يا نبي الله إن صفوان بن أمية سيد قومه، قد خرج هارباً منك، ليقذف نفسه في البحر فأمنه.

قال الرسول: هو آمن.

قال: يا رسول الله، أعطني آية (علامة) يعرف بها أمانك، فأعطاه الرسول عمامته التي دخل بها مكة. فخرج بها عمير حتى أدركه، وهو يريد أن يركب البحر.

فقال عمير: يا صفوان، فداك أبى وأمي ! الله الله في نفسك أن تهلكها ! فهذا أمان رسول الله قد جئتك به.

قال صفوان: إني أخافه على نفسي.

قال عمير: هو أحلم من ذلك وأكرم.

فرجع عمير معه حق وقف به على رسول الله ﷺ.

فقال صفوان: إن هذا يزعم أنك قد أمَّنتنى، (أعطيتنى الأمان على نفسي).

قال المصطفى: صدَق.

قال صفوان: فاجعلني فيه بالخيار شهرين.

قال الرسول النبيل الكريم: أنت بالخيار أربعة أشهر [٣].

فالرسول قد عفا عن عدوه اللدود، وأرسل إليه عمامته كي يطمئنه، وبدلا من أن يجعل له شهرين للخيار بين الشرك والإسلام جعل له أربعة أشهر كي لا يجبره. وهذا هو المثل العالي في النبل والحلم والعظمة الخلقية.

وعندما فتح الرسول ﷺ مكة وأقبل سُراقة بن مالك[٤] يعلن إسلامه[٥] فوالله ما سأله الرسول عن شئ فعله حتى مجرد السؤال الذي يخشى منه الزهو بالنصر أو المن عن العباد ! [١].

---

(١) أنظر: طبقات ابن سعد (٨: ٢٣٦) ترجمة هند بنت عتبة.

(٢) كان صفوان بن أمية ممن أهدرت دماؤهم؛ لشدة عداوتهم للإسلام، والتأليب على المسلمين.

(٣) للمزيد: أنظر، والبداية والنهاية (٤/٢٧٧)، والواقدي: المغازي (٤٠٦)، سيرة ابن هشام (٣ / ٣)، وتاريخ الطبري (٢ / ٢٣٢)، ابن الأثير: الكامل (٢ / ٢٣٩).

(٤) سراقة بن مالك بن جعشم المدلجي الكناني، أبو سفيان، صحابي جليل، له في كتب الحديث ١٩ حديثاً، توفي سنة (٢٤)هـ.

(٥) للاستزادة من قصة سُراقة أنظر: البخاري (٣٩٠٦) ومسلم (٢٠٠٩).

بل هذا وحشي[٢] قاتل حمزة يختبئ في فتح الطائف ويتلمس مكانا للهرب و هو يعرف فعلته فيقول له قائل: انك لن تجد مأمنا إلا عند محمد ﷺ فيأتيه خائفا و يراه الرسول فيتذكر مأساة عمه فتذرف عيناه الشريفتان بالدمع، وها هو ذا القاتل أمامه لو أراد أن يقتص لفعل ولكان هذا منه حقا و عدلا، ولكن أبا الز هراء لا يفعل ويعلن العفو، ويكتفى بأن يصرفه من أمامه وهو يقول: " إليك عنى، فأنى إذا رأيتك تذكرت عمى حمزة وشهادته "[٣].

ثم هذا عكرمة بن أبي جهل[٤] كان من أعداء رسول الله، دع عنك والده وما صنع **فقد** فتح الرسول ﷺ مكة فخاف عكرمة على نفسه مما فعل ففر إلى اليمن وكانت زوجه قد أسلمت وعرفت أخلاق الرسول، فذهبت إلى اليمن تفهم زوجها وتهدئ من روعه ورجعت به إلى مدينة رسول الله فماذا فعل الرسول؟

لما بلغه مقدم عكرمة سارع إليه يرحب به حتى سقط عنه رداؤه ثم قال له وهو فرح مسرور: " مرحبا بالراكب المهاجر "[٥].

وقد روى أنس ﷺ " أن يهودية أتت إلى النبي بشاه مسمومة، فسألها عن ذلك فقالت: أردت قتلك فقال: ما كان الله ليسلطك على ذلك. قالوا أفلا نقتلها؟ قال: لا.

وكان كعب بن زهير[٦] يهجو النبي ﷺ؛ فلما رأى عفوه عن أعدائه، أسرع إلى المدينة، واستأمنه فعفا النبي ﷺ عنه، ومنحه بُردته[١].

---

(١) محمد الراوي: الدعوة، مرجع سابق، ص ٤٤٦.

(٢) وحشي بن حرب الحبشي، أبو دسمة.: وهو من سودان مكة، وهو مولى لطعيمة بن عدي، وقيل مولى جبير بن مطعم بن عدي بن نوفل بن عبد مناف القرشي النوفلي، قاتل حمزة بن عبد المطلب- رضي الله عنه- يوم أحد، وشرك في قتل مسيلمة الكذاب يوم اليمامة، وكان يقول: قتلت خير الناس في الجاهلية وشر الناس في الإسلام (الإصابة، رقم (٩١١١)، الاستيعاب (٣ / ٦٠١).

(٣) للمزيد عن قصة وحشي: أنظر، البخاري: المغازي، باب " قتل حمزة بن عبد المطلب " (٧ / ٤٠٧٢ / فتح) وأحمد في مسنده (٣ / ٥٠١) من حديث جعفر بن عمرو بن أمية الضمري.

(٤) هو عكرمة بن أبي جهل بن هشام بن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم القرشي المخزومي، يكنى بأبي عثمان، أسلم بعد الفتح، فقد كان هارباً الى اليمن وعند عودته قال له رسول الله -صلى الله عليه وسلم -مرحباً بالراكب المهاجر) وقد حسُنَ إسلامه، وشارك في حروب الردة واستشهد يوم اليرموك ١٥هـ/٦٣٦م.

(٥) للمزيد أنظر: ابن عبد البر: الاستيعاب في تمييز الأصحاب، ج٢، باب عكرمة .

(٦) هو كعب بن زهير بن أبي سلمى المزني، أبو المضرَّب، شاعر عالي الطبقة، من أهل نجد، كان ممن اشتهر في الجاهلية .ولما ظهر الإسلام هجا الذبي ﷺ، وأقام يشبب بنساء المسلمين،

وبهذا نري رسول الله ﷺ يدعو إلى التسامح والصفح الجميل والعفو، وهي مبادئ السلام التي تتنافى مع أساليب القهر بالعنف والإرهاب، وقد تمثلت تلك المبادئ في سماحة الرسول ﷺ في علاقاته بالمشركين وغيرهم وفي معاهداته وفي حروبه.

فأهدر النبي ﷺ، دمه فجاءه كعب مستأمناً وقد أسلم وأنشده لاميته المشهورة التي مطلعها:بانت سعاد فقلبي اليوم متبول؛ فعفا عنه النبي ﷺ، وخلع عليه بردته.وهو من أعرق الناس في الشعر: أبوه زهير بن أبي سلمى، وأخوه بجير وابنه عقبة وحفيده العوّام كلهم شعراء.

(١) مولاي محمد علي: محمد رسول الله،، مرجع سابق، ص ١٩٨.

حرص القائد على سلامة الجنود

بالمؤمنين رءوف رحيم

وأما نُبل عواطفه فقد تجلت من محبته للحق والخير، وعطفه على المسلمين وغيرهم، ورحمته بهم. ومواساتهم في سرائهم وضرائهم. وكان هذا أيضا من فضل الله على الرسول ﷺ ونعمته عليه[(١)].

كان ﷺ يخاف على جنده وأتباعه فلا يغرنه الغرور وينسى الشفقة في زمن القتال؛ فتذكر مصادر السيرة أنه قام بإرجاع البراء بن عازب[(٢)] وابن عمر لصغرهما[(٣)]: فبعد خروج النبي ﷺ وأصحابه من المدينة في طريقهم إلى ملاقاة عير أبي سفيان، وصلوا إلى (بيوت السقيا) خارج المدينة؛ فعسكر فيها النبي ﷺ، واستعرض من خرج معه فرد من ليس له قدرة على المضي من جيش المسلمين، وملاقاة من يحتمل نشوب قتال معهم، فرد على هذا الأساس البراء بن عازب[(٤)]، وعبد الله بن عمر لصغرهما، وكانا قد خرجا مع النبي ﷺ راغبين وعازمين على الاشتراك في الجهاد[(٥)].

وكان الرسول الرحيم كثير الدعاء إلى الله أن يكشف كربات المجاهدين، فعن عبد الله بن عمرو بن العاص[(٦)] رضي الله عنهما قال:

---

(١) حامد عبد القادر: الاسلام ظهوره، مرجع سابق، ص ٢٢٥.

(٢) هو البراء بن عازب بن الحارث بن عدي، أبو عمارة، الخزرجي، الأنصاري. قائد صحابي، من أصحاب الفتوح. أسلم صغيراً، وغزا مع رسول الله ﷺ خمس عشرة غزوة، روى عن النبي ﷺ وعن أبي بكر وعمر وعلي وبلال وغيرهم رضي الله عنهم. وعنه عبد الله بن زيد الخطمي وأبو جحيفة وابن أبي ليلىوغيرهم. ولما ولي عثمان الخلافة جعله أميرا على الري بفارس سنة ٢٤، روى له البخاري ومسلم ٣٠٥ أحاديث [الإصابة ١٤٢/١، وأسد الغابة ١٧١/١، وتهذيب التهذيب ٤٢٥/١، والأعلام ١٤/٢].

(٣) أخرجه البخاري في المغازي، باب عدة أصحاب بدر (٣٩٥٦).

(٤) للمزيد، أنظر: صحيح البخاري: في المغازي، باب عدة أصحاب بدر، (٣٩٥٦).

(٥) أبي شهبة: السيرة النبوية، (٢ / ١٢٤).

(٦) هو عبد الله بن عمرو بن العاص عبد الله بن عمرو بن العاص بن وائل بن هاشم بن سعيد بن سعد بن سهم بن عمرو بن هصيص بن كعب بن لؤي بن غالب. الإمام الحبر العابد، صاحب رسول الله -ﷺ- وابن صاحبه، أبو محمد، وقيل: أبو عبد الرحمن. وقيل: أبو نصير القرشي السهمي. وأمه هي رائطة بنت الحجاج بنت منبه السهمية وقد سبق أباه إلى الإسلام،ولد بعد البعثة النبوية الشريفة بثلاث سنوات، وعندما هاجر كان عمره إحدى عشرة سنة، وفي غزوة أحد أراد أن يخرج للجهاد، فعرض نفسه على النبي (فردَّه لصغر سنه، وفي غزوة الخندق ظل

" خرج رسول الله يوم بدر في ثلاثمائة وخمسة عشر رجلاً من أصحابه، فلما انتهى إليها قال: " اللهم إنهم جياع فأشبعهم، اللهم إنهم عُراة فاكسهم " [١].

وعندما تخلف سعد بن أبي وقاص[٢]، وعتبة بن غزوان بسبب بحثهما عن بعير لهما قد أضلاه، وجاءت قريش تريد أن تفدي الأسيرين، فأبى رسول الله ﷺ وقال: {أخاف أن تكونوا قد أصبتم سعد بن مالك وعتبة بن غزوان} فلم يفدهما حتى قدم سعد وعتبة، ففوديا " ونفهم من هذا المنهاج النبوي ضرورة أن يهتم القائد بسلامة جنده؛ لأنهم هم الذين يقدمون أنفسهم في سبيل نصرة دين الله وإقامة دولة الإسلام[٣].

والمدارس العسكرية الحديثة تقول[٤]: إن الجندي حين يحس باهتمام القيادة به وسلامته وبأمنه، لا يتردد في أن يبذل غاية البذل ويعطي أقصى العطاء.

ولما رأى ما بحمزة[٥] ـ عمه وأخيه من الرضاعة ـ اشتد حزنه، وجاءت عمته صفية تريد أن تنظر أخاها حمزة، فأمر رسول الله ﷺ ابنها الزبير أن يصرفها، لا تري ما بأخيها، فقالت: ولم؟ وقد بلغني أن قد مُثِّلَ بأخي، وذلك في الله، فما أرضانا بما كان من ذلك، لأحتسبن ولأصبرن إن شاء الله، فأتته فنظرت إليه، فصلت عليه ـ دعت له ـ واسترجعت واستغفرت له. ثم أمر رسول الله ﷺ بدفنه مع عبد الله بن جحش ـ وكان ابن أخته، وأخاه من الرضاعة[٦].

وتتجلى مظاهر حرص القائد على سلامة جنوده الرحمة في معاملة النبي ﷺ للرماة الذين أخطأوا الاجتهاد في غزوة أُحد لم يخرجهم الرسول ﷺ خارج الصف،

يلح على النبي (حتى وافق على خروجه، وكان عمره خمس عشرة سنة، واستمر بعد ذلك يجاهد في جميع الغزوات والمواقع. وكان -رضي الله عنه- يتبع آثار النبي ويقتدي به في جميع أموره ودفن بمكة في سنة (٧٣هـ)، وقد روى كثيرًا من أحاديث الرسول ﷺ (حيث روى ألفين وست مئة وثلاثين حديثًا) [الإصابة ٢/٣، والاستيعاب ١١٨٤/٣، والأعلام ٢٤٨/٥].

(١) رواه أبو داود وحسنه الحافظ في الفتح، (٧ / ٢٩٢).

(٢) سعد بن ابي وقاص (- ٥٥ هـ) هو سعد بت مالك، واسم مالك اهيب بن زهرة، ابو اسحاق، قرشي. من كبار السن قديما وهاجر، وكان اول من رمي بسهم في احد الستة اهل الشوري. وكان مجاب العاء جيوش الفرس وفتح الله علي يدية العراق ايام علي ومعاوية. توفي بالمدينة [تهذيب التهذيب ٣/ ٤٨٤].

(٣) علي محمد الصلابي: السيرة، مرجع سابق، ص ٦١١.

(٤) نفسه، ص ٦١١.

(٥) حمزة بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف القرشي الهاشمي (٥٥ ق.هـ ـ ٣ هـ)، وهو عم رسول الله ﷺ، وأخوه من الرضاعة، كان موصوفاً بالشجاعة والقوة والبأس حتى عُرف أنه أعز فتى في قريش وأشدهم شكيمة.

(٦) صفي الرحمن المباركفوري: الرحيق، مرجع سابق، ص٢١٥.

ولم يقل لهم إنكم لا تصلحون لشيء من هذا الأمر بعدما بدا منكم في التجربة من النقص والضعف، بل قبل ضعفهم هذا في رحمة وعفو وفي سماحة [١].

وَلَـــوْ كُنـــتَ فَظًّـــا غَلِـــيظَ الْقَلْـــبِ لَانفَضُّـــواْ مِـــنْ حَوْلِـــكَ [٢]

وكان رسول الله يتفقد الشهداء في غزوة أُحد، فوجد حنظلة بن أبي عامر[٣] يتقطر الماء من جسده، فبعث بعض الصحابة إلى زوجته فلما عادوا، أخبروه بأنه، كان حديث عهد بالزواج، فلما سمع نداء الجهاد، ترك فراش عروسه وأسرع إلى ميدان القتال، ليدافع عن دينه، فأخذ يشق الصفوف حتى وصل إلى قائد المشركين أبي سفيان بن حرب (قبل أن يسلم) وكاد أن يقتله، ورآه شداد بن الأسود فضربه فقتله. فلما علم النبي ﷺ بذلك قال: {إن صاحبكم لتغسله الملائكة}[٤].

ولما علم النبي ﷺ بقدوم جيش الأحزاب[٥] وأراد الخروج إلى الخندق أمر بوضع ذراري المسلمين ونسائهم وصبيانهم في حصن بني حارثة[٦]، حتى يكونوا في مأمن من خطر الأعداء[٧] حقاً بالمؤمنين رءوف رحيم.

وجاءت إليه أم سعد بن معاذ تعدو، وسعد آخذ بلجام فرسه، فقال: يا رسول الله، أمي، فقال: (مرحباً بها)، ووقف لها، فلما دنت عزاها بابنها عمرو بن معاذ. فقالت: أما إذ رأيتك سالماً فقد اشتويت المصيبة ـ أي استقللتها ـ ثم دعا لأهل من قتل بأحد، وقال: (يا أم سعد، أبشري وبشري أهلهم أن قتلاهم ترافقوا في الجنة جميعاً، وقد شفعوا في أهلهم جميعاً). قالت: رضينا يا رسول الله، ومن يبكي عليهم بعد هذا؟ ثم

---

(١) علي محمد الصلابي: السيرة، مرجع سابق، ص ١٨٣.

(٢) سورة آل عمران: آية ١٥٩.

(٣) هو حنظلة بن أبي عامر بن صيفي بن زيد بن أمية بن ضبيعة الأنصاري الأوسي، من بني عمرو بن عوف ، كان أبوه أبو عامر يعرف بالراهب في الجاهلية، وحنظلة من صحابة رسول الإسلام وغسلته الملائكة بنص الحديث وهو من سادات المسلمين وفضلائهم، ومعروف (بغسيل الملائكة).

(٤) أخرجه الحاكم (٣/٢٠٤،٢٠٥) والبيهقي (٤/١٥) وأبو نعيم في الدلائل (ص ٤١٩) من طريق ابن إسحاق وسنده جيد، وله شاهد عند الطبراني كما في المجمع (٣/٢٣).

(٥) للمزيد أنظر: طبقات ابن سعد (٢ / ٦٥)، سيرة ابن هشام (٣ / ١٦٨)، أنساب الأشراف للبلاذري (١ / ١٦٥)، تاريخ الطبري (٢ / ٥٦٤)، صحيح البخاري (٥ / ١٠٧)، صحيح مسلم بشرح النووي (١٢ / ١٤٥)، البداية والنهاية لابن كثير (٤ / ٩٢)، السيرة الحلبية (٢ / ٤٠١)، السيرة الشامية (٤ / ٥١٢).

(٦) بنو حارثة: بطن من الأوس من الأزد، وهم بنو حارثة بن حارث ولهم بطون عديدة (نهاية الأرب (٢٢٣)

(٧) انظر: محمد عبد القادر أبو فارس: غزوة الأحزاب، ص٩٨.

قالت: يا رسول الله، ادع لمن خلفوا منهم، فقال: (اللهم أذهب حزن قلوبهم، واجبر مصيبتهم، وأحسن الخَلفَ على من خُلِّفُوا)[١].

الصفح الجميل

ذكر أصحاب الحديث، والمغازي، والسير، أن حاطب بن أبي بلتعة [٢] كتب إلى ثلاثة من زعماء المشركين: في مكة: صفوان بن أمية [٣]، وسهيل بن عمرو[٤]، وعكرمة بن أبي جهل، يُخبرهم فيه: أن الرسول ﷺ يحشد الجيوش لغزو قريش وكتب إلى هؤلاء الزعماء المشركين كتاباً جاء فيه: " إن رسول الله قد أذن في الناس بالغزو، ولا أراه يُريد غيركم، وقد أحببت أن تكون لي عندكم يد بكتابي إليكم " واستأجر لإيصال كتابه إلى قريش امرأة يُقال لها سارة[٥].

واكتشف الرسول الأمر وطاب بعض الصحابة بإعدام حاطب إلا أن النبي ﷺ لم يوافق على اقتراح عمر، بل اتبع سبيل الصفح والعفو عنه لما له من مواقف مُشرفة في السبق إلى الإسلام والذود عنه[٦]. فقال رسول الله ﷺ:

---

(١) صفي الرحمن المباركفوري: الرحيق، مرجع سابق، ص٢٥٢.

(٢) حاطب بن أبي بلتعة: من مشاهير المهاجرين، شهد بدراً وكان رسول النبي ﷺ إلى المقوقس، صاحب مصر.وكان تاجراً في الطعام، له عبيد، وكان من الرماة الموصوفين وتوفى سنة ثلاثين هجرية (أنساب الأشراف (١ / ٢٠٢، و ٣٥٤).

(٣) صفوان بن أمية، ابن خلف بن وهب بن حدافة بن وهب القرشي، واحد من أشراف قريش، ومن فصحاء العرب. قُتل أبوه أمية بن خلف يوم بدر كافرًا، وقُتل عمه أبي بن خلف يوم أحد كافرًا بعد أن صرعه النبي، وكان صفوان واحدًا من المشهورين في إطعام الناس في قريش. هرب من رسول الله عام الفتح، ثم جاء فأسلم وحسن إسلامه، وكان الذي استأمن له عمير بن وهب الجمحي، وكان صاحبه وصديقه في الجاهلية، وقدم به في وقت صلاة العصر فاستأمن له فأمّنه رسول الله أربعة أشهر، واستعار منه أدرعاً وسلاحاً ومالاً.حضر صفوان حنيناً مشركاً، ثم أسلم ودخل الإيمان قلبه، فكان من سادات المسلمين كما كان من سادات الجاهلية. وشارك صفوان في الفتوحات الإسلامية في عهد أمير المؤمنين عمر وعهدعثمان بن عفان - رضي الله عنهما- قال الواقدي: ثم لم يزل مقيماً بمكة حتى توفي بها في أول خلافة معاوية في سنة ٤١ هجرية.

(٤) هو سهيل بن عمرو بن عبد شمس: من أشراف قريش وأفصحهم ، ومن أشد الناس عداوة للإسلام والمسلمين في صدر الإسلام، حارب الإسلام بيده وأسلم يوم الفتح ثم حسن إسلامه واستشهد يوم اليرموك، ١٥ (هـ./٦٣٦م).

(٥) سارة: مولاة لبعض بني عبد المطلب بن عبد مناف، وكانت مطربة بمكة طلبت من رسول الله المعونة، وكانت قد ارتدت عن الإسلام.

(٦) باشميل: فتح مكة، مرجع سابق، ص ١٢٨.

" وما يُدريك يا عمر، لعل الله قد اطلع إلى أصحاب بدر يوم بدر، فقال: اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم "[١].

ومن أعظم أنواع العفو الجميل وصوره؛ دعاءُ النبي ﷺ لغير المسلمين، وهو بعض رحمته ﷺ للعالمين، ومنه دعاؤه لقبيلة دوس، وقد قدم عليه الطفيل بن عمرو الدوسي وأصحابه فقالوا: يا رسول الله إن دوساً قد كفرت وأبت؛ فادع الله عليها، فقيل: هلكت دوس - أي ستهلك بدعائه عليها - فقال ﷺ: " اللهم اهد دوساً، وائت بهم" [٢].

حرصه ﷺ على أمن قواته

كان الرسول ﷺ الكريم يحرص على أمن قواته فكان يتخذ التدابير الأمنية في الإقامة والتحرك ودفع عناصر استطلاعه وعيونه في كل اتجاه وروى مسلم[٣] أن النبي ﷺ أرسل بَسْبَسة بن عمرو الأنصاري [٤] عينا، لتقصي أنباء عير أبي سفيان في غزوة بدر، وقد ذهب ﷺ بنفسه ومعه أبو بكر إلى بدر وقابلا رجلا وسألاه عن أخبار قريش وعرفا منه مكانهم، ولما كان الرجل قد شرط عليهما أن يعرف من هما قال النبي ﷺ أخيرا "نحن من ماء" ثم انصرفا عنه، وحار الرجل في معرفة هذا النسب، ولعل الرسول ﷺ يقصد أنهما خلقا من ماء. كما بعث عليا والزبير وسعد بن أبي وقاص مع جماعة إلى بدر لهذا الغرض، وقبل خروجه إلى بدر أرسل طلحة بن عبيد الله وآخر لذلك، وكانت سرية عبد الله بن جحش[٥] إلى نخلة[١] في رجب من السنة

---

(١) للمزيد، أنظر: تاريخ الطبري، ج٣، ص ٤٩.

(٢) رواه البخاري (٢٩٣٧)، ومسلم (٢٥٢٤).

(٣) مسلم (٢٠٤ – ٢٦١ هـ) هو الإمام أبو الحسين مسلم بن الحجاج بن مسلم القشيري النيسابوري، إمام أهل الحديث صنف رحمه الله في علم الحديث كتبا كثيرة منها كتابه الضخم: الجامع الصحيح الذي يعد من أصح كتب الحديث ومنها كتاب المسند الكبير على أسماء الرجال، الجامع الكبير على الأبواب، كتاب العلل توفي رحمه الله بنيسابور في رجب سنة إحدى وستين ومائتين [تذكرة الحفاظ ١٥٠/٢؛ وطبقات الحنابلة ٣٣٧/١؛ والاعلام للزركلي ١١٨/٨] .

(٤) هو بسبسة بن عمرو بن ثعلبة بن خرشة بن زيد بن عمرو بن سعد بن ذبيان بن رشدان بن غطفان بن قيس بن جهينة الجهني حليف بني طريف بن الخزرج بن ساعدة بن كعب بن الخزرج ويقال له بسبس بغيرها وهو قول ابن إسحاق.

(٥) هو الصحابي الجليل عبد الله بن جحش بن رئاب بن يعمر الأسدي، ابن عمة رسول الله (، وأخو السيدة زينب بنت جحش زوج رسول الله (، كان من السابقين إلى الإسلام، حيث أسلم قبل دخول النبي (دار الأرقم بن أبي الأرقم. وقد عذب في سبيل الله، إلى أن خرج مهاجرًا إلى الحبشة مع المسلمين المهاجرين إليها فرارًا بدينه، وفي غزوة أحد،، قاتل في سبيل الله، وأظهر الشجاعة والبسالة، حتى إن سيفه كسر من كثرة قتله للمشركين، وبعد طول قتال رزقه الله

الثانية للهجرة لاستطلاع أخبار قريش، وفي سنة أربع أو خمس من الهجرة بعث رسول الله ﷺ بريدة بن الخصيب الأسلمي ليعرف أخبار بني المصطلق عند ماء يسمى " المُرَيسيع ".

هذه وغيرها هي مكارم الأخلاق التي كان الرسول ﷺ يحرص على إتباعها، وعلى النصح بها والدعوة إليها، وقلما نجد حديثا من الأحاديث الشريفة خالة من موعظة حسنة ولا تكاد خطبة من خطبه المؤثرة تخلو من الدعوة إلى مكارم الأخلاق[٢].

تكريم النبي ﷺ لجنوده أحياء وأمواتًا[٣]

لقد أشرف رسول الله ﷺ على الشهداء فقال: " أنا شهيد على هؤلاء، إنه ما من جريح يُجْرَح في الله إلا والله يبعثه يوم القيامة، يَدْمَي جُرْحُه، اللون لون الدم، والريح ريح المِسْك"[٤].

قال عبد الله بن مسعود ﷺ: قمت من جوف الليل، وأنا مع رسول الله ﷺ في غزوة تبوك، قال: فرأيت شعلة من نار في ناحية العسكر، قال: فاتبعتها، أنظر إليها، فإذا رسول الله ﷺ وأبو بكر[٥] وعمر[٦]، وإذا عبد الله ذو البجادين[٧] المزني قد مات،

الشهادة في سبيله، على يد أبي الحكم بن الأخنس بن شريق، ودفن بجوار أسد الله حمزة في قبر واحد، بعد أن صلَّى عليه رسول الله ﷺ .

(١) نخلة: بين مكة والطائف (الحميري، الروض ٥٧٦، ياقوت، معجم ٥ / ٢٧٧).

(٢) حامد عبد القادر: الاسلام ظهوره مرجع سابق، ص ٢٢١.

(٣) لمزيد من المراجع، أنظر: سبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد" للصالحي (١٨٢/٤-٣٠٧)، و"زاد المعاد" لابن قيم الجوزية (١٩٢/٣-٢٤١)، و"الرحيق المختوم" للمباركفوري (٢٧٦-٣٢٤)، و"ابن هشام" (٢٣/٢-١٢٢)، و"عيون الأثر في سيرة خير البشر" لابن سيد الناس (٥/٢-٥٦).

(٤) ابن هشام ٢/ ٩٨.

(٥) أبو بكر الصديق (٥١ ق هـ – ١٣ هـ) هو عبد الله بن أبي قحافة عثمان بن عامر. من تيم قريش.وأول من آمن برسول الله صلى الله عليه وسلم. من أعاظم الرجال،وخير هذه الامة بعد نبيها.ولد بمكة،ونشأ في قريش سيداً،موسراً،عالماً بأنساب القبائل حرم على نفسه الخمر في الجاهلية، وكان مألفا لقريش،أسلم بدعوته كثيرين السابقين. صحب رسول الله صلى الله عليه وسلم في هجرته،وكان له معه المواقف المشهورة. ورسخ قواعد الإسلام. وجه الجيوش الى الشام والعراق ففتح قسم منها في أيامه. [الإصابة،ومنهاج السنة ١١٨/٣،و(أبو بكر الصديق) للشيخ علي الطنطاوي].

(٦) سبق ترجمته.

(٧) هو لقب الصحابي الجليل عبد الله بن عبد نهم (بذي البجادين)، وقد لقبه بذلك اللقب رسول الله ﷺ وذلك لأن قومه جردوه من كل ما يملك حتى ثيابه، فلم يبقوا عليه إلا بجاداً (و هو الكساء

وإذا هم قد حفروا له، ورسول الله ﷺ في حضرته، وأبو بكر وعمر يدليانه إليه، وهو يقول: «أدنيا إليَّ أخاكما» فدلياه إليه، فلما هيأه بشقه، قال: «اللهم إني أمسيت راضيًا عنه، فارض عنه» قال (الراوي عن ابن مسعود): قال عبد الله بن مسعود: يا ليتني كنت صاحب الحفرة.

فهذا الفعل مع ذي البجادين يدل على حرص النبي ﷺ على تكريم أصحابه حتى في حالة الوفاة؛ لأنهم قدموا أنفسهم للجهاد في سبيل الله تاركين وراءهم أعز ما يملكون، فكانت تلك الرعاية مظهرًا من مظاهر تكريمهم في الدنيا، حيث لم يترك جثثهم تتناوشها الذئاب وغيرها من دواب الأرض؛ لكي يكون هذا التكريم من الأسباب التي تدفع غيرهم إلى الاستبسال والإقدام في ميادين الجهاد [1].

التزام العدل

وأما عدله ﷺ فهو موضع إجماع، وقد روى الترمذي من حديث علي بن أبي طالب ﷺ: " أن الرسول ﷺ كان أعدل الناس، وكان معتدل الأمر غير مختلف، لا يقصر عن الحق ولا يجاوزه، قد وسع الناس بسطه وخلقه وصار لهم أباً، وصاروا عنده في الحق سواء ".

ومعنى ذلك أن الرسول ﷺ فاق جميع الناس في عدله وأن جميع أقواله وأفعاله كانت مثلاً في الاعتدال والاستواء، وأنه لم تُصدر منه أمور متخالفة يناقض بعضها بعضاً، وأنه لم يُقصر في إعطاء كل ذي حق حقه، ولم يتهاون في مطالبة الناس بأداء ما عليهم من واجبات وأن المسلمين في نظره سواء، وليس لأحد على غيره فضل في أخذ الحق وليس بين بعضهم وبعض فرق في عمال الواجبات[2].

نقل ابن هشام في سيرته أن رسول الله ﷺ كان يعدّل صفوف أصحابه يوم بدر وبيده قدح (سهماً) يعدل به القوم، فمر بسواد بن غزية[3] وهو مستنتل (متقدم) من الصف، فطعن في بطنه بالقدح وقال: استو يا سواد؟!، فقال: يا رسول الله أوجعتني

الغليظ- كيس غليظ-) فخرج مهاجراً إلى الله ورسوله فلما دنا من المدينة شق بجاده نصفين فأتزر بنصف وارتدى النصف الآخر ثم أقبل على رسول الله ﷺ فقال له: ﷺ: "أنت ذو البجادين" ... وقد توفي رضي الله عنه أثناء عودة المسلمين من تبوك فنزل رسول الله ﷺ في حفرته وقال: "اللهم إني أمسيت عنه راضياً فارض عنه سيرة ابن هشام (٤ / ١٠٤).

(١) أنظر، علي محمد الصلابي: السيرة، مرجع سابق، ص ٦١٤.

(٢) حامد عبد القادر: الاسلام ظهوره، مرجع سابق، ص ٢٢٨.

(٣) سواد بن غزية الأنصاري: من بني عدي بن النجار، وقيل: هو حليف لهم، من بني بلي بن عمرو بن الحاف بن قضاعة. شهد بدراً والمشاهد بعدها، وهو الذي أسر خالد بن هشام المخزومي يوم بدر، وهو كان عامل رسول الله ﷺ على خيبر، فأتاه بتمر جنيب، قد اشترى منه صاعاً بصاعين من الجمع (أنظر: أسد الغابة، باب السين) .

وقد بعثك الله بالحق والعدل فأقدني، فكشف رسول الله ﷺ عن بطنه وقال: استقد! فاعتنقه سواد فقبل بطنه، فقال: ما حملك على هذا يا سواد؟ قال: حضر ما ترى (من الحرب) فأردت أن يكون آخر العهد بك أن يمس جلدي جلدك.

التزام العدل مع الأعداء

ولمزيد من العدل والرحمة يوصي رسول الله ﷺ المسلمين بعدم التعرض للمستضعفين من غير المسلمين بالظلم والتسلط، فيقول: " لعلكم تقاتلون قوماً فتظهرون عليهم، فيتقوكم بأموالهم دون أنفسهم وذراريهم، فيصالحونكم على صلح، فلا تصيبوا منهم فوق ذلك، فإنه لا يصلح لكم"[١]

وفي غزوة خيبر مر رسول الله ﷺ بامرأة وقد قتلها خالد بن الوليد، والناس متقصفون (مزدحمون) عليها، فقال: ما هذا؟ قالوا: امرأة قتلها خالد بن الوليد، فقال رسول الله ﷺ لبعض من معه: أدرك خالداً فقل له: إن رسول الله ﷺ ينهاك أن تقتل وليداً، أو امرأة، أو عسيفاً[٢].

ولما كتب النبي كتاب صلحه لأهل نجران قال فيه: " ولا يغير حق من حقوقهم ولا سلطانهم ولا شيء مما كانوا عليه، ما نصحوا وأصلحوا فيما عليهم غير مثقلين بظلم ولا ظالمين"[٣].

التواضع

كان الرسول الكريم بريئاً من الكبرياء وكان يتحلى ﷺ بالتواضع في غير ذلة، وأبعد ما يكون عن صفة الغرور حتى مع أعدائه؛ ففي فتح مكة، خضعت مكة كلها تحت أقدام النبي فانحنى على راحلته شكراً لله حتى أوشك أن يسجد عليها، وهو يقول: "تائبون آيبون حامدون لربنا عابدون"، ثم أمره الله أن يستعد للرحيل عن الدنيا فقد أدى رسالته فيها، وتم له النصر والفتح[٤]

يقول ﷺ: " لا تطروني كما أطرت النصارى ابن مريم، وإنما أنا عبد فقولوا عبد الله ورسوله ".

يقول صلوات الله وسلامه عليه:

---

(١) رواه أبو داود (٣٠٥١).
(٢) سبق تخريجه.
(٣) أنظر: الطبقات الكبرى لابن سعد (١/ ٢٦٦).
(٤) سيد قطب: في ظلال القرآن،، ج٦، دار الشروق، ط١٦، القاهرة١٤١٠هـ /١٩٨٩ م، ص٣٩٩٧.

{ **إن الله أوحى إلي: أن تواضعوا حتى لا يفخر أحد على أحد و لا يبغي أحد على أحد** }[1].

وتذكر الروايات أن رجلاً كلمه ﷺ يوم الفتح؛ فأخذته رعدة لهيبته، فقال له الرسول الكريم " هون عليك فإنما أن ابن امرأة تأكل القديد "[2]

وذات مرة أخذ أبو دجانة السيف من يد رسول الله ﷺ وراح يتبختر بين الصفوف، فما أنكر عليه رسول الله ﷺ وإنما قال: " إن هذه مشية يكرهها الله إلا في مثل هذا الموضع " وهذا يدل على أن كل مظاهر الكبر المحرمة في الأحوال العامة، تزول حرمتها في حالات الحرب[3]

وبرغم انتصارات الرسول [ﷺ] العسكرية لم تثر هذه الانتصارات كبرياءه أو غروره، فقد كان يحارب من أجل الإسلام لا من أجل مصلحة شخصية، وحتى في أوج مجده حافظ الرسول [ﷺ] على بساطته وتواضعه[4].

كرمه ﷺ مع أعدائه

إن كرم النبي ﷺ عموماً مع أعدائه خصوصاً شئ فريد لم يرد له في التاريخ مثيل.

كان عبد الله بن أُبيّ عدواً ألد للإسلام، يقضي الليل والنهار في تدبير المؤامرات والمكايد للإسلام والمسلمين، والعمل على تأليب اليهود والعرب عليهم وعلى الرغم من ذلك صلى النبي عليه بعد موته، يطلب له من الله الرحمة والغفران، بل أنه خلع قميصه ليكفن عبد الله به. وعفا عن أهل مكة الذين طالما آذوه وعذبوه هو وأصحابه، ومن السهل تصور ما ينزله فاتح كمنتصر بمن عذبوه وطردوه ! ولكن رحمة النبي ﷺ لا حد لها نسى عذاب ثلاثة عشر سنة، وغفر لأهل مكة جميعاً وروت عائشة رضي الله عنها[5]

---

(١) رواه مسلم في صحيحه: الجنة وصفة نعيمها وأهلها (٧٣٨٩)، وأبو داود في السنن: الأدب (٤٨٩٧)

(٢) البخاري، عن عبد الله بن مقفل، والبهقي عن أنس ﷺ.

(٣) البوطي: فقه، مرجع سابق، ص ١٨٠.

(٤) واشنجتون إيرفنج: حياة محمد، ص ٧٢.

(٥) عائشة (٩ ق هـ /٥٨ هـ) هي عائشة الصديقة بنت أبي بكر الصديق عبد الله ابن عثمان. أم المؤمنين، وأفقه نساء المسلمين. كانت أديبة عالمة. كنيت بأم عبد الله. لها خطب ومواقف. وكان أكابر الصحابة يراجعونها في أمور الدين. وكان مسروق إذا روى عنها يقول: حدثتني الصديقة بنت الصديق. نقمت على عثمان ﷺ في خلافته أشياء، ثم لما قتل غضبت لمقتله. وخرجت على علي ﷺ، وكان موقفها المعروف يوم الجمل ثم رجعت عن ذلك، وردها علي إلى بيتها معززة مكرمة. [الإصابة ٤/٣٥٩؛ وأعلام النساء ٢/٧٦٠؛ ومنهاج السنة٢/١٨٢ ـ ١٩٨].

أنه ما انتقم أبداً لإساءة وقعت عليه شخصياً، وفي حالات نادرة أوقع العقاب بمرتكبي الإساءات، بعد أن يئس من إصلاحهم، وبعد أن بان غدرهم وخيانتهم، وبعد أن أيقن أن في تركهم تشجيعاً على الإساءة والطغيان، وقد شمل كرمه وبره ورحمته جميع الناس فلم يفرق بين يهودي ونصراني، بل أن كرمه شمل الوثنيين، فما قصر إحسانه على قومه[١].

ولا يوجد في تاريخ العالم، من يطمع في أن يصل إلى ما وصل إليه محمد ﷺ في تسامحه مع أعدائه، فإنه قد عامل أعدائه خير معاملة، فما عاقبهم على ما اقترفت أيديهم، فلما ذاع أمر فتنة عبد الله بن أُبي بين الأنصار والمهاجرين، اقترح عمر ضرب عنقه، فقال: " فكيف يا عمر إذا تحدث الناس وقالوا: إن محمدا يقتل أصحابه "[٢].

وهكذا نجد أن الرسول ﷺ قد التزم أمهات الفضائل منها: الحكمة، والعفة، والشجاعة، والعدل، بل أنه ﷺ كان مثلا أعلى في كل فضيلة من الفضائل الأساسية، وفي غيرها من الفضائل المتفرعة عنها، كالحلم والتواضع والكرم والعفو عند المقدرة[٣].

حقاً إنك لعلى خلق عظيم.. يظلمونك فتصبر، يؤذونك فتغفر، يشتمونك فتحلك، يسبّونك فتعفو، يجفونك فتصفح[٤].

معاملة لمن كان يفكر في قتله

وقد كان رسول الله يطوف بالبيت الحرام في مكة فأراد فضالة بن عمير أن يقتله، فلما دنا منه قال: أفضالة؟

قال: نعم، فضالة يا رسول الله.

قال الرسول: ما كنتَ تحدث به نفسك؟

قال: لا شئ، كنت أذكر الله عز وجل.

فضحك النبي ﷺ ثم قال: استغفر الله! ثم وضع يده على صدره فسكن قلبه، فكان فضالة يقول: والله ما رفع يده عن صدري حتى ما من خلق الله شئ أحب إلى منه.

---

(١) مولاي محمد علي: محمد رسول الله،، مرجع سابق، ص ٢٦٨.

(٢) نفسه، ص ٢٠٦.

(٣) حامد عبد القادر: الاسلام ظهوره، مرجع سابق، ص ٢٢٥.

(٤) نقلاً عن، عائض القرني: محمد ﷺ كأنك تراه، ط١، دار ابن حزم، بيروت، ٢٠٠٢ م / ١٤٢٢ هـ.

وكان أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب ممن اشتركوا في إيذاء، الرسول ومعاداته وسبه. وقد طلب الإذن عليه.

فقال الرسول: لا حاجة لي به وقد هتك عرضي ! وكان مع أبى سفيان ابن له، فقال: و الله ليأذنن لي، أو لآخذن بيد ابني هذا لنذهبن في الأرض، وحتى تموت عطشاً وجوعا. فلما بلغ رسول الله ذلك رقَّ له، فدخل عليه وعفا عنه.

أخلاقيات القيادة وفتح مكة

السيرة التي عهدناها عن أغلب القادة والزعماء أنهم عندما يصلون للسيادة والقيادة يفتكون أولا برجالات العهد السابق وثانياً يعمدون على غلق جميع النوافذ التي يمكن أن تتنفس منها الأطراف المخالفة والمعارضة، ولكن رسول الله(ﷺ) وهو المسدد من قبل السماء والمتقدم نحو مكة بجيش عظيم ماذا تراه فاعلاً بأقطاب الشرك والكفر؟ فقد منّ عليهم بعد أن آذوه ولم يتركوا طريقاً للقضاء عليه وعلى أتباعه وعلى دعوته إلا سلكوها[1] وتفننوا في وسائل التعذيب الوحشي البدني والنفسي ضد الرسول ﷺ وأتباعه.

لكننا نجده يطمأنهم بأن قال من دخل بيت أبو سفيان فهو آمن. (وقال لبعضهم ما تظنون؟ وما انتم قائلون؟) فقال سهيل بن عمرو نقول خيراً ونظن خيراً، أخ كريم وابن عمّ.

فقال ﷺ: فإني أقول لكم كما قال أخي يوسف (عليه السلام): لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين.. اذهبوا فأنتم الطلقاء) [2].

---

(١) مصطفى السباعي: السيرة النبوية، دروس وعبر، ط١، دار السلام، ١٩٩٨، ص ٧٨.

(٢) أنظر: سنن البيهقي الكبرى، ١١٨/٩، برقم ١٨٠٥٥، وسيرة ابن هشام: ٤ / ٤١ وأورده السيوطى فى الدر المنثور ٣٤/٤.

(لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم وهو ارحم الراحمين) [1]. ذهبوا فانتم الطلقاء [2].

هذه أخلاق القيادة التي غابت وغُيبت ولم نر وجوداً لها اليوم.

النبالة الشريفة

وما كان من استعارة الرسول ﷺ من صفوان وهو مشرك مائة درع مع ما يكفيها من السلاح، فقد استعار الرسول ﷺ من صفوان السلاح بعد فتح مكة، وكان صفوان من الضعف والهوان بحيث لا يقوى على فرض الشروط على رسول الله ﷺ، يدل على ذلك قوله للرسول ﷺ حين طلب منه ذلك: أغَصباً يا محمد؟ فأجابه الرسول ﷺ: بل عاريةً مضمونةً حتى نُؤديها إليك.

وفي هذا أيضاً مثلٌ من أمثلة النبل في معاملة المسلمين لأعدائهم المنهزمين، فلو أن رسول الله ﷺ أراد أن يأخذها منه غصباً لاستطاع، ولما قدر صفوان أن يقول شيئاً، ولكنه هدي النبوة في النصر ومعاملة المغلوبين، والعف عن أموالهم بعد أن تنتهي المعركة ويلقوا السلاح [3] .

التعبئة الروحية

والتعبئة الروحية كفيلة بأن تجعل الأمة في جهادها كالبنيان المرصوص، وهي قوة دافعة نحو الثبات في لقاء العدو، والإقدام في شجاعة نحو تحقيق النصر والرسول ﷺ بلا منازع أستاذ فن التعبئة الروحية لرجاله الذين قدموا أنفسهم وأموالهم ابتغاء مرضاة الله ورسوله عن طيب خاطر ونفس راضية مرضية.

الحلم والصبر [4]

كان ﷺ أعظم الناس حلما في غير ضعف وأكثرهم صبراً على أذى في غير استكانة [5] اعتدى عليه المشركون في أُحد فأسالوا دمائه وشجوا رأسه [1] وجرحوا

---

(١) سورة يوسف: آية ٩٢.
(٢) البلاذري: فتوح البلدان ص٥٤، البيهقي: السنن الكبرى، ج٩، ص١١٨.
(٣) مصطفى السباعي: السيرة النبوية، دروس وعبر، ط١، دار السلام، ١٩٩٨، ص ٨٠.
(٤) الصبر: الإمساك في ضيق، يقال: صبرت الدابة: حبستها بلا علف، وصبرت فلانا: خلفته خلفة لا خروج له منها، والصبر: حبس النفس على ما يقتضيه العقل والشرع، أو عما يقتضيان حبسها عنه، يقول تعالى: ﴿والصابرين في البأساء والضراء﴾ [البقرة/١٧٧]، ﴿والصابرين على ما أصابهم﴾ [الحج/٣٥]، ﴿والصابرين والصابرات﴾ [الأحزاب/٣٥]، انظر: مجمع الزوائد ١٩٩/٣؛ والمسند ١٥٤/٥)، ومجاز القرآن ٦٤/١؛ ومعاني القرآن للفراء ١٠٣/١).
(٥) حسين محمد يوسف: من أخلاق الرسول ﷺ، مكتبة نور الهدى، القاهرة ١٩٩١ م / ١٤١٢ هـ، ص ٦٣.

وجنته[٢] وكسروا رباعيته[٣] (السن المجاورة للناب) ومع ذلك لم يفقده ذلكم الاعتداء شيئاً من حلمه ولم يخرجه قيد شعرة عن طوره فأخذ يمسح الدم عن وجهه الشريف ويقول " اللّهم اهدِ قومي فإنهم لا يعلمون "[٤]"وواجه التجربة القاسية المريرة في ثبات المؤمن الحق.

ولما طلب منه أن يلعنهم قال ﷺ **"إنما بعث رحمة ولم أبعث لعاناً"**[٥] ولكنى بعثت داعياً ورحمة. اللهم أرحمهم، ودعا لهم ومضى يضمد الجراح ويسد الثغرات وينتصر على الهزيمة.

وعرف الرسول العظيم بالحلم والصبر على المكروه، فكان يمتلك الصبر والعزيمة الصادقة، ومن أحاديثه الشريفة قوله إنما الصبر عند الصدمة الأولى"[٦].

يقول ﷺ " ليس الشديد بالصرعة، إنما الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب"[٧].

ويقول أيضاً " ما من جرعة أعظم عند الله من جرعة غيظ كظمها عبد ابتغاء وجه الله "[٨].

فقد كان النبي ﷺ مثلاً أعلى في الصبر على البأساء، والشكر[٩] على النعماء فمع كثرة ما أوذي المصطفى كان صبورا كثير الحلم والاحتمال. قالت عائشة ما خُير

---

(١) ذكر ابن هشام من حديث أبي سعيد الخدري أن عبد الله بن شهاب الزهري هو الذي شجه في جبهته.

(٢) ذكر ابن هشام من حديث أبي سعيد الخدري أن ابن قميئة هو الذي جرح وجنته.

(٣) ذكر ابن هشام من حديث أبي سعيد الخدري أن عتبة بن أبي وقاص هو الذي كسر رباعيته اليمنى السفلى.

(٤) البخاري، الفتح كتاب الأنبياء، باب حديث الغار (٥٩٣/٦) رقم (٣٤٧٧) والجامع الصحيح (٣٤٧٧).

(٥) رواه مسلم عن أبي هريرة ﷺ كتاب البر والصلة والآداب، حديث رقم: (٢٥٩٩).

(٦) أخرجه البخاري في كتاب الجنائز: باب زيارة القبور(الفتح٣/٤٩٢-٤٩٣ برقم١٢٨٣)، وباب الصبر عند الصدمة الأولى(الفتح٣/٥٢٣برقم ١٣٠٢)، وأخرجه مسلم في كتاب الجنائز: باب في الصبر على المصيبة عند الصدمة الأولى(٦٣٧/٢برقم٩٢٦).

(٧) البخاري (٥٧٦٣)، مسلم (٢٦٠٩).

(٨) للمزيد أنظر، عبد العظيم بن عبد القوي المنذري: الترغيب والترهيب من الحديث الشريف.م٢ ج٣-الحياة بيروت١٩٨٧.ص٢٨٩ الجصاص: احكام القران. ج٣، ص٤٦،٤٧.القرطبي: الجامع الاحكام القران ج٤، ص٢٠٦-٢٠٧ الحسن بن محمد حيسن القمي النيسابوري: تفسير الغرائب الفرقان في حاشية: ابي جعفر محمد بن جرير الطبري: جامع البيان في تفسير القران م٣،ج٣ دار الحديث القاهرة ١٩٨٧،ص٧٥-٧٦ ابو عبدالله محمد بن الازرق الاندلسي: بدائع السلك في طبائع الملك. دراسة وتحقيق الدكتور محمد بن عبدالكريم ج١ الدار العربية للكتب. ليبيا-تونس ص٤٣٣-٤٤٧.

(٩) الشكر في اللّغة: عرفان الإحسان ونشره، أو هو: الاعتراف بالنّعمة على جهة التّعظيم للمنعم، أو هو: الثّناء على المحسن بما قدّم من المعروف، أو هو: الاعتراف بالنّعمة وفعل ما يجب لها،

رسول الله ﷺ في أمرين قط إلا اختار أيسرهما ما لم يكن إثما، فإن كان إثما كان أبعد الناس عنه. ما انتقم لنفسه إلا أن تنتهكَ حرمة الله، فينتقم لله بها.

وكان الاعتداء بالفعل واقع عليه ﷺ وعلى أصحابه رضي الله عنهم، والاعتداء على العقيدة بأن وقف الملوك محاجزين دون الدعوة وأرهقوا ممن اختاروا الإسلام في عقيدتهم واضطهدوهم لإجبارهم على الارتداد[١]. ومع ذلك صبروا واحتسبوا.

ونجد صبره في كافة حروبه في بدر وفي أحد وفي الخندق وفي الفتح وفي حنين وفي الطائف[٢] وفي تبوك، فلم يجبن ولم ينهزم، ولم يفشل، ولم يكل ولم يمل حتى خاض حروبًا عدة، وقاد سرايا عديدة، فقد عاش من غزوة إلى أخرى طيلة عشر سنوات، فأيّ صبرٍ أعظم من هذا الصبر؟.

وحسبك صبره على قسوة قريش[٣]، وأذى أهل الجاهلية، فلما نصره الله عليهم وحكمه فيهم وقف على باب الكعبة وقال: " لا إله إلا الله وحده، لا شريك له، صدق وعده، ونصر عبدَه، وهزم الأحزاب وحده....، يا معشر قريش، إن الله قد أذهبَ عنكم نخوة الجاهلية، وتعظمها بالآباء. الناسُ من آدم، وآدمُ خلق من تراب. ثم تلا: " يا أيها الناسُ إنَّا خلقناكم من ذكرٍ وأُنثَى، وجعلناكم شُعوباً وقبائل لِتَعارفوا؛ إن أكرمكم عند الله أتقاكم ".

يا معشر قريش، ما ترون أنى فاعل بكم ؟

قالوا: خيرا. أخ كريم، وابن أخ كريم.

قال: اذهبوا فأنتم الطلقاءُ[٤]. أقول كما قال أخي يوسف:" لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم. وهو أرحم الراحمين ".

فعظمة محمد ﷺ تبدو في بعده كل البعد عن الغضب والانتقام، وتمسكه بالعفو عند المقدرة [١] فكان يتمتع ﷺ بالعزيمة الصادقة والصبر الجميل في المعارك وكان يربي ملكة الصبر ويبثها في روح أتباعه المخلصين.

يقال: شكرت لله أي اعترفت بنعمته وفعلت ما يجب من الطّاعة وترك المعصية، أو هو: مقابلة النّعمة بالقول والفعل والنّيّة، فيثني على المنعم بلسانه، ويذيب نفسه في طاعته، ويعتقد أنّه مولّيها. ولا يخرج المعنى الاصطلاحيّ عن ذلك، واختلف في الصّلة بين الشّكر والحمد، فقيل: إنّهما بمعنًى واحد، وقيل: إنّ الشّكر أعمّ من الحمد، لأنّه باللّسان وبالجوارح وبالقلب، والحمد إنّما يكون باللّسان خاصّةً، وقيل: الحمد أعمّ. قال القرطبيّ: الصّحيح أنّ الحمد ثناء على الممدوح بصفاته من غير سبق إحسان، والشّكر ثناء على المشكور بما أولى من الإحسان، وعلى هذا الحدّ قال علماؤنا: الحمد أعمّ من الشّكر.

(١) محمد أبو زهرة: العلاقات الدولية في الاسلام، الدار القومية للطباعة والنشر. القاهرة ١٩٦٤/ ١٣٨٤ هـ، ص٥٠.

(٢) الطائف: جنوب شرقي مكة المكرمة، وهي ذات مزارع ونخيل وأعناب (الحميري، الروض ٣٧٦، ياقوت، معجم ٤ / ٩).

(٣) الابراشي: عظمة الرسول، مرجع سابق، ص ٢٨٧.

(٤) أنظر: سنن البيهقي الكبرى، ١١٨/٩، برقم ١٨٠٥٥، وسيرة ابن هشام: ٤ / ٤١.

رشـــيد الزمـــر ذو حكـــم وعلـــم وحلـــم لـــم يكـــن نزقـــاً خفيفـــا[٢]

ففي غزوة الأحزاب اشتد الضيق بالمسلمين، وزلزلوا زلزالاً شديداً؛ ولكن الرسول ﷺ ثبتهم، ووعدهم بالنصر.

وفي غزوة تبوك آيات بينات على ما يفعله الإيمان الصادق في نفوس المؤمنين من إثارة عزائمهم للقتال واندفاع أيديهم في بذل المال ومن استعذابهم الحر والعناء والتعب الشديد في سبيل الله ومرضاته [٣].

وهكذا دل حلمه الواسع، واحتماله الطويل، على بُعد نظر وكمال تدبير، وحُسن تصرف، وكياسة عقل [٤].

التفاؤل

كان الرسول ﷺ متفائلاً حتى في أحلك الظروف وهل هناك ظروف أقصى من ظروف معركة الأحزاب، لقد تجمعت جيوش المشركين بدعوة اليهود واشتراكهم ومؤامراتهم من أجل القضاء على الإسلام، وكان الإسلام لا يكاد يعدو المدينة المنورة.

وكان في المدينة منافقون ومع كل الظروف التي أحاطت بالمسلمين في هذه الغزوة الذي يعرفها في شدتها وقسوتها كل من قرأ السيرة، فإن رسول الله ﷺ كان متفائلاً وقد حدث ما يلي مما يدل على مدى تفاؤل الرسول ﷺ بالنصر.

يقول ابن إسحاق[٥]: (وقد كان في حفر الخندق أحاديث بلغتني من الله فيها عبرة، في تصديق رسول الله ﷺ وتحقيق نبوته، عاين ذلك المسلمون وهذا الذي قاله ابن إسحاق حق كله، ذلك لأن رسول الله ﷺ، قسم الحفرة بين المسلمين وجعل لكل عشرة أربعين ذراعا يحفرونها من لطيف ما حدث أن المهاجرين والأنصار تنازعوا سلمان الفارسي، فكان كل منهم يقول:سلمان منا، فقال رسول الله ﷺ: سلمان منا أهل البيت[٦]، ولقد كان سلمان، عمرو بن عوف وحذيفة، والنعمان بن مقرن، وستة من الأنصار في أربعين ذراعا، فحفروا حتى إذا بلغوا الندى " الأرض الطيبة " ظهرت لهم صخرة بيضاء مروة (براقة تقدح منها النار) فكثرت حديدهم وشقت عليهم فذهب سلمان، إلى الرسول ﷺ فأخبره عنها فجاء رسول الله ﷺ فأخذ المعول من سلمان،

---

(١) الابراشي: عظمة الرسول ، مرجع سابق، ص ٢٨٨.
(٢) ديوان كعب بن مالك الأنصاري: تحقيق: سامي العاني، مطبعة النهضة، بغداد، ص ٢٣٦.
(٣) أنظر: مصطفى السباعي: السيرة النبوية، دروس وعبر، مرجع سابق، ص ٧٧.
(٤) أبو الخشب: الإسلام ومنهجه، مرجع سابق، ص ٣١.
(٥) أنظر: البداية والنهاية، الجزء ٤، صفحة ٩٧.
(٦) أنظر: رواه الحاكم في المستدرك (٥٩٨/٣)، والطبراني (٢٦١/٦).

وقال: باسم الله، وضرب الصخرة ضربة صدعها، وبرقت منها برقة أضاءت فقال رسول الله ﷺ الحمد لله، فتحت فارس، والله إني لأري (المدائن) وقصرها الأبيض من مكاني هذا، ثم قال: باسم الله وضرب الثانية فصدعها مرة أخرى وبرقت منها فقال رسول الله ﷺ الحمد لله، فتحت الشام والله إني لأري قصورها الحمر من مكاني هذا ثم قال: باسم الله وضرب الثالثة فصدعها صدعا انهارت منها فقال الحمد لله فتحت اليمن والله إني لأرى صنعاء من مكاني هذا فقبل المسلمون تكبيرة فتح واستبشروا وقالوا: الحمد لله، موعود صادق وهذا حقا موعود صادق وتحقق ما بشر به رسول الله ﷺ[1].. إنها بشرى وإنها معجزة، وهي تفاؤل لا مرية فيه[2].

الرسول ﷺ وأسرى[3] الحرب

عندما ظَهر الإسلام كان وضع أسرى الحرب في الممالك المجاورة وفي شبه الجزيرة العربية وفي كل بقاع الأرض لا يخرج عن أحد أمرين: إما قتلهم، أو إسترقاقهم[4]. ولكن بعد ظهور الإسلام ونبي الرحمة اختلف الأمر.

فقد حث رسول الله ﷺ على الرفق بالأسرى فقال: [**إستوصوا بالأسارى خيراً**][5].

قال البيضاوي[6] الاستيصاء قبول الوصية والمعنى أوصيكم " بالأسارى خيراً) أي افعلوا بهم معروفاً ولا تُعذبوهم بشد الوثاق فوق الحاجة وأطعموهم واسقوهم[1].

---

(١) للمزيد: أنظر: ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج٢، تحقيق: عمر عبد السلام تدمري، دار الكتاب العربي.

(٢) أنظر: عبد الحليم محمود: الجهاد، مرجع سابق، ص ١٧٨.

(٣) قال ابن منظور: يقال: أَسَرْتُ الرجلَ أَسْرًا وإِسارًا، فهو أَسِير ومأْسور، والجمع أَسرى وأُسارى، وتقول: اسْتَأْسِرْ أَي كُنْ أَسيرًا لي، والأَسيرُ: الأَخِيذُ، وأَصْله من ذلك .وكلُّ محبوس في قِيدٍ أَو سِجْنٍ: أَسيرٌ.

(٤) أمين الساعاتي: محمد صلى الله عليه وسلم، المركز السعودي للدراسات الاستراتيجية، ط١، ص ١٤٤.

(٥) رواه الطبراني في الصغير والكبير وإسناده حسن كما في مجمع الزوائد (١٠٠٠٧)، وذكر ابن هشام هذه الوصيّة في سيرته (سيرة ابن هشام ج٢ ص٢٥١).

(٦) البيضاوي (؟ - ٦٨٥ هـ): هو عبد الله بن عمرو بن محمد بن علي، ناصر الدين، أبو سعيد، البيضاوي نسبة الى البيضاء قرية من عمل شيراز. فقيه مفسر، أصولي، محدث، قضاء القضاة بشيراز، من تصانيفه:: (منهاج الأصول الى علم الوصول)، و(الغاية القصوى في دراسة الفتوى) في فروع الفقه الشافعي، و(أنوار التنزيل وأسرار التأويل) وهو المشهور بتفسير البيضاوي [طبقات الشافعية ٥٩/٥،، والبداية والنهاية ٣٠٩/١٣، ومرآة الجنان ٢٢٠/٤، ومعجم المؤلفين ٩٧/٦].

وقد أوصى (ﷺ) أصحابه بيوم بدر أن يكرموا الأسرى فكانوا يقدمونهم على أنفسهم عند الطعام. إنه نهر الرحمة، وينبوع الحنان [٢].

وكان رسول الله ﷺ يقوم بنفسه بشئونهم ويتعهدهم ويرفق بهم فكانت رحمته أسبق من غضبه، وحلمه وعفوه ورفقه أسبق من انتقامه.

وقال الحسن: (وكان رسول الله ﷺ يؤتى بالأسير فيدفعه إلى بعض المحسنين، فيقول: أحسن إليه. فيكون عنده اليومين والثلاثة، فيؤثره على نفسه) [٣].

ويذكر [٤] (أبو عزيز) أخو مصعب بن عمير، وكان من أسرى غزوة بدر: (وكنت [٥] في رهط من الأنصار حين أقبلوا من بدر، فكانوا إذا قدّموا غداءهم وعشاءهم خصوني بالخبز وأكلوا التمر، لوصية رسول الله ﷺ إياهم بنا، ما تقع في يد رجل منهم كسرة خبز إلاّ نفحني بها. وقال: فأستحيي فأردّها على أحدهم، فيردّها ما يمسّها) [٦] وكان الخبز عندهم أنفس من التمر، لندرة القمح وكثرة التمر، فلهذا كان إيثار الأسير بالخبز من باب الإكرام والحفاوة.

وذكر ابن كثير أنّ رسول الله ﷺ [أمر أصحابه يوم بدر أن يكرموا الأسرى، فكانوا يقدمونهم على أنفسهم عند الغداء] [٧].

ويجعل الرسولُ الكريم ﷺ من قيم الإسلام الفاضلة، ومكارم الأخلاق :إطلاق سراح الأسير، ويبدأ بنفسه [٨] فهو القدوة ﷺ فيطلقُ أسرى أَعدى أعدائه في أول معركة من معارك الإسلام الفاصلة وهو يوم الفرقان، حيث أطلق صلوات ربي وسلامه عليه أسرى فقراء قبيلة بني مخزوم رهط فرعون عصر النبوة: أبي جهل:

---

(١) أنظر: فيض القدير، ج١، ص ٥٠٢.
(٢) محمود المصري: سيرة الرسول ﷺ، ط١، مكتبة الصفا، ٢٠٠٥ م، ص ٢٨١.
(٣) تفسير الكشّاف للزمخشري (٥٤٣/٤).
(٤) أنظر: الطبري، تاريخ الرسل والملوك، تحقيق أبو الفضل ابراهيم، دارالمعارف، القاهرة، ١٩٦٠ م.
(٥) رواه الطبراني، واللفظ للطبري في التاريخ وابن هشام في السيرة.
(٦) أنظر: سيرة ابن هشام (٣ / ٥٤).
(٧) تفسير ابن كثير (٤ / ٤٥٤).
(٨) محمد صالح محي الدين: معاملة الأسرى من واقع السيرة النبوية، ورقة عمل مقدمة ضمن ندوة السيرة النبوية: قراءة في جانب العلاقات الدَّولية، مركز بحوث القرآن الكريم والسُّنَّة النبوية، ط١، ٢٠٠٦ / ١٤٢٧ هـ.

عمرو بن هشام[١] . ويقول ﷺ حاثاً أصحابه على إطلاق سراح أسراهم من الكافرين: فيما رواه أبو موسى الأشعري[٢] ﷺ:

{**فكوا العاني، وأجيبوا الداعي، وأطعموا الجائع، وعودوا المريض**} [٣].

يروي الإمام السرخسي عن أسرى بني قريظة[٤] قول الرسول الكريم: {لا تجمعوا عليهم حرّ الشمس وحرّ السلاح، قيِّلوهم حتّى يبردوا} [٥].

وقال{ أحسنوا أسراكم وقَيِّلوهم واسقوهم} [٦].

وقد نهى رسول الله ﷺ عن إلحاق الأذى بالأسرى فعن صهيب أن أبا بكر مر بأسير له يستأمن له من رسول الله ﷺ وصهيب جالس في المسجد فقال لأبي بكر من هذا الذي معك؟ قال: أسير لي من المشركين أستأمن له من رسول ﷺ، فقال صهيب: لقد كان في عنق هذا موضع للسيف، فغضب أبو بكر، فرآه النبي ﷺ فقال مالي أراك غضبان؟ قال مررت بأسيري هذا على صهيب، فقال: لقد كان في رقبة هذا موضع السيف، فقال النبي ﷺ: فلعلك آذيته، فقال: لا والله، فقال: {لو آذيته لآذيت الله ورسوله} [٧].

حتى القتلى في الإسلام لهم حقوق فيدفن قتلى الكفار في المعارك ولا يُتركوا في الشوارع حتى تأكل منهم الحيوانات.

---

(١) أبو جهل هو عمرو بن هشام بن المغيرة بن عبدالله بن عمر بن مخزوم ويكنى أيضاً بأبو الحكم دعا رسول الله - ﷺ- في الحديث: عن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺدعا عشية الخميس فقال: (اللهم أعز الإسلام بعمر بن الخطاب أو بعمرو بن هشام) فأصبح عمر يوم الجمعة فأسلم. أخرجه الطبراني في الأوسط أيضاً، ولم يسلم أبو جهل قط. وسماه رسول الله محمد ﷺ فرعون هذه الأمة (أنساب الأشراف (١ / ١٢٤).

(٢) أبو موسي الأشعرى (٢١ق هـ - ٤٤ هـ) هو عبد الله بن قيس بن سليم. من الاشعرين، ومن أهل زبيد باليمن. صحابي من الشجعان الفاتحين الولاة.قدم مكة عند ظهور الإسلام، فاسلم، و هاجر إلي الحبشة. واستعمله النبي ﷺ علي زبيد و عدن. وولاه عمر بن الخطاب البصرة سنة ١٧ هـ فافتتح أصهبان والأهواز، ولما ولي عثمان أقره عليها، ثم ولاه الكوفة،وأقره علي، ثم عزله. ثم كان احد الحكمين، رجع إلي الكوفة وتوفي بين علي ومعاوية. وبعد التحكيم رجع إلي الكوفة وتوفي بهـا [الأعلام للزركلي ٤/٢٥٤؛ والإصابة؛ وغاية النهاية ١/٤٤٢].

(٣) البخاري، (٤٨٧٩).

(٤) أنظر، شرح السير الكبير: ٢/٥٩١. تحقيق صلاح الدين المنجد. الشركة الشرقية ١٩٧١م / ١٣٩١ هـ.

(٥) الواقدي: المغازي ٢-٥١٤،) و شرح السير الكبير لمحمّد بن الحسن الشيباني ٣-١٠٢٩ و فتح الباري ١-٥٥١ والنووي شرح صحيح مسلم ١٣-٨٧.

(٦) أنظر، المقريزي: إمتاع الأسماع (١-٢٤٨).

(٧) أخرجه الطبراني في الكبير، جـ ٨، ص ٣٦.

وقد عنون[1] الإمام "البخاري"[2] بابًا كاملاً أسماه (باب الكسوة للأسارى)، وهو دليل قائم على أهمية ما يحتويه المعْلم من معنى، قال: "حدثنا عبد الله بن محمد حدثنا بن عيينة عن عمرو سمع جابر بن عبد الله- رضي الله عنهما- قال: لما كان يوم بدر أُتي بأسارى وأُتي بالعباس ولم يكن عليه ثوب فنظر النبي ﷺ له قميصًا، فوجدوا قميص عبدالله بن أبيّ يقْدُر عليه فكساه النبي ﷺ إياه فلذلك نزع النبي ﷺ قميصه الذي ألبسه."

قال الحافظ في الفتح" : قوله: (يقْدُر عليه) بضم الدال، وإنما كان ذلك؛ لأن العباس كان بيِّن الطول" [3].

وعن سالم عن أبيه قال بعث النبي ﷺ خالد بن الوليد إلى بني جذيمة فدعاهم إلى الإسلام فلم يحسنوا أن يقولوا أسلمنا، فجعلوا يقولون صبأنا، وجعل خالد قتلاً وأسرًا، قال فدفع إلى كل رجل أسيره حتى إذا أصبح يومنا أمر "خالد بن الوليد" أن يقتل كل رجل منا أسيره، قال ابن عمر فقلت والله لا أقتل أسيري ولا يقتله أحد، قال فقدمنا على النبي ﷺ فذكر له صُنْع "خالد" فقال النبي ﷺ ورفع يديه اللهم إني أبرأ إليك

---

(١) أحمد الصادق البشير: معاملة الأسرى في الاتفاقات الدولية، ورقة عمل مقدمة ضمن ندوة السيرة النبوية: قراءة في جانب العلاقات الدَّولية، مركز بحوث القرآن الكريم والسُّنَّة النبوية، ط١، ٢٠٠٦ م / ١٤٢٧ هـ.

(٢) الإمام البخاري(١٩٤-٢٥٦ هـ/٨١٠-٨٦٩م) هو محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة بن بردزبه البخاري. ولد سنة أربع وتسعين و مئة للهجرة. ويروى أن الإمام البخارى قد عميَ في صغره، فرأت أمّه رؤيا جائها فيها الخليل إبراهيم عليه السلام وقال لها يا هذه قد رد الله على ابنك بصره لكثرة بكائك فأصبحت وقد شفى ابنها. واشتهر الإمام البخارى بقوة حفظه ودقته في الرواية وصبره على جمع الحديث. كانت بخارى آنذاك مركزًا من مراكز العلم تمتلئ بحلقات المحدِّثين والفقهاء، واستقبل حياته في وسط أسرة كريمة ذات دين ومال؛ فكان أبوه عالمًا محدِّثًا، عُرِف بين الناس بحسن الخلق وسعة العلم، وكانت أمه امرأة صالحة، لا تقل ورعًا وصلاحًا عن أبيه. والبخاري ليس من أرومة عربية، بل كان تركي الأصل (أو فارسي الأصل). نشأ البخاري يتيمًا؛ فقد تُوفِّيَ أبوه مبكرًا، لكن أمة تعهدتة بالرعاية والتعليم،و دفعته إلى العلم و حبيبة فيه؛ فشب مستقيم النفس، عفَّ اللسان، كريم الخلق، مقبلا على الطاعة، وما كاد يتم حفظ القرآن حتى بدأ يتردد على حلقات المحدثين. وفي هذه السنِّ المبكرة مالت نفسه إلى الحديث، ووجد حلاوته في قلبه؛ فأقبل عليه محبًا، حتى إنه ليقول عن هذه الفترة: "ألهمت حفظ الحديث وأنا في المكتب (الكُتّاب)، ولي عشر سنوات أو أقل". كانت حافظته قوية، وذاكرته لاقطة لا تُضيّع شيئًا مما يُسمع أو يُقرأ، وما كاد يبلغ السادسة عشرة من عمره حتى حفظ كتب ابن المبارك، ووكيع، وغيرها من كتب الأئمة المحدثين [الاعلام للزركلي ٢٥٨/٥؛ وتذكرة الحفاظ ١٢٢/٢؛ وتهذيب التهذيب ٤٧/٩؛ وطبقات الحنابله لابن ابي يعلي ٢٧١/١ – ٢٧٩؛ وتاريخ بغداد ٤/٢-٣٦].

(٣) فتح الباري: ١٤٤/٦. تحقيق فؤاد عبد الباقي ومحب الدين الخطيب. دار المعرفة. بيروت . 1379هـ / ١٩٥٩ م.

مما صنع "خالد" وفي حديث بشر فقال :{اللهم إني أبرأ إليك مما صنع خالد} مرتين[١] .

ويتجلى منهج الرحمة في سيرته العطرة ﷺ حتى مع الأسرى من أعدائه الشانئين: هذه قبيلةُ بني قينقاع اليهودية بالمدينة، كانت أولَ قبائل اليهود نقضاً لسائر عهودها مع رسول الله ﷺ، وقالت وفعلت كل مذكر وقبيح، فلما تجاوزت في ذلك الحد، وهددت أمن الدولة والمواطنين، ولم يجد معها تحذير ولا إنذار، حاصرها الرسول ﷺ ثم وقعت أسيرة في قبضته بعد حين، فكيف عاملها ﷺ على تلك الجرائم التي تكفي كل واحدة منها للقضاء عليها درءاً لخطرها عن المسلمين؟ فك ﷺ إسارها، واكتفى في عقابها بإجلائها عن مجتمع المسلمين[٢] .

وبخصوص جثث القتلى في ممارسة" الجهاد"، فلم يرد عن النبي ﷺ أنه ترك جثة بعد القتال دون أن يأمر بمواراتها؛ فقد أمر بمواراة قتلى قريش في "غزوة بدر"، حتى قال الإمام ابن حزم" :دَفن الكافر الحربي وغيره: فرض؛ لأن ترك الإنسان لا يُدفن مُثْلَة"، وقد صحَّ أن النبي ﷺ نهى عن المُثْلَة[٣] (التمثيل بجثث العدو).

الفداء

وقد عامل الرسول ﷺ أسرى بدر معاملة حسنة، ذلك بأن وزع الأسارى السبعين على أصحابه، وأمرهم أن يحسنوا إليهم[٤] ، فكانوا يفضلونهم على أنفسهم في طعامهم. ثم قام رسول الله ﷺ بفداءهم بالمال وكانوا سبعين رجلاً[٥] على أن يقوموا بتعليم جماعة من المسلمين الكتابة[٦] .

---

(١) رواه النسائي. كتاب آداب القضاة .باب الرد على الحاكم إذا قضى بغير حق.
(٢) محمد صالح محي الدين: معاملة الأسرى من واقع السيرة النبوية، ورقة عمل مقدمة ضمن ندوة السيرة النبوية: قراءة في جانب العلاقات الدَّولية، مركز بحوث القرآن الكريم والسُّنَّة النبوية، ط١، ٢٠٠٦ م / ١٤٢٧ هـ.
(٣) سبق تخريجه.
(٤) أحمد محمد الحوفي: سماحة الاسلام، الهيئة المصرية للكتاب، ١٩٩٧، ص ٦١.
(٥) رواه أبو داود والنسائي والحاكم ورجاله ثقات إلاّ أبا العنبس، كما ورد في كتاب السيرة.
(٦) زاد المعاد لابن القيم (٦٥/٥).

وقد فادى ﷺ رجلين من المسلمين بالرجل الذي أخذه من بني عقيل[١]، وفادى بالمرأة التي استوهبها من سلمة بن الأكوع[٢] ناساً من المسلمين كانوا قد أسروا بمكّة [٣].

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال:

" فادى رسول الله أسارى بدر، وكان فداء كل رجل منهم أربعة آلاف[٤] ".

وكلّ الحوادث التي قضى فيها رسول الله ﷺ بقتل بعض الأسرى. فأبو عزّة الجمحي استحقّ القتل لأنه عاهد ونقض العهد. وأسرى بنو قريظة استحقوا القتل لأنهم عاهدوا المسلمين على القتال معهم ضدّ كلّ عدو خارجي، فلمّا جاء المشركون وحاصروا المدينة في غزوة الأحزاب نقضوا عهدهم وانضمّوا إليهم، وقد كان هذا الغدر كفيلاً بالقضاء على الإسلام وإبادة المسلمين لولا أنّ رعاية الله حفظتهم. وأسرى بدر الذين قتلهم رسول الله ﷺ وهم عقبة بن أبي معيط[٥] والنضر بن الحارث[٦] وطعيمة بن عدي كانوا قد قاموا بإيذاء المسلمين وتعذيبهم وتعريضهم للموت.

---

(١) صحيح مسلم (١٢٦٢/٣) برقم (١٦٤١).

(٢) هو سلمة بن عمرو بن سنان الأكوع الأسلمي (؟ - ٧٤ هـ)، صحابي جليل يكنى أبا مسلم، شهد بيعة الرضوان، وشارك في سبع غزوات مع رسول الله ﷺ، أُوتي سلمة بن الأكوع - رضي الله عنه - بسطة في الجسم فكان أيدًا شديدًا ربما أغار على الجيش فهزمه وحده، وكان عدّاءً لا يُسبق شدًا فهو متوافر القوة، متناسق الجسم واسع الخطو وكان شجاعاً ومن أخبار شجاعته أن أناساً أغاروا على إبل رسول الله صلى وله عليه وسلم وقتلوا راعيها فخرج سلمة وحده يتتبعهم فوقف على تلٍ وأخذ ينادي ثلاثاً: ياصباحاه وأتبع القوم وأخذ يرميهم بالنبل وهو ينشد. أنا ابن الأكوع --- واليوم يوم الرّضعّ. [تهذيب التهذيب ١٥٠/٤،، وتهذيب ابن عساكر ٢٣٠/٦، والأعلام ١٧٢/٣].

(٣) أنظر: ابن قدامة المقدسي: المغني (٩ / ٢٢٨).

(٤) مجمع الزوائد (٦ / ٩٠).

(٥) ابن أبي معيط كان أشد الناس على رسول اللّه في ايذائه من جيرانه، فقد أخرج ابن سعد بالاسناد من طريق هشام بن عروة عن ابيه عن عائشة قالت: قال رسول اللّه: " كنتُ بين شَرِّ جارين بين أبي لهب و عقبه بن أبي معيط، ان كانا لياتيان بالفروث فيطرحانها على بابي، حتى انهم لياتون ببعض ما يطرحون من الاذى فيطرحونه على بابي.

(٦) هو النضر بن الحارث بن كلدة بن عبد مناف، بن عبد الدار، من شياطين قريش، وممن كان يؤذي رسول الله ﷺ وينصب له العدواة، وكان قدم الحيرة وتعلم بها أحاديث ملوك الفرس وأحاديث رستم واسفنديار، فكان إذا جلس رسول الله ﷺ مجلساً فذكر فيه بالله، وحذر قومه ما أصاب من قبلهم من الأمم من نقمة الله، خلفه في مجلسه إذا قام، ثم قال: أنا والله يا معشر

الرسول ﷺ يعطف على الأسرى من الأعداء [١]

وكان محمد ﷺ يحسن معاملة الأسرى، ويعطف عليهم، ويرأف بهم، ولو كانوا من أعداء الإسلام.

وقد كان عديُّ بن حاتم الطائى النصرانى يكره الرسولﷺ كل الكره، وهرب إلى الشام[٢] ليكون مع النصارى حتى لا يُسلم، وحدث أن على بن أبى طالب أسر أخت عديَّ مع الأسرى، ومر بها النبي ﷺ، فقامت إليه، وقالت: يا رسول الله، هلك الوالد، وغاب الرافد[٣]، فامنن عليَّ، منَّ الله عليك[٤] · وأعرّض عنها النبي حين علم أن رافدها هو عديُّ بن حاتم الذي هرب من الله ورسوله[٥]، لكنها أعادت قولها، فتذكر المصطفى ما كان لأبيها حاتم في الجاهلية من الجود والكرم، فأمر بتسريحها، وإطلاق سراحها، وكساها كسوة حسنة، وأعطاها نفقتها، وأرسلها مكرمة مع أول ركب مسافر إلى الشام، فلما قابلت أخاها هناك ذكرت له ما فعله محمد معها، وما أكرمها به، وكيف أحسن معاملتها. فرجع عدى بن حاتم إلى الرسول متأثراً بنبله، وجميل عطفه، وحسن رعايته لأخته وهي أسيرة، ثم أسلم في الحال، وانضم إلى صفوف الإسلام والمسلمين[٦].

ومن الأدلة على روح الرحمة المهداة قصة ثُمامة[٧] بن أثال الحنفي من حديث أبي هريرة ﷺ وكان مشركا أسره جيش المسلمين وربط في المسجد فأتاه الرسول ﷺ وقال له: (ما عندك يا ثمامة؟) [٨] فقال: عندي خير يا محمد ان تقتل تقتل ذا دم، وان تنعم تنعم على شاكر، وان كنت تريد المال فسل منه ما شئت، فتركه رسول الله ﷺ فلما كان من الغد قال له مثل ذلك، وفي اليوم الثالث قال النبي ﷺ: (أطلقوا ثمامة) فأطلقوه فإذا به يذهب ويغتسل ويعود فيقول: أشهد أن لا إله إلا الله واشهد انك رسول الله والله يا محمد ما كان على ظهر الأرض وجه أبغض إلي من وجهك فقد أصبح وجهك أحب الوجوه كلها إلي، والله ما كان على ظهر الأرض دين أبغض علي من

قريش أحسن حديثاً منه، فهلم إلي فأنا أحدثكم أحسن من حديثه، ثم يحدثهم عن ملوك فارس ورستم واسبنديار، ثم يقول: بماذا محمد أحسن حديثاً مني ؟!.

(١) محمد عطية الابراشي: عظمة الرسول ، مرجع سابق، ص ٢٥٠.

(٢) للمزيد، أنظر: سيرة ابن هشام (٤ / ١٤١).

(٣) أى المعطى والمعين لها وهو أخوها.

(٤) أي أنْعم عليَّ وأعتِقنى، وخلِّصنى من الأسر.

(٥) الأبراشي: عظمة الرسول ، مرجع سابق، ص ٢٥٠.

(٦) نفسه، ص ٢٥١.

(٧) ثمامة بن أثال سيد بني حنيفة، بايع الرسول سنة ٦ هجرية (سيرة ابن هشام (٤ / ٦٣٨) .

(٨) أنظر: البخاري (٤٣٧٢) ومسلم (١٧٦٤).

دينك فأصبح دينك أحب الدين كله إلي، والله ما كان على وجه الأرض بلد أبغض إلي من بلدك فأصبح بلدك أحب البلاد كلها إليَ.

وهكذا أثرت هذه المعاملة الحسنة والخلق الكريم، في استمالة قلب رجل غير عادي انه ليس من بسطاء الناس أو سذاجهم، بل هو سيد قومه، ولم يكن إسلامه إسلام تقية أو خوفا على نفسه وحياته.

ولذا وجدنا المفكر(لورد هدلي) [1] يقف مندهشا عند معاملة النبي (ﷺ) للأسرى من المشركين في معركة بدر الكبرى، ملاحظا فيها ذروة الأخلاق السمحة والمعاملة الطيبة الكريمة، ثم يتساءل: "أفلا يدل هذا على أن محمدا لم يكن متصفا بالقسوة ولا متعطشا للدماء؟، كما يقول خصومه، بل كان دائما يعمل على حقن الدماء جهد المستطاع، وقد خضعت له جزيرة العرب من أقصاها، وجاءه وفد نجران [2] اليمنيون بقيادة البطريق، ولم يحاول قط أن يكرههم على اعتناق الإسلام، فلا إكراه في الدين، بل أمنهم على أموالهم وأرواحهم، وأمر بألا يتعرض لهم أحد في معتقداتهم وطقوسهم الدينية" [3].

عدم تقييدهم احتراما لإنسانيتهم

وقد نهت الشريعة الإسلامية عن وضع الأغلال في أيدي الأسارى، وأمرت بتركهم أحرارا من دون تقييد أو تحديد لحركتهم، مع العلم أن ذلك ربما يطمعهم بالغدر ولكن الشريعة آثرت الخلق الرفيع.

معاملة الرسول ﷺ لأهل الذمة [4]

لم يكن الفتح الإسلامي انتزاعا لحريات الناس واغتصابا لدراهم وليس الغاية منه استعباد الناس أو الاستئثار بخيرات أراضيهم وإنما لحماية دولة الحق ولإنقاذ

---

(١) اللورد هدلي: Lord Hedly "ت ١٩٣٥ " من أغنى البريطانيين، ومن أرفعهم حسبا، درس الهندسة في كامبردج، أسلم وأصدر مجلة(The Islamic Renew) تخرج في جامعة كمبريدج وعمل بالتعليم والصحافة، وعمل على نشر الإسلام، له:" رجل من الغرب يعتنق الإسلام "وكتاب (إيقاظ العرب للإسلام).

(٢) وهم عرب نصارى من شمال اليمن.

(٣) أنظر، ابن الأثير، الكامل، ج٢، ص ١١٢، أبو يوسف، الخراج ص ٧١، البلاذري، ص ٧٠، أبو عبيد، الأموال ص ٢٧.

(٤) الذميون في الإسلام: هم غير المسلمين الذين يعيشون في كنف المسلمين، فيصبحون في ذمة المسلمين وعهدهم، لهم ما لهم وعليهم ماعليهم.

البشر من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد. وقد أخذ النبي ﷺ وصحبه أنفسهم بالالتزام بحماية الحق والعدل بين الناس كافة.

والأصل في العلاقات الإسلامية مع غير المسلمين ممن لم يشهر سلاحه في وجه الإسلام[١]، أن تكون علاقة بر وعدل وصلة وتعاون، سواء كانوا يعيشون داخل الدولة الإسلامية أو خارجها، قال تعالى: ﴿ لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴾ [٢].

ولا يجوز أن تؤخذ أملاكهم ولا أن تغصب أبنيتهم ولا أن يتدخل في مذاهبهم، كما لا يجوز أن تنتهك لهم حرمة أو تكلبفهم ما لا يطاق أو الأخذ منهم بغير طيب نفس[٣].

وقرر الإسلام المساواة بين الذميين والمسلمين، فلهم ما للمسلمين، وعليهم ما عليهم.

وكانت الجزية[٤] لا تؤخذ من صبي ولا امرأة ولا من راهب ولا من ذي عاهة ولا من شيخ ولا من فقير، وكانت مبلغاً مالياً زهيدا[٥].

ولم يعين لها مقدار بعينه إلا أنه من اللازم عند تعيين المقدار أن تراعى فيه السهولة، فيقرر منه ما يتيسر أداؤه لأهل الذمة[٦].

وكان في السلوك العملي لسيدنا رسول الله ﷺ ومعاملته لأهل الكتاب سواء أكانوا نصارى أم يهود ما يدل دلالة قطعية على تكريم النبي ﷺ لأهل الكتاب؛ والرسول ﷺ بذلك يضع الأسس العملية التي يتعامل بها المسلمون من بعده مع أهل الذمة[٧].

---

(١) محمد رفعت زنجير: دفع شبهة الإرهاب عن نبي السلام، مجلة منار الإسلام، ربيع الأول ١٤٢٤هـ/ مايو ٢٠٠٣م.

(٢) سورة الممتحنة: آية ٨.

(٣) أبو الأعلى المودودي: حقوق أهل الذمة في الدولة الإسلامية، دار الأنصار، القاهرة ١٩٧٨ م ١٣٩٩ هـ، ص ٩.

(٤) يرى البعض أن الجزية كلمة عربية مشتقة من الجزاء لأنها تدفع نظير شئ هو الحماية والمذعة، أو الاعفاء من ضريبة الدم الجندية وذهب البعض الى أنها فارسية من لاكزيت ومعناها الخراج الذي يستعان به على الحرب أنظر (اللسان: مادة: جزى، الجامع لأحكام القرآن (١١٤/٨)، و فتح الباري (٢٥٩/٦)، والمغرب في ترتيب المعرب (١٤٣/١).

(٥) شوقي ضيف: عالمية الإسلام، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٩٩ م/ ١٤٢٠ هـ، ص ٢٩.

(٦) المودودي: حقوق، مرجع سابق، ص ٩.

(٧) حسن على حسن: أهل الذمة في المجتمع الاسلامي، المجلس الأعلى للشئون الاسلامية، سلسلة دراسات اسلامية، عدد ١٢٠، ٢٠٠٥ / ١٤٢٦ هـ، ص ٣٥.

فقد مثل الرسول الكريم ﷺ بخلقه الرحيم مع المسلمين وأهل الذمة أنموذجا يحتذي به في سماحة والعدل ودفع الظلم وتحريم العنف.

إن غير المسلمين قد نعموا، بوجه الإجمال، في ظل الحكم الإسلامي، بدرجة من التسامح لا نجد لها معادلاً في أوروبا في الأزمنة الحديثة. وأن دوام الطوائف المسيحية في وسط إسلامي يدل على أن الاضطهادات التي قاست منها بين الحين والآخر على أيدي المتزمتين والمتعصبين كانت من صنع الظروف المحلية أكثر مما كانت عاقبة لمبادئ التعصب وعدم التسامح[١].

وأما من شهر سلاحه على الدعوة وحاربها فإنه يعاقب بالمثل، سواء كان غير مسلم أصلا، أو مسلما ارتد عن دينه، أو مسلما خرج على الأمة وحمل السيف على السلطان الشرعي، قال تعالى: ﴿ٱلشَّهْرُ ٱلْحَرَامُ بِٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْحُرُمَٰتُ قِصَاصٌ ۚ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُوا۟ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾[٢]، وأما العدوان من جانب المسلمين على غيرهم فمحرم، قال تعالى: ﴿وَقَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾[٣].

وقد حرم الإسلام سبهم أو سب دينهم، أو تسميعهم ما يكرهون، وحرم سفك دمائهم[٤]. فقال ﷺ:

{**من قتل نفساً معاهدة بغير حلها، حرم الله عليه الجنة أن يشم ريحها** }[٥]

وقد أعلن الرسول ﷺ لمن يعيش في دار الإسلام من غير المسلمين أو من يعبرها زائراً حرية العقيدة والعبادة[٦] وبهذه الروح البناءة استطاع محمد أن يجتذب عدد غير قليل منهم فأسلموا لله الواحد الأحد.

---

(١) أنظر، توماس أرنولد: الدعوة، مرجع سابق، ص ٧٣٠ – ٧٩٢.
(٢) سورة البقرة: آية ١٩٤.
(٣) سورة البقرة: آية ١٩٠.
(٤) أنظر: محمد رفعت زنجير: دفع شبهة الإرهاب عن نبي السلام، مجلة منار الإسلام، ربيع الأول ١٤٢٤هـ/مايو ٢٠٠٣م.
(٥) صحيح سنن النسائي: (٤٤٢٣.).
(٦) أنظر مقال، محمد حميد الله: محمد: نبي الله، ترجمة: حسين فوزي النجار، ضمن مجلة الثقافات، مركز مطبوعات اليونسكو، القاهرة، ١٩٨٣ / ١٤٠٤ هـ، ص ٤٦.

وقد تواترت أخبار المعاهدات، والمعاهدين ومنها ما أخرجه أبو داود[١] عن **صفوان بن سليم** أنه أخبره عدة (في رواية أنهم ثلاثون) من أبناء أصحاب رسول الله، ﷺ، عن آبائهم دنية، عن رسول الله، ﷺ قال:

{**ألا من ظلم معاهداً، أو انتقصه، أو كلفه فوق طاقته، أو أخذ منه شيئاً بغير طيب نفس، فأنا حجيجه يوم القيامة**}[٢].

وقال ﷺ:{ **من قتل معاهداً في غير كُنْهه حرَّم الله عليه الجنة**}[٣].

وفي رواية:{ ألا من ظلم معاهداً، أو انتقصه حقه، أو كلفه فوق طاقته، أو أخذ منه شيئاً بغير طيب نفس منه، فأنا حجيجه يوم القيامة}[٤].

وقوله ﷺ **"** من ظلم معاهداً" ؛ أي من ظلمه في داره من قِبَل من يدخل في عهدهم وأمانهم من المسلمين، أو من ظلمه في ديار المسلمين بعد أن دخلها بعهدٍ وأمان من المسلمين، فالحديث يشمل المعنيين. .فليتنبه هؤلاء الذين يهون عليهم ـ لشبه واهية مرفوضة لا قيمة لها في ميزان العلم ـ أن يكون النبي ﷺ حجيجهم وخصمهم يوم القيامة.

---

(١) ابو داود (٣٠٥٢) .
(٢) صحيح سنن أبي داود (٢٦٢٦) .
(٣) صحيح سنن النسائي: (٤٤٢٢).
(٤) صحيح الجامع الصغير: (٢٦٥٥)..

وقد أعظمَ النبي ﷺ قتل المعاهد

فعن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما، عن النبي ﷺ قال: (من قتل معاهدا لم يرح رائحة الجنة، وإن ريحها توجد من مسيرة أربعين عاما) [١].

وقال {:ﷺ ألا لا يحلُّ ذو نابٍ من السباع، ولا الحمار الأهلي، ولا اللقطَةُ من مال معاهدٍ إلا أن يستغني عنها..} [٢].

فإذا كانت اللقطة من مال المعاهد المستأمَن لا تحل ولا تجوز.. فكيف بماله المصان المحفوظ.. فكيف بدمه وسائر حرماته.. لا شك أنها أشد حرمة وأغلظ.

فقد روى البخاري ومسلم عن أسماء بنت أبي بكر الصديق رضي الله عنهما قالت: قدمت على أمي وهي مشركة في عهد رسول الله ﷺ، فاستفتيت رسول الله ﷺ، قلت: قدمت على أمي وهي راغبة - أي تطمع أن تسألني شيئاً - أفأصل أمي؟ قال:"نعم، صلي أمك"، [٣].

ويذكر الإمام الشافعي [٤] في كتابه الأم: أن أحكام المودة والموادعة مع أهل الكتاب ليست منسوخة وقال " إن أمر القتال خاص بالمحاربين منهم"، ويقول الشهيد سيد قطب " إن قتال المشركين (الوارد في سورة التوبة) خاص بمشركي العرب في الجزيرة العربية وليس حكماً عاماً لجميع الناس على وجه الأرض " [٥].

---

(١) أخرجه البخاري في الجزية (٣١٦٦).

(٢) صحيح سنن أبي داود: (٣٢٢٩.).

(٣) البهنساوي: الشريعة، مرجع سابق، ص٢١٠.

(٤) الشافعي (ت ٢٠٤ هـ / ٨١٩ م) محمد بن إدريس بن العباس بن عثمان ابن شافع الهاشمي القرشي المطلبي أبو عبد الله :أحد الأئمة الأربعة عند أهل السنة. وإليه نسبة الشافعية كافة. ولد في غزة بفلسطين وحمل منها إلى مكة وهو ابن سنتين. وزار بغداد مرتين. وقصد مصر سنة ١٩٩ فتوفي بها وقبره معروف في القاهرة [الاعلام للزركلي، وتذكرة الحفاظ ٣٢٩/١؛ وطبقات الحنابلة ٢٨٠/١ – ٢٨٤؛ وتاريخ بغداد ٥٦/٢-١٠٣].

(٥) البهنساوي: الشريعة، مرجع سابق، ص٢١٠.

أخلاقه مع اليهود[1]

ودرس آخر نستفيده من سيرة الرسول ﷺ في حروبه ومعاركه، هو موقفه من اليهود، وموقف اليهود منه ومن دعوته، فلقد حرص الرسول ﷺ أول مقامه في المدينة أن يقيم بينه وبينهم علائق سلم، وأن يؤمِّنهم على دينهم وأموالهم، وكتب لهم بذلك كتاباً، يُعد أقدم دستور مسجل في العالم[2]، ولكنهم قوم غدر، فما لبثوا غير قليل حتى تآمروا على قتله، مما كان سبباً في "غزوة بني النضير" ثم نقضوا عهده في أشد المواقف حرجاً "يوم الأحزاب" مما كان سبباً في "غزوة بني قريظة"[3]، ثم تجمَّعوا من كل جانب يهيِّئون السلاح ويبيِّتون الدسائس، ويتجمَّعون ليقضوا في غدر وخسَّة على المدينة والمؤمنين فيها، مما كان سبباً في "غزوة خيبر".

وهكذا انتهى وجود اليهود في المدينة بأيديهم، فقد نقضوا العهود التي أخذوها على أنفسهم، وخانوا الأمانة التي أعطتهم الأمان – وهي وثيقة المدينة – فحق عليهم ما نزل بهم من إجلاء أو إبعاد أو القضاء على المقاتلين منهم[4].

وقد حاسنهم الرسول ﷺ لكنهم آذوه مرارا[5] فهؤلاء قوم بُهت لا تدفع معهم الحسنى، ولا يصدق لهم وعد، ولا يستقيم لهم عهد وكلما وجدوا غرة اهتبلوها، فهل

---

(١) اليهودية: دين العبرانيين المنحدرين من نسل إبراهيم عليه السلام والمعروفين بالأسباط من بني إسرائيل الذين أرسل الله إليهم موسى عليه السلام مؤَيَّدًا بالتوراة ليكون لهم نبيًّا، واليهودية ديانة يبدو أنها منسوبة إلى يهود الشعب، وهذه بدورها قد اختلف في أصلها، وقد تكون نسبة إلى يهوذا أحد أبناء يعقوب عليه السلام، وعممت على الشعب على سبيل التغليب. ولفظة (اليهود): تعني الرجوع برفق، والهود: التوبة. قال الله تعالى: { إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ } [الأعراف: ١٥٦]. قال بعضهم: يهود في الأصل من قولهم: هدنا إليك، وكان اسم مدح، ثم صار بعد نسخ شريعتهم لازمًا لهم، وإن لم يكن فيه معنى المدح، كما أن النصارى في الأصل من قوله: { مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللَّهِ } [آل عمران: ٥٢]، ثم صار لازمًا لهم بعد نسخ شريعتهم، ويقال: هاد فلان إذا تحرى طريقة اليهود في الدين، كما يقال: تفرعن فلان، أي: فَعَلَ فعل فرعون من الجور [راجع: الموسوعة الثقافية، مؤسسة دار الشعب، ١٩٧٢ م / ١٣٩٢ هـ، والموسوعة الفلسفية المختصرة، نجم الدين بن حجي، برهان الدين بن خطيب عذراء، دار القلم، ٢٠٠٣ م/ ١٤٢٤ هـ].

(٢) للمزيد أنظر، محمد حميد الله: مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة، ط ٣، ١٣٨٩هـ.

(٣) سنة ٥ هـ وفيها انظر: فتح الباري شرح صحيح البخاري (٤٠٧/٧- ٤١٦).

(٤) مصطفى الشكعة: أدب الخطاب في كتب الرسول ﷺ الى الملوك، ضمن مقالات " صور حضارية من عطاء الإسلام، القسم الأول، المجلس الأعلى للشئون الاسلامية، سلسلة قضايا اسلامية، عدد ٩٧، ص ١٧.

(٥) محمد كرد علي: بين المدنية العربية والأوربية، ط٢، الهيئة المصرية العامة للكتاب، سلسلة الألف كتاب الثاني، ٢٠٠٢ / ١٣٢٣ هـ، ص ٣٧.

كان على الذبي ﷺ من حرج فيما فعله بهم؟ و هل كان عليه أن يتحمل دسائسهم وخياناتهم ونقضهم للعهود فيعيشوا وأصحابه دائماً في جو من القلق والحذر وانتظار الفتنة والمؤامرات؟ لقد ضمن الذبي ﷺ بحزمه معهم حدود دولته الجديدة، وانتشار دعوته في الجزيرة العربية كلها، ثم من بعد ذلك إلى أرجاء العالم ولا يلوم الذبيَّ ﷺ على حزمه معهم إلا يهوديٌّ أو متعصب [١].

وبلغ من تسامحه (ﷺ) أنه بعد فتح خيبر، وجد نسخاً من التوراة، فأمر بردها إلى اليهود[٢].

ومنها: فعل النبي، ﷺ حيث عاهد اليهود في المدينة؛ فعندما هاجر إلى المدينة لم يستبح دماء اليهود، بل سالمهم وعقد معهم عقد جوار يجعل لهم حقوقاً، وعليهم واجبات، وجعل له ما لهم وعليه ما عليهم، وكان حلفاً كريماً، لم يفكر في نقضه، فلم يكن المؤمنون وعلى رأسهم النبي ﷺ ممن ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه، واستمر عليه الصلاة والسلام على عهده نحو ثلاث سنين حتى بعد غزوة بدر الكبرى التي خذل الله بالإيمان فيها الشرك كله، فقد أذلت فيها قريش، ولكن كانت الخيانة من اليهود في غزوة أحد في السنة الثالثة، ثم كانت في غزوة الأحزاب في السنة الرابعة حيث اجتمعت العرب كلها لتجتث الإسلام من موطنه، وكانت خيانات لو تمت لذهب أهل الإيمان،وكان لا بد من نبذ العهد [٣].

وعن أنس ﷺ قال: كان غلام يهودي يخدم الذبي ﷺ فمرض فأتاه الذبي ﷺ يعوده فقعد عند رأسه فقال له:" أسلم"، فنظر إلى أبيه و هو عنده فقال له: أطع أبا القاسم ﷺ فأسلم فخرج النبي ﷺ وهو يقول:"الحمد لله الذي أنقذه من النار"[٤].

وكان السبب الرئيس في حرب اليهود يرجع إلى إشتطاطهم في معاملة مسلمي المدينة ونكثهم للعهد وخيانتهم وتحديدهم السافر الذي بلغ منتهاه مما دفع الرسول ﷺ إلى محاربتهم لأن خطرهم قد هدد الدعوة الإسلامية التي كانت لا تزال في مهدها ومبلغ الخطورة في أن هؤلاء اليهود كانوا يشاركون المسلمين سكنى المدينة ويظاهرون عدوهم [٥].

---

(١) مصطفى السباعي: السيرة النبوية، دروس وعبر، مرجع سابق، ص ٧٦.
(٢) أنظر: المقريزي: إمتاع الاسماع، ص ٣٢٣، وحسين بن محمد المالكي: تاريخ الخميس ٢.60/.
(٣) أبو زهرة: نظرية الحرب، مرجع سابق، ص ٢٢.
(٤) أخرجه البخاري في كتاب الجنائز: باب إذا أسلم الصبي ومات هل يصلى عليه(فتح٣/٥٨٢-٥٨٣ برقم١٣٥٦)، وأبو داود في كتاب الجنائز: باب في عيادة الذمي(٣/٢٤٠، رقم٣٠٩٥).
(٥) ناريمان عبد الكريم: معاملة غير المسلمين، مرجع سابق، ص ٢٨.

ورغم ذلك نجد نبي الرحمة يوصي معاذ بن جبل عند ذهابه إلى اليمن: {لا يزعج يهودي في يهوديته }[1].

ورغم إجلاء بني النضير وبني قريظة لما اقترفوه من ذنب لم يعاقب الرسول الكريم باقي اليهود وهناك إشارات تنبئ بوجودهم في المدينة بعد جلاء القبيلتين بل إنهم كان لهم نشاط سياسي واستمروا في معارضة الرسول ﷺ [2].

عهود الأمان

يقول ﷺ: {لا إيمان لمن لا أمانة له، ولا دين لمن لا عهد له} [3].

ويظهر تسامح الإسلام ورسوله الكريم في مواقفه الكريمة مع غير المسلمين في عهود الأمان التي أعطيت لهم فكانوا يقيمون في بلادهم بناء على هذه العهود تحت مظلة الإسلام[4].

ففي غزة الأبواء[5] أو ودان[6] خرج رسول الله ﷺ فيها بنفسه في سبعين رجلاً من المهاجرين خاصة يعترض عيراً لقريش، حتى بلغ ودان، فلم يلق كيداً، واستخلف فيها على المدينة سعد بن عبادة ﷺ.

وفي هذه الغزوة عقد معاهدة حلف مع عمرو بن مخشى الضمري، وكان سيد بنى ضمرة في زمانه[7]، وهذا نص المعاهدة:

(هذا كتاب من محمد رسول الله لبني ضمره، فإنهم آمنون على أموالهم وأنفسهم، وإن لهم النصر على من رامهم إلا أن يحاربوا دين الله، ما بل بحر صوفة وأن النبي إذا دعاهم لنصره أجابوه)[8].

---

(١) أنظر، سنن البيهقي، ج٩، ص ١٠٦، وسيرة ابن هشام (٤ / ١٤٩) والمستدرك، ١٣٣/٢، برقم (٣٥٦٥)، والمعجم الكبير، ٧٢/٥، برقم (٤٦١٧).

(٢) بركات محمد: محمد واليهود، مرجع سابق، ص ٨٦.

(٣) رواه أحمد ١٣٥/٣، ١٥٤، ٢١٠، ٢٥٠، وابن حبان ٣٦٠/١ رقم (١٩٤)، والبيهقي ٢٨٨/٦.

(٤) ناريمان عبد الكريم: معاملة غير المسلمين، ص ٢٦.

(٥) الأبواء: قرية من أعمال الفُرع من المدينة وبها قبر آمنة أم الذبي (ص) وفيها أنظر: الواقدي: المغازي (٢ / ٧)، سيرة ابن هشام (٢ / ١١٧)، تاريخ الطبري (٢ / ٤٠٤)، ابن كثير: ابداية والنهاية (٣ / ٢٤١).

(٦) في صفر سنة ٢ هـ، أغسطس سنة ٦٢٣م، وودان قرية جامعة من نواحي الفُرع بين مكة والمدينة والأبواء قرية من أعمال الفُرع وسميت كذلك لتبوء السيول بها (ياقوت: معجم البلدان (٥ / ٣٦٥).

(٧) صفي الرحمن المباركفوري: الرحيق، مرجع سابق، ص١٨٦.

(٨) أنظر السيرة الحلبية، الجزء ٢، صفحة ٣٤٧.

وكان الأمان يشكل القاعدة الإسلامية الأساسية بعد دخول المسلمين البلاد المفتوحة وبمقتضى هذا الأمان أتيح لغير المسلمين بعض الحقوق والحريات وكان عهد الأمان الذي عقده الرسول ﷺ **لأهل نجران** هو المثال الذي عقدت على منواله عهود الأمان اللاحقة فقد نص على أن "... لنجران وحاشيتهم جوار الله وذمة محمد النبي رسول الله على أموالهم وأنفسهم وأرضهم وملتهم غائبهم وشاهدهم وكل ما تحت أيديهم من قليل أو كثير ولا يغير أسقف ولا راهب من رهبانيته ولا كاهن من كهانته وليس عليه دية ولا دم جاهلية ولا يخسرون ولا يعسرون ولا يطأ أرضهم جيشاً ومن سأل منهم حقا فبينهم للنصف غير ظالمين ولا مظلومين ومن أكل ربا من ذي قبل فذمتي منه بريئة ولا يؤخذ رجل منهم بظلم آخر... "[١].

كذلك وضحت نفس الروح في بقية عهود الأمان التي كتبها الرسول ﷺ ومنها ما عقده مع **أهل أيلة** ذكر فيها : " هذه آمنة من الله ومحمد النبي رسول الله ليحنة بن رؤية وأهل أيلة سفنهم وسياراتهم في البر والبحر، لهم ذمة الله ومحمد النبي ومن كان معهم من أهل الشام وأهل اليمن وأهل البحر "[٢].

ويتضح هذا المنهاج فيما قام به الرسول ﷺ تجاه يهود المدينة، فمن الثابت أن الرسول ﷺ بعد أن استقر في المدينة وضع نظاماً للحياة فيها وتضمن الكتاب أو الصحيفة[٣] عهد اليهود، ويعد دستوراً لتنظيم الحياة العامة في المدينة[٤].

وبإبرام هذه المعاهدة صارت المدينة وضواحيها دولة وفاقية، عاصمتها المدينة، ورئيسها - إن صح هذا التعبير - رسول الله ﷺ، والكلمة النافذة والسلطان الغالب فيها للمسلمين[٥].

وتحدد الصحيفة واجبات أعضاء هذه الجماعة وحقوق كل منهم في العدل والبر ولهم الأمن على النفس والمال، [٦].

---

(١) أنظر: الطبقات الكبرى لابن سعد (١/ ٢٦٦).
(٢) للمزيد راجع محمد حميد الله: مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة، دار النفائس ١٩٨٧ / ١٤٠٨ هـ، ص ١١٧.
(٣) أنظر نص الصحيفة في سيرة ابن هشام (٢ / ٥٠٢ – ٥٠٤).
(٤) يوسف حسن غوانمة: في التاريخ والحضارة العربية الإسلامية،ط١، دار الفكر، عمان، الأردن، ٢٠٠٠ م / ١٤١٢ هـ، ص ٢٦.
(٥) صفي الرحمن المباركفوري: الرحيق، مرجع سابق، ص١٨١.
(٦) أنظر: بركات محمد مراد: المسلمون والتسامح .. موقف متميز، مجلة الوعي الإسلامي، عدد رقم493 : لسنة ٢٠٠٦ م / ١٤٢٧ هـ.

لكن يهود المدينة قد تتابعت خيانتهم ونكثهم بالعهد، وبدأ يهود **بنى قينقاع** بعد غزوة بدر يظهرون أحقادهم وتحديهم للرسول ﷺ وزعموا أنه لا يجرؤ على قتالهم فحاصرهم إلى أن قبلوا التسليم واكتفى بإجلائهم عن المدينة، كما توترت العلاقة بين يهود بنى النضير وبين الرسول ﷺ بعد غزوة أُحد، إذ حاولوا أن يستفيدوا من هزيمة المسلمين في أُحد بالغدر بهم فحاصرهم الرسول ﷺ وأجلاها أيضاً عن المدينة في العام الرابع للهجرة. وتلا ذلك نكث بنى قريظة للعهد وانحيازهم إلى قريش في واقعة الخندق، وأصبح وجودهم في المدينة يشكل خطراً على المسلمين، حتى بعد رجوع القريشيين إلى مكة بعد غزوة الخندق بدأ يهود بنى قريظة مع القريشيين في تأليب العرب على المسلمين فضلا عن تعاونها لهم أثناء الحصار فأخرجها هذا عن العهد المدون في الصحيفة التي حوت أمان وعهد اليهود، لذلك نجد أن الرسول ﷺ قد حاصرها في آطابها حتى طلبت التسليم [(١)]

وعلى ذلك يمكن أن نتبين أن السبب الرئيس في حرب اليهود يرجع إلى اشتطاطهم في معاملة مسلمي المدينة ونكثهم للعهد، ومع ذلك لنا أن نؤكد أن هذه الحروب التي دفع إليها الرسول ﷺ دفعا تجاه اليهود يظهر فيها أيضاً التسامح؛ فهو لم ينكل بهم مع بداية خيانتهم ونكثهم بالعهد بل اكتفى فقط بإجلائهم وخروجهم بما يحملون وتكرر الموقف أكثر من مرة مما دفع الرسول ﷺ إلى أن يشتد في رفق لأن الذين خرجوا خارج المدينة تحالفوا مع قريش وأصحبوا يشكلون خطراً يحدق بالدولة الناشئة التي كانت دائما حريصة على أن يسودها السلام، ومع ما قام به اليهود من نقض للعهود فإنهم كانوا معترفين لوفاء الرسول ﷺ للعهد [(٢)].

---

(١) أنظر: فتح الباري شرح صحيح البخاري ٧/٤٠٧- ٤١٦.
(٢) ناريمان عبد الكريم: معاملة غير المسلمين، ص ٢٨.

احترام العهود[1] والمواثيق

كان ﷺ يحترم العهود والمواثيق التي قطعها على نفسه ويلتزم بشرف الكلمة ولا يغدر بعد تأمين ويشهد بذلك الوقائع وشهادة الشاهدين.

وسيرته ﷺ تفيض بالمُثُل القويمة التي تحرص كل الحرص على الوفاء بالعهد.

قال حذيفة بن اليمان[2]: ما منعني من حضور معركة بدر، إلا أن المشركين أخذوني مع صاحب لي وقالوا لنا: إنكما تريدان محمداً. فقلنا لهم: ما نريده، انما نريد المدينة. فتركونا بعد أن أخذوا علينا العهد ألا نقاتل مع النبي ﷺ، فجئت المدينة وهو منصرف الى بدر، فأخبرته الخبر فقال لي: انصرف، نفي لهم بعهدهم، ونستعين الله عليهم.

صلح الحديبية "وثيقة شرف"

لقد التزم الرسول ﷺ بالعهود التي قطعها على نفسه بكل دقة متناهية " نصاً وروحاً " فبرهن عملياً على أصالة الأخلاق الإسلامية في الالتزام بمبدأ الوفاء الكريم.

---

(١) العهد: حفظ الشيء ومراعاته حالا بعد حال، وسمي الموثق الذي يلزم مراعاته عهدا. قال تعالى: ﴿وأوفوا بالعهد إن العهد كان مسئولا﴾ [الإسراء/٣٤]، والمعاهد في عرف الشرع يختص بمن يدخل من الكفار في عهد المسلمين، وكذلك ذو العهد، قال صلى الله عليه وسلم: (لا يقتل مؤمن بكافر ولا ذو عهد في عهده) (الحديث عن علي عن النبي صلى الله عليه وسلم: (المسلمون تتكافأ دماؤهم، ويسعى بذمتهم أدناهم، ويرد عليهم أقصاها، وهم يد على من سواهم، لا يقتل مسلم بكافر، ولا ذو عهد في عهده) أخرجه أبو داود في الديات برقم ٤٥٣٠؛ وانظر معالم السنن ١٦/٤؛ وأخرجه النسائي في القسامة ٢٤/٨ وحسنه ابن حجر في الفتح ٢٦٢/١٢؛ وأخرجه أبو يعلى.

وانظر: مجمع الزوائد ٢٩٦/٦) وباعتبار الحفظ قيل للوثيقة بين المتعاقدين: عهدة، وقولهم: في هذا الأمر عهدة لما أمر به أن يستوثق منه، وللتفقد (في اللسان: تعهد الشيء: تفقده).

(٢) حذيفة (؟ - ٣٦ هـ) هو حذيفة بن اليمان (واليمان لقبه واسمه: حسيل ويقال حسل) أبو عبد الله العبسي. من كبار الصحابة،وصاحب سر رسول الله صلي الله علية وسلم. أسلم هو وأبوه وأراد شهود بدر فصدهما المشركون، وشهدا أحداً فاستشهد اليمان بها.شهد حذيفة الخندق وما بعدها، كما شهد فتوح العراق، وله بها آثار شهيرة. خيرة النبي صلي الله علية وسلم بين الهجرة والنصرة فاختار النصرة. استعمله عمر على المدائن فلم يزل حتى مات بعد بيعة علي بأربعين يوماً. روى عن النبي صلي الله علية وسلم الكثير، وعن عمر، وروى عنه جابر وجُنْدب وعبد الله بن يزيد وآخرون. [تهذيب التهذيب ٢١٩/٢، والإصابة ٣١٧/١؛ وتهذيب تاريخ ابن عساكر ٩٣/٤؛ والأعلام للزركلي ١٨٠/٢].

وعقد عقد النبي ﷺ في بطاح الحديبية مع قريش صُلحاً تاريخياً في السنة السادسة للهجرة، وما كان ﷺ فكر في التذكر لبند من بنود هذا الصُلح الذي وضع الحرب بين قريش وبني بكر من جهة، وبين الرسول ﷺ وخزاعة من جهة أخرى لمدة عشر سنوات، يعيش المسلمون والمشركون فيها بعضهم لبعض سلما بمعنى كلمة سلم[١].

وبعد هذا الصلح الحديبية وعندما رجع النبي ﷺ إلى المدينة اشتد العذاب على الضعفاء في مكة حتى لم يطيقوا له احتمالا، واستطاع أبو بصير رضي الله عنه أن يهرب من حبسه فمضى من ساعته إلى المدينة يحمله الشوق ويحدوه الأمل في صحبة النبي ﷺ وأصحابه. مضى يطوي قفار الصحراء، وتحترق قدماه على الرمضاء حتى وصل المدينة فتوجه إلى مسجدها، فبينما النبي ﷺ في المسجد مع أصحابه إذ دخل عليهم أبو بصير رضي الله عنه عليه أثر العذاب ووعثاءُ السفر وهو أشعث أغبر. ما كاد أبو بصير رضي الله يلتقط أنفاسه حتى أقبل رجلان من كفار قريش فدخلا المسجد فلما رآهما أبو بصير رضي الله فزع واضطرب، وعادت إليه صورة العذاب، فإذا هما يصيحان: يا محمد رده إلينا بالعهدُ الذي جعلت لنا فتذكر النبي ﷺ عهده لقريش أن يرد إليهم من يأتيه من مكة فدعا أبا بصير فقال له:

" يا أبا بصير، إن هؤلاء القوم قد صالحونا على ما قد عملت، وإنا لا نغدر، الحق بقومك " فقال رضي الله عنه: يا رسول الله، تردني إلى المشركين يفتنوني في ديني ؟

فقال رسول الله ﷺ:

" اصبر يا أبا بصير واحتسب لك ولمن معك من المستضعفين من المؤمنين فرجا ومخرجا" .

شهادة المستشرقين على سماحة الإسلام مع أهل الذمة

وقد أشاد كثير من المستشرقين بسماحة الإسلام[٢] مع أهل الذمة، ومنهم الألمانية المنصفة زيغريد هونكة[٣] التي نوهت بموقف الإسلام من النصارى حين

---

(١) باشميل: فتح مكة، مرجع سابق، ص ١٦.

(٢) أنظر: محمد رفعت زنجير: دفع شبهة الإرهاب عن نبي السلام، مجلة منار الإسلام، ربيع الأول ١٤٢٤هـ/مايو ٢٠٠٣م.

(٣) مستشرقة ألمانية منصفة للاسلام، صرفت وقتها كله باذلة الجهد للدفاع عن قضاياهم والوقوف إلى جانبهم وكتابها "شمس الله تشرق على الغرب" " ALLAH'S SONNE UBER DEM ABENDLAND"
هو ثمرة سنين طويلة من الدراسة الموضوعية العميقة للاسلام والمسلمين.

قالت: "إن التسامح العربي العريق هو الذي حمل فاتح مصر القائد عمرو بن العاص[١] على تحاشي أي أعمال سلب أو نهب أو تدمير للمدن المفتوحة، بل آلى على نفسه المحافظة على ضمان ممارسة حضارتهم المتوارثة، كما جاء في وثيقة الاستسلام المبرمة حرفيا، وللوقوف على البعد الحقيقي لهذا التسامح غير المعهود في أوروبا"

ويرى هاملتون جب " أن موقف الرسول تميز بالعطف على أهل الكتاب"[٢].

وتقول لورافيشيا فاغليري[٣]

كان محمد [ﷺ] المتمسك دائمًا بالمبادئ الإلهية شديد التسامح، وبخاصة نحو أتباع الأديان الموحدة. لقد عرف كيف يتذرع بالصبر مع الوثنيين، مصطنعًا الأناة دائمًا

ورأى المستشرق المنصف درمنجم أن محمداً قد أبدى في أغلب حياته اعتدالاً لافتاً للنظر، فقد برهن في انتصاره النهائي على عظمة نفسية قل أن يوجد لها مثال في التاريخ، إذ أمر جنوده أن يعفو الضعفاء والمسنين والأطفال والنساء، وحذر عليهم أن يهدموا البيوت أو يسلبوا الثمار، أو أن يقطعوا الأشجار الثمرية وأمرهم ألا يُجردوا السيوف إلا في الضرورة القهرية... بل قد رأيناه يؤنب بعض قواده، ويُصلح أخطائهم إصلاحا مادياً ويقول لهم: إن نفساً واحدة خير من أكثر الفتوح ثراء[٤].

---

(١) عمرو بن العاص (٥٠ ق هـ ـ ٤٣ هـ) هو عمرو بن العاص بن وائل، أبو عبد الله، السهمي القرشي، فاتح مصر، وأحد عظماء العرب وقادة الإسلام وذكر الزبير بن بكار والواقدي بسين لهما أن إسلامه كان على يد النجاشي وهو بأرض الحبشة. وولاه النبي ﷺ إمرة جيش "ذات السلال " وأمده بأبي بكر وعمر رضي الله عنهما ثم استعمله على عمان. ثم كان من أمراء الجيوش في الجهاد بالشام في زمن عمر وولاه عمر فلسطين ومصر. وله في كتب الحديث ٣٩ حديثاً. [الإصابة ٢/٣، والاستيعاب ١١٨٤/٣، والأعلام ٢٤٨/٥].

(٢) هاملتون جب و هارولد بوين: المجتمع الإسلامي والغرب، ج٢، ترجمة، أحمد عبد الرحيم مصطفى، الهيئة المصرية للكتاب، سلسلة تاريخ المصريين ١٩٩٠/ ١٤١١ هـ، ص٣٨٩ .

(٣) أنظر: عماد الدين خليل: قالوا عن الإسلام. الرياض: الندوة العالمية للشباب الإسلامي، ١٤١٢هـ/١٩٩٢م.

(٤) محمد غلاب: هذا هو الاسلام. كتاب الشعب، عدد ٦٥، سنة ١٩٥٩، ص ٨٩.

حجة الوداع[1] والرائد الأول لحقوق الإنسان

يُعد الرسول ﷺ الأول والراعي الأكبر لحقوق الإنسان، ورسالته التي حملها للعالمين جميعا رسالة إنسانية، شملت برعايتها جميع الحقوق التي تتعلق بالإنسان كإنسان، بغض النظر عن ديانته أو جنسه.

فقد جاءت خطبة الوداع بمثابة تقرير شامل لحقوق الإنسان، وبيان واضح لعلاقات المسلم ومعاملاته مع غيرة من البشر يقول فيها:

{أيها الناس، اسمعوا قولي فإني لا أدري لعلي لا ألقاكم بعد عامي هذا..... إن دماءكم وأموالكم حرام عليكم[2]، كحرمة يومكم هذا، في شهركم هذا، في بلدكم هذا، ألا كل شيء من أمر الجاهلية تحت قدمي موضوع، ودماء الجاهلية موضوعة، وإن أول دم أضع من دمائنا دم ابن ربيعة بن الحارث،..... وربا الجاهلية موضوع، وأول ربا أضع من ربانا ربا العباس بن عبد المطلب، فإنه موضوع كله.

فاتقوا الله في النساء فإنكم أخذتموهن بأمانة الله، واستحللتم فروجهن بكلمة الله، ولكم عليهن ألا يوطئن فرشكم أحدًا تكرهونه، فإن فعلن ذلك، فاضربوهن ضربًا غير مبرح، ولهن عليكم رزقهن وكسوتهن بالمعروف، وقد تركت فيكم ما لن تضلوا بعده إن اعتصمتم به كتاب الله.

أيها الناس، إنه لا نبي بعدي، ولا أمة بعدكم، ألا فاعبدوا ربكم وصلوا خمسكم، وصوموا شهركم، وأدوا زكاة أموالكم، طيبة بها أنفسكم، وتحجون بيت ربكم، وأطيعوا ولاة أمركم، تدخلوا جنة ربكم} [3].

وأخرج مسلم أنه قال: " وأنتم تسألون عني، فما أنتم قائلون؟ " قالوا: نشهد أنك قد بلغت وأديت ونصحت، فقال بإصبعه السبابة يرفعها إلى السماء وينكتها[4] إلى الناس: (اللهم اشهد) ثلاث مرات.

وهذه الوصية تحرم كل أنواع الاعتداء على حق الحياة بأية صورة وعلى أي وضع ودعا الرسول الكريم فيها إلى استخدام كل وسائل الصفح والعفو ونبذ الأحقاد والتمزق وحُرمة الدم والمال.

---

(١) يوم عرفة ١٠ هـ وفيها أنظر: صحيح مسلم كتاب الحج باب حج النبي ﷺ ٨/١٧٠-١٩٦، والبداية والنهاية 5/99 وزاد المعاد ١٠١/٢ .

(٢) أنظر، صحيح مسلم: (٤|٤١).

(٣) الترمذي: ٢|٦١، وأحمد (٥ / ٢٥١) والحاكم (١ / ٣٨٩)، وصححه ووافقه الذهبي.

(٤) ينكتها: يقلبها ويرددها الى الناس مشيراً اليهم.

وهكذا كان رسول الله ﷺ أحسن الناس وجها وأعظمهم خلقا، وأطيبهم نفساً وأكرمهم سجايا، وأشرفهم خصالاً وما ذكر خلق محمود إلا كان للنبي ﷺ الحظ الأوفر منه.

أما بعد

كان سيد المرسلين ﷺ أكثر الناس تواضعاً في غير ذلة وكان أكثر الناس حلماً في غير ضعف وكان أكرم الناس عفوا مع القدرة وكان أوفر الناس حياء في غير خنوع وكان أعظم الناس غيرة في غير إفراط وكان أسرع الناس غضباً لله في غير اندفاع وكان أفضل الناس تسامحاً في غير تفريط، وكان أطيب الناس في غير سفه أو تبذير وكان أروع الناس شجاعة في غير تهور، وكان لأشد الناس زهداً في الدنيا مع تمكنه منها وقدرته عليها.

وبوجه عام فقد كان سيد المرسلين ﷺ هو المثل العلى للإنسانية الكاملة والصورة الصادقة للبشرية السامية التي ارتقت بصاحبها إلى أعلى عليين[١]

وأجمل منك لم تر قط عيني وأكمل منك لم تلد النساء[٢]

"وعندما انتقل محمد (ﷺ) إلى جوار ربه كانت السكينة ترفرف على أكبر مساحة من شبه الجزيرة، بصورة لم تكن القبائل العربية تعرفها من قبل"[٣].

فرحمك الله يا رسول الله وعليك السلام يا نبي الإسلام والسلام.

---

(١) حسين محمد يوسف: من أخلاق الرسول ﷺ، مكتبة نور الهدى، القاهرة، ١٩٩١ م / ١٤١٢ هـ ص ٢١.

(٢) البيت من قصيدة لحسان بن ثابت حسان تمدح الرسول ﷺ وذلك قبل فتح مكة فتكشف عن عمق إيمانه به وعن مدى حبه وإجلاله له عليه الصلاة والسلام.

(٣) توماس أرنولد: الدعوة، مرجع سابق، ص ٥٣.